



جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية

358هـ - 568هـ

968م - 1172م

إعداد الطالب

سمير عبدالوهاب عبدربه العساسفة الحباشنة

إشراف

الأستاذ الدكتور سمير محمود الدروبي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا استكمالاً

لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه

في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2007

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم



MUTAH UNIVERSITY

Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب سمير عبد الوهاب العساسة الموسومة بـ:

ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية

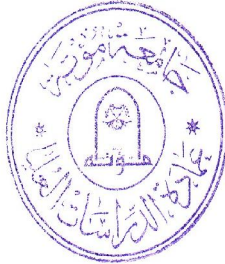
358هـ - 568هـ / 968م - 1172م

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة ^{المستدرة} ~~المستدرة~~ في اللغة العربية.

القسم: اللغة العربية.

التوقيع	التاريخ	
أ.د. سمير محمود الدروبي	2007/4/22	مشرفاً ورئيساً
أ.د. أنور عليان أبو سويلم	2007/4/22	عضواً
أ.د. ماجد ياسين الجعافرة	2007/4/22	عضواً
د. فايز عبد النبي القيسي	2007/4/22	عضواً

عميد الدراسات العليا
أ.د. حسام الدين المبيضين



MUTAH-KARAK-JORDAN

Postal Code: 61710

TEL :03/2372380-99

Ext. 5328-5330

FAX:03/ 2375694

e-mail:

dgs@mutah.edu.jo

sedgs@mutah.edu.jo

http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤتة - الكرك - الاردن

الرمز البريدي: 61710

تلفون: 03/2372380-99

فراعي: 5328-5330

فاكس: 03/2 375694

البريد الإلكتروني

الصفحة الإلكترونية

الإهداء

إلى من ربياني صغيراً والدي ووالدتي.
إلى من وقفت إلى جانبي وشريكة حياتي الزوجة الوفية أم جهاد.
إلى أحبائي، جهاد وآلاء وإسراء ومجاهد وحمزة وزيد وعمرو ومنى.

أهدي هذا العمل

سمير الحباشنة

الشكر والتقدير

الشكر لله تعالى الذي أعانني على كتابة هذا المبحث ثم الشكر متواصلاً إلى جامعة مؤتة التي أتاحت لي الفرصة لتكملة دراستي فيها وبارك الله في القائمين عليها، وأخص بالشكر والعرفان الأستاذ الدكتور سمير محمود الدروبي الذي قبل الإشراف على رسالتي وعلى ملاحظاته وإرشاداته القيمة وإلى أعضاء اللجنة المناقشة الأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم ، والأستاذ الدكتور ماجد الجعافرة، والأستاذ الدكتور فايز القيسي إلى أخي الأستاذ الدكتور محمود صالح جابر على مواقفه النبيلة معي. وإلى موظفي مكتبة جامعة مؤتة على حسن تعاونهم.

سمير الحباشة

قائمة المحتويات

الصفحة	المحتوى
د	الإهداء
هـ	الشكر والتقدير
و	قائمة المحتويات
ح	الملخص باللغة العربية
ط	الملخص باللغة الإنجليزية
1	الفصل الأول: نشأة ديوان الإنشاء الفاطمي ومراحل تطوره
1	1.1 المقدمة
4	2.1 تمهيد: الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية
4	1.2.1 الحياة السياسية
13	2.2.1 نسب الفاطميين
15	3.2.1 الحياة الاجتماعية
20	4.2.1 الحياة الثقافية
28	3.1 فضل الكتابة
32	4.1 تعريف ديوان الإنشاء
36	5.1 مراحل تطور ديوان الإنشاء
48	الفصل الثاني: شروط الكتاب وصفاتهم في ديوان الإنشاء الفاطمي
48	1.2 الصفات الشخصية للكتاب
52	2.2 الصفات الخلقية والخلقية للكتاب
53	3.2 الشروط الفنية المطلوب توافرها في كتاب ديوان الإنشاء
75	الفصل الثالث: الجهود الكتابية لديوان الإنشاء وما صدر عنها من مكاتبات
75	1.3 الجهود الكتابية لديوان الإنشاء
80	2.3 المخاطبات الإعلامية
81	1.2.3 المناشير
86	2.2.3 التوقيعات
91	3.2.3 عقود الأمان
95	4.2.3 البيعات

104	3.3 التنظيمات الإدارية
104	1.3.3 السجلات
110	2.3.3 التقاليد
117	3.3.3 الإقطاعات
119	4.3.3 الهدن
122	5.3.3 الكتب عند حدوث الآيات السماوية
123	6.3.3 الكتب في التوفقة بين السنين الهلالية والخرافية
127	الفصل الرابع: الأساليب والخصائص الفنية لديوان الإنشاء الفاطمي
127	1.4 الاستشهاد من القرآن الكريم
130	2.4 العقائد الفاطمية
137	3.4 المقدمات التي كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم
139	4.4 كثرة الجمل الدعائية والمعتضة
142	5.4 التناص وتوظيف الموروث
149	6.4 المحسنات البلاغية والبيانية
149	1.6.4 الجناس
151	2.6.4 السجع
154	3.6.4 الطباق
157	الفصل الخامس: مشاهير كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي
157	1.5 ابن خيران
160	2.5 ابن الشخباء العسقلاني
162	3.5 ابن الصيرفي
166	4.5 أبو الفتح بن قادوس
168	5.5 ابن الخلال
173	6.5 القاضي الفاضل
185	7.5 الخاتمة
187	المراجع

ملخص
ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي
سمير عبدالوهاب الحباشنة
جامعة مؤتة، 2007

اعتنى الفاطميون بديوان الإنشاء عناية عظيمة، وأولوه المكانة والمنزلة التي تليق به، وأراد الفاطميون من ذلك منافسة العباسيين في مؤسساتهم الكتابية، فجاء ديوان الإنشاء محققاً لهذه الغاية فزاد اهتمام الخلفاء والأمراء والوزراء بهذا الديوان ، واتخذوه وسيلة لرفعة قدرهم ونشر ذكرهم في الآفاق ذلك إن كتّابه كانوا يشيدون بمجدهم فيما يكتبون من رسائل وتوقيعات وسجلات، وبيعات ومناشير... الخ. فزرعوا في قلوب شعبهم إجلالهم وتقديسهم ، ونشروا أسماءهم محاطة بهالة من التعظيم.

تحدثت في المقدمة عن نسب الفاطميين والحالة السياسية والثقافية والاجتماعية قبل مجئ الفاطميين إلى مصر.

وفي الفصل الأول ، تطرقت فيه إلى ديوان الإنشاء الفاطمي ب مصر وجهوده الكتابية.

وفي الفصل الثاني، تعرفنا على شروط الكتاب وصفات مهفي ديوان الإنشاء الفاطمي.

وفي الفصل الثالث تطرقت إلى الجهود الكتابية لديوان الإنشاء وما صدر عنه من مكاتبات.

وفي الفصل الرابع فتحدثت فيه عن الأساليب والخصائص الفنية لديوان الإنشاء الفاطمي.

وفي الفصل الخامس تعرفت على بعض مشاهير كتاب ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي.

Abstract
Fattemd Chancellery of composition
Sameer Abd-Alwhab Al-Habashneh
Mu'tah University, 2007

Fattemeans have paid great attention to Chancellery of state of composition and gave it the status which it deserves. They wanted to make a competition with Al A'basean in their writing institutions, so this Chancellery of state has achieved what they wanted. Since that time, Caliphs, princes, and ministers increased their concern with this Chancellry of state , and took it as a way to raise their reputation in horizons. Writers of Chancellery of state ,when they were writing letters, signatures, records, and leaflets.....etc, used to be praised themselves and made common people to respect them, also they surrounded their names with greatness.

In the introduction I talked about Fattemed lineage and political, cultural, and social status before the Fattemed coming to Egypt. In chapter one I dealt with the beginning of the Fattemed Chancellery of state of composition; chapter two includes the conditions and characteristics of the Chancellery of state 's writers; The third chapter discussed the Chancellery of state 's efforts in writing and publishes. in chapter four I talked about the methods and artistic characteristics of the Fattemed composition Chancellery of state . Finally, chapter five contains progropheis of the most famous writers of the Chancellery of state in Fattemed period.

الفصل الأول

ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية

(358هـ/968م) - (568هـ/1172م)

1.1 المقدمة

عنيت الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء عناية كبرى ، واتخذته وسيلة لرفعة قدرها ونشر ذكرها في الآفاق نلك أن كتابه يشيدون بمجد الفاطميين فيما يكتبون من رسائل وغيرها ، فينون في قلوب الشعب إجلالهم وتقديرهم ، كما ينشرون اسمهم محاطاً بهالة في التعظيم في أنحاء العالم ، وهذا كان لا يرأس هذا الديوان إلاّ أجل كتاب البلاغة، ويخاطب بالشيخ الأجل ويدعى، بكاتب الدست.

وعدت الدولة الفاطمية ديوان الإنشاء مظهراً من مظاهر الاستقرار والأصالة السياسية والإدارية والعلمية . ذلك أن هذا الديوان قد تركزت فيه بحق كل صور البراعة الدبلوماسية، والمهارة السياسية والحكمة الإدارية، والقدرة البلاغية والثقافة العلمية فهو أشبه بوزارة الخارجية في وقتنا الحاضر ، فمنه تصدر المراسلات الرسمية الخارجية من حكام مصر الفاطمية إلى غيرهم من الحكام المسلمين وغير المسلمين ويشرف رئيسه على المفاوضات المتعلقة بأمور داخلية أو خارجية ، ثم يسجلها يسجل المعاهدات والمهادنات بين حكام مصر وغيرهم وفوق ذلك كان ديوان الإنشاء منسق للإدارة الداخلية، لأن جميع المراسلات ترد عليه من مختلف نواحي الدولة فيقرأها رئيسه أو مساعده ، ويوزعون نسخاً عنها إلى جميع الجهات المختصة بعد إيداع النسخ الأصلية في أماكن حفظها الخاصة.

وقد مرّ ديوان الإنشاء في مصر بعدة مراحل متتابعة:

الأولى: منذ الفتح الإسلامي إلى بداية الدولة الطولونية.

الثانية: من بداية الدولة الطولونية إلى نهاية الدولة الإخشيدية.

الثالثة: من بداية الدولة الفاطمية إلى انقراض هذه الدولة.

الرابعة: من قيام الدولة الأيوبية إلى نهايتها.

الخامسة: من قيام دولة المماليك حتى سقوطها على يد الأتراك العثمانيين.

وقد قامت الخلافة الفاطمية لتنافس الخلافة العباسية ، وتحاول القضاء عليها، وكان بين الخلافتين صراعٌ عنيفٌ استعمل فيه كل سلاح ممكن، ومن الأسلحة التي استعان بها الفاطميون وبرعوا فيها سلاح العلم والأدب والثقافة ، إذ أن مذهبهم الشيعي الذي يخالف المذهب السني في حاجة إلى كسب المؤيدين في أنحاء العالم الإسلامي من جهة ، والموقف في وجه علماء السنة في مصر والعراق وغيرها عندما أقاموا مجادلة مضادة لدحض آراء الفاطميين من جهة أخرى ، فكانت معركة سلاحها الحجة والإقناع وغازة العلم.

وبمجيء الفاطميين استقلت مصر استقلالاً تاماً ، وصارت القاهرة عاصمتهم مقر خلافة واسعة ، وإن كانت هذه الخلافة شيعية ذات عقيدة مخالفة للعقيدة السنية العباسية.

فكانت الإدارة في عهد الفاطميين تدار كما كان سابقاً بواسطة سلطة الدواوين التي كان يطلق عليها أو على وظائفها اسم (الوظائف الديوانية) فقد كانت حكومة الفاطميين حكومة مدنية ، ومصدر ذلك أن الفواطم أتوا مصر ومهمتهم الأولى والأخيرة هي الدعوة الفاطمية ، ثم أن الفاطميين استقلوا بمصر فأنشئوا فيها خلافة جديدة ناهضت الخلافة العباسية العتيقة في كثير من مظاهرها ، واستعان الخليفة الفاطمي في إدارة مصر بحكومة معقدة التركيب ، كثيرة الدواوين ، مشحونة بعدد ضخم من الموظفين على رأسهم الوزير ، فمن دواوين الحكومة الفاطمية إذ ذاك ديوان الإنشاء، ديوان بيت المال ، وديوان الجيش ، وديوان الأحباس ، وديوان الرواتب، وديوان خزائن الكسوة والطرار ، وفي كل ديوان من تلك الدواوين عدد كبير من الموظفين.

وتتناول هذا البحث ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي ، نشأته، ومراحل تطوره ، وشروط وصفات هؤلاء الكتاب ، للجهود الكتابية لهذا الديوان ، وما صدر عنه من مكاتبات، والأساليب والخصائص الفنية لديوان الإنشاء الفاطمي، ومختتماً بمشاهير كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي.

ومن أسباب اختياري لهذا البحث ما يأتي:

أن مناهل العصر الفاطمي لا زالت ذ صبه عامره لا تتضد ب، بل تتيح الفرصة
للمزيد من الأقلام لإبراز النشاطات الفكرية الواسعة النطاق، و ما كتب حول هذا
الموضوع لا يعدو إشارات مبثوثة في بطون بعض الكتب التي كتب لها البقاء بعد
إحراق الدولة الأيوبية لمعظمها.

أما الصعوبات التي واجهت مقدم هذا البحث:
أقله ما كتب حول هذا الموضوع ، إلا كما أسلفت سوى ما كان مبثوثاً في
بعض الكتب.

2. صعوبة توفير بعض المصادر التي تناولت ديوان الإنشاء في العصر
الفاطمي.

وقد تمكنت من الإطلاع على كتابات الباحثين الذين تناولوا بعض الموضوعات
التي لها علاقة من قريب أو من بعيد بموضوع رسالتي ، ألقى خضر أحمد عطا الله
"الحقا الفكرية في مصر " وحسن إبراهيم تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر
وسورية وبلاد العرب " ومحمد جمال سرور "الدولة الفاطمية في مصر" ومحمد كامل
حسين في "أدب مصر الفاطمية " وعبد المنعم ماجد "السجلات المستتصرية" وجمال
الدين الشيال "مجموعة الوثائق الفاطمية " ومحمد زغلول سلام "الأدب في العصر
الفاطمي الكتابة والكتاب".

فوجدت أن كل مؤلف من هؤلاء المؤلفين قد ركز على جانب على حساب
جوانب أخرى من الموضوع، إضافة إلى النزعة التي نلمحها في بعض الكتابات.
وأدرت البحث على خمسة فصول هي:

الفصل الأول: ديوان الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية.

الفصل الثاني: شروط الكتاب وصفاتهم في ديوان الإنشاء الفاطمي.

الفصل الثالث: الجهود الكتابية لديوان الإنشاء وما صدر عنها من مكاتبات.

الفصل الرابع: الأساليب والخصائص لكتابة ديوان الإنشاء الفاطمي.

الفصل الخامس: مشاهير كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي.

ورحم الله العماد الأصفهاني ، حيث يقول : إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في
يومه إلا قال في غده لو غيُّ رَ هذا لكان أحسن ولو زيد لكان يستحسن ، ولو قدّم هذا

لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذه أعظم العبر وهو دليلٌ على استيلاء
النقص على جملة البشر".

وفي الختام فإني قد بذلت جهدي والله الموفق.

2.1 تمهيد: الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية

1.2.1 الحياة السياسية:

1. الإمامة:

هي أصل جميع نظم الحكم في الدولة الفاطمية في مصر ⁽¹⁾ وكلمة (إمامة) التي
كان يستعملها الشيعة عامة والفاطميون بخاصة لها مدلول كلمة (خلافة) التي كان
يستعملها الأمويون والعباسيون ⁽²⁾. لقد أخذ الفاطميون بمبدأ نظام الوراثة منذ نشأت
دولتهم، أي انتقال الإمامة من الأب إلى الإل عن طريق التعيين بالنص ، لكن بعض
الأحداث حملتهم على الخروج عن هذا المبدأ ، فحاول الخليفة بأمر الله أن يحرم ابنه
ألبلس عليا الذي تولى الخلافة من بعده باسم الظاهر من ولاية العهد، وعهد بها
بن لاعمه عبدالرحيم بن إلياس، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه الظاهر ،
وهناك حالة أخرى، فبعد وفاة الخليفة الأمرولي الخلافة عمه الحافظ ، وكذلك ولي
العاضد لدين الله الخلافة بعد وفاة الفائز وكان ابن عمه ⁽³⁾.

ونظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية يقضي أن تكون الإمامة في نسل علي
بن أبي طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائماً من الأب إلى الابن، فهم في هذا يختلفون
عن الأمويين والعباسيين الذين كانوا يبيعون أن تنتقل الخلافة أحياناً إلى الأخ أو إلى
ابن العم أو إلى أكبر أفراد الأسرة سناً والسر في التزام الشيعة الإسماعيلية هذا

⁽¹⁾ الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد حبيب (ت450هـ/1058م): الأحكام السلطانية
والولايات الدينية، القاهرة، 1909، ص3.

⁽²⁾ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت1406/808): المقدمة، ط1، دار إحياء التراث
العربي، بيروت، ص342، 408.

⁽³⁾ أنظر مجموعة الوثائق الفاطمية، تحقيق وجمع جمال الدين الشيّال، ط1 مكتبة الثقافة
الدينية، القاهرة، 1422-2002م، ص20-21.

النظام من نظم الوراثة كونه عاملاً من عوامل الاستقرار، وأنه جنب الأسرة والدولة -إلى حد كبير- عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم في سبيل العرش⁽¹⁾.

خلاصة عقيدة الشيعة في الإمامة تقوم على النظر إلى الإمام نظرة التقديس ، فهو يتلقاه من الله عن طريق الوحي، و يعده الله إعداداً خاصاً من حين يكون نطفة، وحفظه برعايته السامية ، ويعصمه من الذنوب، ويورثه علم الأنبياء والمرسلين. يطعمه على كل ما كان و ما سيكون، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم علماً علمه الناس ، وعلماً أثر به علياً وعلماً أثر به وصيه، و هكذا إلى المهدي الثاني عشر ، والإمام ظل الله في أرضه فور الله في أرضه ، والوسيلة الوحيدة لمعرفة الحق والباطل، والاعتقاد بذلك جزء من الإيمان ، كالإيمان بالله ورسوله لا تتفع أعمال الإنس إلا به، بل إن عصيان المؤمن قد يخففه بل يمحوه الإيمان بالإمام. الإمام في نظر الشيعة فوق أن يحكم عليه ، وهو فوق الناس في طيبته وتصرفاته وهو مشرع وهو منفذ ولا يسأل عما يفعل والخير والشر يقاس به فما عمله هو خير وما نهى عنه فشر⁽²⁾.

ويرى الكليني أن الإمام هي منزلة الأئمة بقاء، وإرث الأوصياء... الإمام يحل حلال الله حرام الله الإمام البدر المنبر والسراج الزهار والنور الساطع الإمام المطهر من الذنوب ، والمبرأ من العيوب ... الإمام واحد دهره ، لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير⁽³⁾.

والإمام عند الشيعة لا تصل ولايته على البشر فقط ، وإنما ينتقل إلى الكون وما به فيقول الخميني في بيان خلافة و ولاية الإمام الكونية : "وثبت الولاية و الحاكمية الإمام لا تعني تجرده عن منزلته التي هي له عند الله ، ولا تجعله مثل عداه من

(1) الشيال، جمال الدين، مجموعة الوثائق الفاطمية، وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002/1422م، ص25.

(2) أمين أحمد، ضحى الإسلام، ج3، ص220-221 مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط2، 1987م.

(3) الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق، الأصول من الكافي، دار صعب، بيروت، ط4، 1401هـ.

الحكام فإن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون.

إن ومن ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنواراً فجعلهم بعرشه مدققين وجعل لهم من المنزلة و الزلفى ما لا يعلمه إلا الله⁽¹⁾.

الشيعة ترى أن معرفة الإمام تعني عبادة الله ، ويروي الكليني عن أبي جعفر قوله: إنما يعرف الله عز وجل ويعبد من عرف الله وعرف إمامه منا أهل البيت ، ومن لا يعرف الله و لا يعرف الإمام منا أهل البيت فإنما ي عرف ويعبد غير الله ، هكذا والله ضلالاً⁽²⁾.

العصمة أهم الفضائل التي يوجبها الشيعة للإمام حتى أصبحت وصفاً ملازماً له، وتستدل الشيعة على وجوب عصمة الإمام بقوله تعالى لإبراهيم -عليه السلام-: "إني جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين"⁽³⁾.

ففي جواب الله على طلب إبراهيم أن يجعل الإمامة في ذريته قال : "لا ينال عهدي الظالمين" كل من كان مذنباً فإنه ظالم . فكل من كان مذنباً سواء أكان ذنبه ظاهراً أم باطناً لا يكون إماماً، فالإمام إذن لا بد أن يكون معصوماً⁽⁴⁾.

وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته، ومن ثم نرى أتباع الفاطميين يخلعون على خلفائهم صفات التقديس مما لم يوصف به خلفاء

(1) الحميني، آية الله، الحكومة الإسلامية، تقديم وتعليق د . محمد الخطيب، دار عمار، عمان، ط1، 1988م.

(2) الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج1، ص181.

(3) البقرة، الآية: 124.

(4) صبحي، د. أحمد محمود، نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية، دار المعارف، القاهرة، 1969، ص104-129.

بني العباس⁽¹⁾. ولاغرو فقد خاطب ابن هانئ الأندلسي المعز لدين الله الفاطمي حين حلَّ بقرية رقادة بجوار القيروان بهذه الأبيات:

حلَّ برقاده المسريح	حلَّ بها آدم ونوح
حلَّ بها أحمد المصفي	حلَّ بها الكبش والذبيح
حلَّ بها الله ذو المعالي	وكل شيء سواه ريح ⁽²⁾ .

هذا الشاعر اشبيلي ولكنه بسبب آرائه الفلسفية انتقل إلى المغرب فأصبح شاعر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ولقائه جوهر الصقلي ويلقبونه بمثيني الغرب وهو شاعر منتم للفاطمييين وبومتهم في نقل عقائدهم وتاريخهم : وهو صاحب القصيدة المشهورة حينما فتح الفاطميون مصر على يد قائدهم العظيم جوهر الصقلي:

تقولُ بنو العباس هلْ فُتحتْ مِصرُ	فقلْ لبني العباسِ قد قضى الأمرُ
وقد جاوزَ الإسكندريَّةَ جوهرُ	نُظِّلَ البُشرى وَيَقْدُمُهُ النَّصرُ

ونرى من خلال هذه الأبيات كيف وصل الإلحاد في الدين عند ابن هانئ الأندلسي بأن جعل الله يحلُّ في المعز، بل لكأنه الله -جلَّ جلاله- عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته.

وهناك طائفة مفهيسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بالوهمية هؤلاء الأئمة، إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية ، أو أن الإله حلَّ في ذاتهم البشرية، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصاري في عيسى صلوات الله عليه⁽³⁾.

ولتعميق هذا المفهوم عمد الخلفاء الفاطمييون إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائهم، وكان من أثر هذه الجهود أن روج فكرة تقديس الأئمة في كثير من

(1) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط3، 1964م، ص264.

(2) ابن هانئ ديوانه، بيروت، 1326هـ، ص351.

(3) ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المغربي (ت1406/808): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 1420هـ/1999م، ص351.

أرجاء العالم الإسلامي كمصر واليمن وفارس والهند ، بل توغلت هذه التعاليم في بلاد الأندلس نفسها التي كانت إذاك تحت نفوذ الأمويين السنيين (1) وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها: الخليفة الفاطمي، أو العلوي أمير المؤمنين. ومن الألقاب المحببة إلى الإسماعيلية لقب : إمام، وصاحب الزمان، والسلطان والشريف القاضي، كما يظهر من مخاطبة قاضي القضاة للخليفة في خطبة الجمعة: السلام على أمير المؤمنين "الشريف القاضي الخطيب ورحمة الله وبركاته" (2).
قد انقسم العهد الفاطمي في حكم مصر إلى دورين تاريخيين ، واختلفا اختلافاً كلياً فمن كان صاحب السلطة السياسية: فالدور الأول (341هـ/952م - 411هـ/1020م) هو دور حكم الخلفاء : المعز لدين الله ، والعزیز بالله بن المعز لدين الله والحاكم بأمر الله ابن العزيز بالله، والظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله.

مأً الدور الثاني : فهو دور الخلفاء الضعفاء الذين حكموا اسمياً (427هـ/1035م - 544هـ/1149م) وهم: المستنصر بالله ابن الظاهر لإعزاز دين الله، المستعلي بالله والأمر بأحكام الله ابن المستعلي بالله، والحافظ لدين الله ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر "وهو أول خليفة لم يل أبوه الخلافة" (3).
وبعد الخليفة رأس الدولة، فتشمل سلطته السياسية قيادة الجيش ، وهو رأس السلطة التنفيذية الذي يعين الوزراء والولاة والأمراء وسائر الموظفين ، ويقطع الإقطاعات. وهو القاضي الأعلى (رأس القضاة) يتولى ديوان المظالم أحياناً ويسمى قاضي القضاة والكتاب العدول والشهود وغيرهم. وله حق إقالتهم أو صرفهم أو مصادرة أموالهم تنكسر سيادته الدينية في ذكر اسمه على المنابر ونقشه على السكة والطرز (4) وهو الذي يحث على الجهاد ويستعرض الجيوش البرية والبحرية

(1) حسن إبراهيم، حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص265.

(2) المرجع السابق، ص266.

(3) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي (ت1282/681): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس، 7 أجزاء، ج3، ص236-237.

(4) الطراز، الثوب الحسن المعلم/ معجم العين، طرز.

ليباركها... والخليفة صاحب لحق بالثواب أو العقاب ، بالمكافأة أو بالعزل من المناصب مع مصادرة الأموال والأموال إذا اتضح أنها جمعت بطرق غير مشروعة⁽¹⁾.

2. الوزارة:

وهنظام متعارف عليه في الدول الإسلامية في العصور الوسطى ، وهي من أصل ساساني⁽²⁾، والمعروف أن خلفاء بني العباس هم أول من اتخذ الوزراء لإدارة شؤون دولتهم حين أخذوا هذا المنصب عن الفرس ، وأول من لقب بالوزارة في الإسلام، أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس⁽³⁾ وتسمى الوزارة عند الفاطميين "رتبة"⁽⁴⁾ وفي الدولة الفاطمية كانت الوزارة في أرباب السيوف تارة وفي أرباب الأقلام تارة أخرى.

وكانت الوزارة في العصر الفاطمي الأول (358-365هـ) وزارة تنفيذ لأن الخلفاء كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يديروا أمور الدولة بأنفسهم ومن أشهر وزراء هذا العصر يعقوب بن كلس وأبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح الملقب (وزير الوزراء ذي الرياستين)⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من العظمة التي كان يتمتع بها الوزير في العصر الفاطمي الأول كانت سلطته محدودة ، إذ كان بقاءه في مركزه يتوقف على رضا الخليفة غير أن تلك العظمة لم تلبث أن تبدلت ، ولا سيما في العصر الفاطمي الأخير

(1) المقرئزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت845/ 1441): اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج 1، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1387هـ/1967م، وج2، ج3، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1390هـ/1393م، 1971-1973، ج2، ص59.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص2.

(3) القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ-1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، ط 1، دار الفكر، دار الكتب العلمية، 1407هـ/1987م، ج3، ص295.

(4) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص439.

(5) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، ص261.

(465-567هـ)، بمعنى أن الوزارة أصبحت وزارة تفويض بعد أن كانت وزارة تنفيذ وأشهر وزرائها أبو علي الحسن بن أبي سعيد التستري ، وأبو محمد الحسن اليازوري علي بن عبد الرحمن⁽¹⁾.

وأطلق عليها اسم "الوساطة"⁽²⁾ وكان الذي يتولاها يسمى "بالوسيط"، لأنه كان يتوسط بين الخليفة ورعيته⁽³⁾ وأول من خطب بالوزارة يعقوب بن كلس وزير العزيزي وزرائهم من عظماء أرباب السيوف بدر الجمالي وزير المستنصر ، وآخر هلال الدين بن يوسف بن أيوب⁽⁴⁾، وكان بدر الجمالي وزيراً للسياط والقلم في آن واحد⁽⁵⁾ وانهت من الوزراء أرباب الأقلام : اليازوري والتستري ، وعلي بن الفلاح ومن أرباب السيوف: "برجوان" وقائد القواد الحسين بن جوهر⁽⁶⁾.

وفي أواخر عهد المستنصر بالله تم كن قادة العسكر في الدولة الفاطمية من الوصول إلى السلطة سنة 467هـ/1074م عندما كتب المستنصر بالله إلى أمير الجيوش وهو يومئذ بعكا ، يستدعيه للقدوم لنجدته وإعانتته ، ووعدته بتملك البلاد والاستيلاء عليها بشرط عليه أن يأتي بعسكر معه ، وأن لا يبقى أحداً من عساكر مصر ولا وزرائهم ، فوافقه المستنصر بالله على ذلك واستأثر بالسلطة كاملة بعد أن قضى على أمراء الدولة ومقدميها لنهاية وليمة أقامها لهم.

واستأثر بدر الجمالي لنفسه حق التعيين في أكبر مناصب الدولة كقاضي القضاة وداعي الدعاة التي كانت من حق الخليفة فيما سبق ، واستمرت هذه الظاهرة حتى

(1) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، ص329.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص295.

(3) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت555هـ/1160م): تاريخ ابن القلانسي المسمى ذيل تاريخ دمشق. تحقيق: أمسد روز (مطبعة الأباء اليسوعيين)، بيروت، 1908، ص81.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص295.

(5) ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب (ت677هـ/1278م): المنتقى من أخبار مصر . تحقيق: أيمن فؤاد سيد، (العهد العلمي الفرنسي بمصر)، القاهرة، ص52.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص561-562.

سقوط الدولة الفاطمية نهاية 567هـ/1171م، ولأول مرة تصبح الوزارة وراثية لأن بديراً عهد إلى ولده الأفضل بتوليها بعد وفاته⁽¹⁾.

وقد أصبح بمقدور الوزراء العظام تعيين الخليفة الفاطمي أو الحجر عليه وحتى عزله، فانقلب بذلك الأوضاع السياسية في البلاد، وكان أيضاً من مهام الوزير إدارة الشؤون المالية، والموازنة بين الواردات والنفقات، وفرض الضرائب والاعفاء منها، والتوقيع عن الخليفة ومراقبة الدواوين والإشراف على الكتاب، ويقوم الوزير بتأدية مهام خاصة كإن يرافق الخليفة داخل القصر، وينتظره أحياناً مع غيره من الأمراء والقاضي والمقربين على باب القصر إذا أخرج أو يرافقه في كسر الخليج⁽²⁾، وفي الاحتفالات العامة ويلزمه في الاحتفالات الدينية داخل المسجد، وإذا لم يحضر الوزير سماط رمضان⁽³⁾ كان ينيب عنه بئله أو أخاه وإلا تصدر صاحب الباب السماط⁽⁴⁾.

وتقتضي السياسة الفاطمية أن يتحلى الوزير بالصدق والأمانة والكفاءة⁽⁵⁾، لذا لم تفرّق الدولقيين من يليها أكان مسلماً أم كان من أهل الذمة فقد عرفت الدولة الفاطمية عدداً من الوزراء الذين أسلموا حديثاً طمعاً في الوزارة أو أي وظيفة إدارية أخرى، فقد كان يعقوب بن كلس يهودياً ثم أسلم، وكان ماهراً في

(1) المقرئزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء، ج2، ص311-312.

(2) كسر الخليج: يقصد به كسر السد الواقع عند فم الخليج، يوم وفاء النيل في كل عام، أي عندما يبلغ ارتفاع الماء ستة عشر ذراعاً وتكون أفواه الترعة مسدودة في البلاد كلها، فيحضر الخليفة لفتح أو كسر الخليج، ثم تفتح بعده الخلجان في كافة أرجاء البلاد. ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، منشورات دار الكتاب العربي الجديد، بيروت، 1970، ص93.

(3) سماط رمضان: سماط جمع سمط، وهو ما يبسط ليوضع عليه الطعام، "المنجد في اللغة والإعلام"، باب سمط، وكان الفاطميون يستخدمونه لموائدهم في شهر رمضان.

(4) الصيرفي، علي أبو القاسم (ت1147/542): الإشارة لمن نال الوزارة (المعهد العلمي الفرنسي). القاهرة، 1924م، ص21.

(5) المصدر السابق، ص10.

المؤر المالية والشؤون الإل دارية⁽¹⁾ رقي فهد بن إبراهيم النصراني إلى منصب الوزارة للحاكم بأمر الله بعد أن كان كاتباً ولقب بالرئيس⁽²⁾، وكذلك تقلد الوزارة أبو نصر بن عبدون الكاتب النصراني سنة 400هـ/1009م فسمح له الحاكم بأمر الله أن يوقع عنه⁽³⁾، ويتولى الوزارة على أيام المستنصر بالله أبو سعد منصور بن أبي اليمن حورس بن مكرواه بن نبور⁽⁴⁾ الذي كان نصرانياً وأسلم وشغل أبو نجاح ابن فنا الراهب النصراني منصب الوزارة للأمر بأحكام الله⁽⁵⁾.

وتولى الوزارة ولعمر من السنة مثل رضوان بن ولخش ، على أيام الحافظ لدين الله أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي ، وابن السلار الكردي الشافعي الذي استوزره الخليفة الظافر بأمر الله سنة 543هـ/1148م كما انتقلت الوزارة من الأب إلى الابن فالحفيد⁽⁶⁾ (الوراثه في الوزارة الجمالية) فقد تولّاها الأخ بعد أخيه فلما توفي الوزير عبدالكريم بن عبدالحكم ابن سعيد الفارقي، سنة 453هـ/1061م، تولى الوزارة أخوه أبو علي أحمد بن عبدالحكم بن سعيد الفارقي سنة 454هـ/1062م⁽⁶⁾.

وكانت العبرة في تولي الوزارة عند الفاطميين بالكفاية المطلوبة، والعمل على إرضاء الخليفة (في الدور الأول) والرعية، والنزاهة والصدق لذا لم يفرق الفاطميون بين من يلي الوزارة سواء أكان مسلماً (شيعياً أو سنياً) أو نصرانياً أو يهودياً⁽⁷⁾.

(1) ابن تغري بردي، جمال الدين بن يوسف (ت874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، 1929، 16 جزءاً، ج 4، ص158.

(2) المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج2، ص14.

(3) المصدر السابق، ج2، ص81.

(4) المصدر السابق، ج3، ص272.

(5) المصدر السابق، ج3، ص117-118.

(6) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص48-49.

(7) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج4، ص53.

تَكَاهَنَّاكَ ألقاب خاصة للوزراء الفاطميين؛ فقد تلقب الحسن بن عمار الكتامي (بأمين الدولة)، والحسين صالح بن علي الروز باري بـ "عميد الدولة"، وبهرام الأرمني بـ "تاج الدولة"، وابن أبي كدينة بـ "ولي الدولة"⁽¹⁾.
 سُمي بعض الوزراء بأسماء الملوك وألقاب الخلفاء، فهذا رضوان بن ولخش وزير الحافظ لدين الله يلقب "بالمملك الأفضل" ولقب طلائع ابن رزيك "بالمملك الصالح" في خلافة الفائز بنصر الله، ولقب ابنه رزيك ابن طلائع "بالمملك العادل"⁽²⁾.

2.2.1 نسب الفاطميين:

لم يتفق المؤرخون على صحة نسب الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب حتى الآن، لأن الإجماع على صحة نسبهم يحتاج إلى أدلة وإثباتات.

من الصعب الحصول على هذه الأدلة، لذا نعتمد على الاختصار ما أمكن عن نسب الفاطميين إلى حين الحصول على نصوص يمكن الوثوق بها. ورأى بعض المؤرخين أنهم ينتسبون إلى أول من ولي الخلافة منهم المهدي أبي محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لمؤيد هذا النسب الذين يقولون بإمامته⁽³⁾.

(1) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن (ت911هـ/1505م) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية). 1387هـ/1967م، جزءان، ج2، ص118.

(2) ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ج2، ص94. المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص173.

(3) الأثير، أبو الحسن علي بن محمود الشيباني (ت1232/630): الكامل في التاريخ، ط2، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، 1387هـ/1963م، ج6، ص124؛ المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت843هـ-1439م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م، ج1، ص348.

وهناك جماعة شكّوا في النسب وجعلوه يهودياً⁽¹⁾. وفي محضر كتب في عهد عبد القادر بالله العباسي، (381-422هـ/974-1031م) يتضمن طعناً في نسب عبيد الله (المهدي) ونسب أولاده إلى الإمام علي غير صحيح⁽²⁾ ومن الذين وقّعوا محضر الطعن الشريفان الرضي والمرتضى وأبو حامد الإسفرايني والقُدوري مستنديين إلى أقوال الناس في بغداد ممن يخافون من بني علي بن أبي طالب أو بسبب الترغيب والترهيب لذا بقي هذا المحضر مبعث شك وتساؤل الكثيرين.

لقد كان نسب الفاطميين حجتهم التي بها يطالبون بالخلافة، ولقد كان نسبهم حجة معتمدة لا يماري فيها الأكثرون، من أتباع الدولة الإسلامية، الذين تسري بهم دعوة آل البيت، إلا العباسيين، بعد أن كانت دعوة آل البيت تشتملهم أجمعين منذ قرنين ونصف، فأنكر العباسيون نسبهم إلى الزهراء، وذهبوا إلى أنهم من نسب ميمون القداح من ديصان الثنوي القائل بوجود إلهين: إله النور وإله الظلمة⁽³⁾.

فالتفهمة كل ناظم على الفاطميين، وهم صنوف منتميون إلى كل مذهب وملة منهم الإخشيدون للأغلبية والأمويون في الأندلس زُود عليهم من كان تابعاً للفاطميين، ثم عجل المعاذير للخروج عليهم كوالي مكة، وبعض رؤساء العشائر في الجزيرة العربية، وإضافة إلى ذلك أن أناساً من العلويين شهدوا على الفاطميين بإدعائهم نسباً إلى علي وفاطمة عليهما السلام، بدليل أن الشريف أبا الحسن محمد بن علي المشهور بأبي محسن الدمشقي، كتب رسالة في تفنيد دعواهم ينكرها المقريري وينسبها إلى عبد الله بن رزام⁽⁴⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 125، 128؛ المقريري، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج 1، ص 348.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 128؛ المقريري، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج 1، ص 149.

(3) العقاد محمود، فاطمة الزهراء والفاطميون، نهضة مصر، (د.ت). ص 57-58.

(4) هو ميمون بن داود (100-170هـ) في نسبه اضطراب، كان يظهر التشيع ويبطن الزندقة استقر في سلمية وألف كتابيه: (الميزان) و(الهداية) ويقال بأنه أدرك محمد بن إسماعيل وأدبه ولقنه مذهب الباطنية (الزركلي، الأعلام) 341/7.

3.2.1 الحياة الاجتماعية:

عند دخول الفاطميين إلى مصر ، كان لمجبة الشعب المصري من أهل السنة ، إضافة إلى أقلية من الشيعة، يعود وجودهم في مصر؛ إلى جهود الدعاة الذين أرسلهم الفاطميون من حين لآخر إلى مصر للاختلاط بالناس وتعليمهم المذهب الفاطمي ، لم يمتد وقت طويل حتى تزايد عددهم ، وإضافة إلى ما قام به الخلفاء أنفسهم من نشر هذا المذهب عن طريق إرسال كتب إلى الأخشيديين بدعوتهم فيها إلى الانضمام إليهم، وظلّهار العداء للعباسيين ، وجاءت استجابة الأخشيديين سريعة لهذه الدعوة، عندما تنهى لسمعهم من أخبار العباسيين بتع بين "محمد بن رائق" واليا على مصر ، فأمر الأخشيدي بقطع الخطبة للخليفة العباسي وذكر اسم الخليفة الفاطمي⁽¹⁾.

وقد عملت العصبية عملها في المجتمع المصري آنذاك وانقسم المجتمع إلى خمس فئات "جماعات"⁽²⁾ ساهمت العنصرية في تكويدها والتفافها بعضها حول بعض وهي:

الفئة الأولى: وهي الأساس ضمت كل من طائفتي السنة والشيعة المصريتين، حيث الغلبة للسنة من حيث الكثرة العددية والسيادة السياسية بفضل مؤازرة الحكم لها أما الشيعة فكانوا أقلية ، ونشطوا سرّاً في نشر عقائدهم بين الناس إلى أن تم الفتح فاشتد ساعدتهم وزاد نفوذهم وصاروا عوناً للحكم⁽³⁾.

الفئة الثانية: أهل الذمة من اليهود والنصارى، حيث اعتنق الكثير منهم المذهب الإسماعيلي لأغراض مادية في الحصول على العطايا والهبات. وقد عومل أبناء هاتين الطائفتين معاملة تتطوي على العطف والرعاية ، إذ أنهم تقلدوا أرقى المناصب، وأعلاها في عهد الخليفة العزيز والمستنصر⁽⁴⁾.

(1) عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبري. ط1، منشورات مكتبة خياط، بيروت (د.ت)، ص12.

(2) الفئة: نعني بها جماعة من الناس عاشت في مصر للقاهرة أيام الفاطميين ، تكتلت في وجه الفئات الأخرى، تارة تعتمد المذهب جامعاً يجمعها وطوراً العصبية الأصل.

(3) إبراهيم أيوب، التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ط1 الشركة العالمية للكتاب، لبنان ، ص16-17.

(4) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص624.

الفئة الثالثة: الأتراك فقد كانت هذه الفئة موجودة على الأراضي المصرية منذ أيام الدولة الطولونية لكنها لم تظهر كفئة ذات شأن ومكانة إلا بعد تولى أبو محمد الحسن بن عمار أحد شيوخ "كتامة"⁽¹⁾ الوزارة، فبالغ في إكرامهم ومحاباتهم على غيرهم حتى استطاع زعيمها برجوان أن ينافس ابن عمّار على الزعامة ، فعمد إلى الوساطة عن طريق اقناع الحاكم بأمر الله في الا عتماد على العنصر التركي والتخلص من المغاربة فكان له ما أراد واضطر ابن عمار للهرب وحلّ برجوان محله⁽²⁾.

الفئة الرابعة: هي طبقة السودان التي يعود وجودهم في مصر إلى أيام كافور الإخشيدي الذي أكثر من استخدام أبناء جلدته . وعندما تضايق الخليفة الحاكم بأمر الله من الأتراك استعلّى بالسودان فبدؤوا يتكاثرون، وشكلوا نواة تكتل تساند الخليفة الحاكم الذي نفذوا له حريق الفسطاط، وازدادت شوكتهم في خلافة الظاهر لدين الله الذي تزوج بامرسودانية، ثم تفاقم خطرهم في خلافة المستنصر بالله ، فوقع الخلاف بينهم وبين الأتراك الذي انتهى بتشتيت الفئة السودانية في أنحاء مختلفة من البلاد⁽³⁾.

الفئة الخامسة: فئة الأفارقة من تونس جاءوا مع الخليفة الأول عبيد الله المهدي، وقامت الدولة الفاطمية على أكتافهم في بلاد المغرب ثم مصر، وكان الفاطميون يعتمدون عليهم في جيوشهم خاصة الكتاميين الذين كانوا عصب الدولة للمقاومة في مصر، فقام المغاربة بإثارة الفتن و القلاقل وأعمال العنف ضد الأهلين اعتبروا من أعدائهم لاختلافهم في المذهب ولاغتصابهم ما كان لهم من حقوق سياسية، ففي سنة 361 هـ نهب المغاربة بعض أحياء مدينة مصر فثار الأهلون ونشب قتال بين الفريقين ، فأرسل إليهم جوهر سعادة بن حيّان في الحال، فحسم النزاع، فقام جوهر بتعويض الناس ما نهب منهم⁽⁴⁾.

(1) كتامة: إحدى القبائل البربرية سكنت تونس والمغرب.

(2) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص 27.

(3) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص 625-626.

(4) المقرئ، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج 1، ص 87.

مظاهر الحياة الاجتماعية

اتخذت الحياة الاجتماعية بمصر في العصر الفاطمي مظاهر البذخ والترف التي قلما نجدها في أي عصر من عصور مصر إلا سلامية، فقد تجلى هـ ذا البذخ بما أورده المقرئزي⁽¹⁾ عن خزائن الفرش والأمتعة والخيام والشراب ، ونستدل على ترفهم من القصور التي بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأسرهم ومن أشهرها القصر الشرقي الكبير، وله عدة أبواب منها: باب الذهب وباب العيد وأمامه مساحة متسعة يقف فيها الجنود في يومي العيدين وتعرف برحبة العيد، وباب الديلم، وقد أسس العزيز في هذا القصر قاعة الذهب التي يجتمع فيها مجلس الملك⁽²⁾.

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون عيشة الترف والبذخ ، فجعل يعقوب ابن كلس روزايعزيز بالله الفاطمي في قصره مطابخ خاصة لأضيافه وأخرى لغلمانـه وحاشيته وأتباعه، واتخذ بقصره طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ويتقلدون السيوف و يتمنطقون بالمناطق⁽³⁾، وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي مولعا بالبساتين، فبنى لأحدها سوراً يشبه سور القاهرة وحفر به بركة كبيرة ، كما بنى في وسط هذا البستان منظره على أربعة أعمدة من الرخام، وزرع حوالها شجر النارج و جلب إليه كثيراً من الطيور المسموعة، وسرح فيه كثيراً من الطواويس⁽⁴⁾. واهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية وأسبغوا على ذلك كثيراً من مظاهر الأبهة والعظمة، فمنها: عيد الفطر وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية ومولد النبي عليه الصلاة والسلام ، ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد فاطمة الزهراء، ويوم عاشوراء، وليلة أول رجب ، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه⁽⁵⁾ وكان يقام في ليلة عيد الفطر بالإيوان الكبير الذي يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم ، وتنتشر عليه صنوف الفطائر والحلوى

(1) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص416-425.

(2) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص385-386.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص441، حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية ص633.

(4) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص379.

(5) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص641.

الشفيلة، انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والإوان على مصاريعها (1) أما عيد الأضحى فيحتفل في أول يوم منه بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو اتبع في عيد الفطر ، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة إلى المنحدر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى، واشترأكه في إجراءات المنحدر (2) كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بالاحتفال بليلة المولد النبوي احتفالاً باهرليق بمكانته العظيمة في نفوس المسلمين، وكان الاحتفال بالمولد النبوي بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم في تكريم النبي رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجري أن يحتفلوا بمولده (3)، ومن المظاهر الدينية المألوفة في هذا العيد قراءة السيرة النبوية في المساجد.

واحتفل الفاطميون في قصورهم بميلاد السيد المسيح وجرى الفاطميون بهذه المناسبة على توزيع حاجت من الحلاة والجلاب والزلابية وبعض السمك على أرباب الرسوم من الاستاذين المحنكين والأمراء المطوقين وسائر الموالي من الكتاب (4).

وكذلك احتفلوا بعيد النيروز، وهو أول السنة القبطية بمصر وأول يوم من شهر توت/ أيلول، ويتم في هذا العيد إشعال النيران ورش الناس الماء بعضهم على بعض ويتبادلون الهدايا وتقف الأسواق . وعندما شاهد المعز لدين الله المظاهر التي ترافق الاحتفال بالنيروز أصدر أوامره بمنع أهل مصر من إيقاد النيران ليلة النيروز في الطرقات.... ولكن سرعان ما استؤنفت الاحتفالات بالنيروز على أيام والده العزيز بالله (5).

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج4، ص97.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص501-512.

(3) متز، آدم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده، جزءان، القاهرة، 1940-1941، ص250.

(4) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج1، ص365، 494.

(5) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص18.

وكذلك احتفلوا بذكرى الغطاس، التي هي في الأصل عمادة السيد المسيح من قبل يوحنا المعمدان القديس بتغطيسه في نهر الأردن . وتعمل هذه الذكرى بمصر في اليوم الحادي عشر من شهر "طوبه/كانون الثاني"، فتضاء الشموع وتشتعل المشاعل في الأسواق، وفوق الحوانيت، وفي الدور، وتضرب الخيام عند شاطئ النيل فيجتمع في تلك الليلة الألوف من الناس مسلمين ونصارى على حد سواء . فيلعبون ويفرحون، وعند منتصف الليل يغطسون في مياه النيل كما غطس السيد المسيح في نهر الأردن⁽¹⁾.

وكان الشعب المصري تقبّل هذه المواسم بمظاهر الفرح والسرور، إلاّ يوم عاشوراء⁽²⁾ فقد كان عندهم يوم حزن عام تعطل فيه الأسواق، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد في رثاء آل حسين وفي نفس اليوم يقام سماط يسمى سماط الحزن في بهو بسيط . وكان يقدم عليه بحر الشعير والعدس والجبن ، يحضره الخليفة ملثماً ومرتدياً الثياب ال قاتمة⁽³⁾. كذلك أولى الخلفاء الفاطميون الاحتفال بوفاء النيل كثيراً من اهتمامهم فكان يخرجون إلى المقياس⁽⁴⁾ بالروضة إذا ما بلغ الفيضان ستة عشر ذراعاً وقد ذكر ناصر خسرو أنّه كان يحتفل بهذا العيد بعد ضور الخليفة وفي ركابة عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطهّمة، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب، والأحجار الكريمة المكسوة بدبياج مطرز باسم الخليفة، يلي هؤلاء صفوف من الجمال عليها هودج مزركشة تقودها طائفة من الجند⁽⁵⁾.

(1) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج1، ص365، 494.

(2) اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي أبي طالب بكر بلاء (10 محرم سنة 61هـ).

(3) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص431.

(4) المقياس: عبارة عن عمود رخام أبيض مثنى في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، وهو (العمود) مقسم إلى اثنين زعشرين ذراعاً، كل ذراع من الاثنين عشر ذراعاً الأولى مقسم إلى ثمان وعشرين قسماً متساوياً تعرف بالأصابع أيضاً؛ ابن جببر، الرحلة، ص 29-30 المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج 1، ص9 وهو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 2، ص308.

(5) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة، 1946، ص669.

وقنكثراً الاهتمام بالغناء والموسيقى في العصر الفاطمي بمصر ، فأقبل وجوه القوم في مجالسهم الخاصة ومآبهم على سماع المغنين والمغنيات ، وكان معظم المغنيات من الجوارح فيحكى أنه اشترت من بغداد جارية تجيد الغناء للأمر تميم بن المعز لدين الله بمصر . فغنت له ولجساسة ولم يزل غناؤها يزيد طرباً حتى قال لها تمنني ما شئت ، فتمنت أن تغني ما غنت ببغداد فلم يجد الأمير بداً من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد⁽¹⁾.

وكان اللعب بالخيال (خيال الظل) معروفاً بمصر في العهد الفاطمي ، فيخرج الناس في بعض الأعياد يطفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل ، كما احترف بعضهم التقليد والمحاكاة وبلغ من حد ق بعض الناس بالمحاكاة أنهم يقلدون طوائف السكان على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم وكان الأهالي يقبلون على سماع نوادرهم⁽²⁾.

وكانت المجالس الاجتماعية تـ عقد في قصور الخلفاء والوزراء والأعيان ، حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة كما كانت المجالس الخاصة تـ عقد في داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث⁽³⁾.

4.2.1 الحياة الثقافية:

اهتم الفاطميون بنشر الثقافة العلمية والأدبية والمذهبية التي تتصل بالمذهب الإسماعيلي كالفقه والتفسير ، اهتماماً يدعو إلى الإعجاب بفضل تشجيع الخلفاء والسلطين والأمراء رجال العلم والأدب، كما شجعوا الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة اليونانية والهندية والفارسية، ونضجت ملكة البحث والتأليف . وظهر كثير من الفرق التي اتخذت من العلم والثقافة وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية،

(1) متر، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص251.

(2) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج1، ص207؛ آدم متر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص221.

(3) متر، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص214-215.

وكان للجدل الديني والنفاش العلمي المحتدم بين المعتزلة ودعاة الإسماعيلية وعلماء السنة أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها العصر الفاطمي⁽¹⁾.

وكان للجامع الأزهر أثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية في مصر وفي أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي ، حيث ظهرت فكرة الدراسة به حين قام قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان المغربي بشرح كتاب "الاقتصار" وهو من تأليف والده ويشتمل على مسائل فقهية استمدتها من أئمة أهل البيت، وقام أخوه عبدالله بن محمد بن النعمان سنة 385هـ لقراءة علوم أهل البيت في قصر الخليفة الفاطمي⁽²⁾.

وعند تسلم الوزير يعقوب بن كلس الوزارة في خلافة العزيز بالله سار على ما كان عليه من الوزراء من قبله، من حيث تشجيع العلوم والآداب، وكان يعقد الحلقات العلمية الكبيرة في بيته في كل يوم خميس لقراءة مؤلفاته، وكان يحضر هذه المجالس والحلقات القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة أصحاب المواهب الممتازة، إضافة إلى الشعراء، وحين ينتهي الاجتماع ينشدونه مدائحهم⁽³⁾. وقد عين يعقوب بن كلس للتدريس في الأزهر خمسة وثلاثين أستاذا للشريعة⁽⁴⁾، وقد فاقت شهرة الجامع الأزهر جميع المساجد الجامعة عندما أشار الوزير ابن كلس على الخليفة العزيز بتحويله إلى معهد للدراسة ، بعد أن كان مقصورا على إقامة الدعوة الفاطمية ، واستأذنه بتعيين بعض الفقهاء للقراءة والدرس على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، فرحب العزيز بذلك، وتب لهم رواتب شهرية ثابتة وأنشأ لهم دوراً للسكن بجوار الأزهر⁽⁵⁾.

(1) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص421.

(2) مسرور، محمد جمال الدين : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، القاهرة، 1965، ص154.

(3) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص426.

(4) فنت غاستون، القاهرة، مدينة الفن والتجارة، ترجمة : مصطفى العبادي نشر بالاتفاق معه المؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، مكتبة لبنان، بيروت، نيويورك، 1968، ص56.

(5) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص426.

واقتمدى الفاطميون بالأمويين في الأندلس ،والعباسيين في بغداد باقتناء الكتب النفيسة النادرة في مختلف العلوم استوطاع ابن كلس أن يحبب للخليفة العزيز بالله ، اقتناء الكتب حتى جمع منها الكثير ،وخصص لها قاعات في قصره سماها "خزانة الكتب"لمحتلت عدة قاعات في القصر الكبير الشرقي، وقام الجليس بن عبد القوي بالمحافظة عليها وتنظيم عملية الإعارة فيها، وقد ذكر بعض المؤرخين أن هذه الخزانة تحتوى أكثر من مليون وستمئة ألف كتاب في الفقه ،واللغة والنحو والحد يث والتاريخ وعلم التنجيم (الفلك) والروحانيات، والكيمياء التي زادت كتبها الخاصة على ثمانية عشر ألف كتاب، غير أدوات الهندسة والفلك (1). وينقل المقرئزي عن ابن أبي واصل "أن خزانة الكتب" كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد (2)، ويذكر أبو المحاسن في النجوم الزاهرة "أنها بلغت مائة ألف مجلد" (3).

نإخزانة الكتب حوت من "كتاب العين" للخليل نيفاً وثلاثين نسخة منها واحدة بخط الخليل نفسه، ومائة نسخة من "كتاب الجمهرة" لابن دريد ويتزايد فيها على التوالي عدد النسخ بمرور السنين من كتاب الطبري حتى يصل الرقم إلى ألف مائتي نسخة عند استيلاء صلاح الدين على الحكم ، وإن الأمر بأحكام الله عند وفاة وزيره الأفضل ابن بدر الجمالي صادر ممتلكاته ، وكان من جملتها خمسمائة ألف كتاب نقلت كلها إلى مكتبة القصر (4).

وكثيراً ما كان الخليفة الفاطمي العزيز بالله يزور خزانة الكتب في القصر الشرقي، فيأتي راكباً ثم يترجل ويأخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويمثل بين يديه أمين الخزانة يأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين ،ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص.

(1) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص408-409.

(2) المصدر السابق، ص409.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج4، ص101.

(4) (هن ميسر، تاريخ مصر، ج 1، ص57، المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص409، ج2، ص366-367.

وقد حمل القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني منها مائة ألف مجلد وقفها على مدرسته الشافعية من أصل مجموع الكتب البالغ مائة ألف كتاب أو مائة وعشرين ألف كتاب أو مائتي ألف كتاب حسب ماذكر المؤرخون⁽¹⁾.

وقد روى المقرئزي عن مؤلف كتاب "الذخائر" أنه كان في القصر أربعون خزانة من جملتها 18000 مجلد في العلوم القديمة⁽²⁾ وذكر أبو شامة نقلاً عما أورده ابن أبي طي عن القصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية، أن مكتبة الخلفاء كانت من بين محتويات القصر التي باعها الأيوبيون في عهد صلاح الدين.

وقد وصف المؤرخ أبو شامة مكتبة القصر بـ أنها كانت من عجائب الدنيا فقلقال "أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت في القاهرة في القصر ويقال أنها كانت تشتمل على 600000 كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة"⁽³⁾.

وفي سنة 395هـ/1005م أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله دار الحكمة ، وأطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية ، لأن هذه المجالس كانت تسمى مجالس الحكمة، وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم حوت الكثير من الكتب في سائر العلوم والآداب، من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب ، وسمح لسائر الناس على مختلف طبقاتهم بالتردد عليها ، وقد فرشت بمختلف أنواع الفرش وزودت بكل ما يحتاج إليه المعلمون والمتعلمون ، وخصص لها قيم لخدمتها، وجماعة من الفراشين يعتنون بفرشها، أجريت الأرزاق على جميع من كان فيها من قراء وفقهاء وخدم⁽⁴⁾. وفي ذلك يقول المقرئزي "وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب فلم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، بلوح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم ،

(1) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص409.

(2) المرجع السابق، ج1، ص409.

(3) أبو شامة، عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة (ت665هـ/1266م)، الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، ج1، ص200.

(4) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص458، ج2، ص342.

فمنهم من يحضر قراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر⁽¹⁾ وكان من بليغنا تذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب والنجامة⁽²⁾ من أمثال ابن يونس المنجم، وأبي علي الحسن بن الهيثم، وعلي بن رضوان⁽³⁾. وتعرضت المكتبات الفاطمية إلى محن كثيرة، جراء الفتن التي أصابت البلاد ولا سيما في خلافة المنتصر بالله ، فأصبحت الكتب تؤخذ من القصور الفاطمية سداداً للديوقلم الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي والخطير بن الموفق في الدينييع ما حمولته خمسة وعشرين جملاً من الكتب ، وهي سداد لخمسائة ألف دينار عن جاري مماليكهما وغلما نيهمقي حين أنها تساوي قيمتها مائة ألف دينار ، عدا الكتب التي أخرجت من دار العلم وصارت إلى عماد الدولة ابن أبي الفضل بن المحترق والتي حملها معه إلى الإسكندرية ، ومن ثم نقلت إلى بلاد المغرب بعد وفاته⁽⁴⁾.

وما بين سنتي 461هـ/1069م - 465هـ/1073م، تعرضت هذه المكتبات إلى السرقة من ضمن محتويات القصر الفاطمي ، إذ ألقى ببعض الكتب في النار وبعضها الآخر في نهر النيل، وترك ما بقي في الصحراء تسف عليها الرياح الرمال حتى صارت تلالاً عرفت فيما بعد بتلال الكتب، وكانت جلود هذه الكتب مجلدة تجليداً فنياً بجلود الحيوانات، لذا اتخذ البعد من جلدها نعالاً للأحذية⁽⁵⁾، وأعيدت المكتبات الفاطمية بعضاً من النشاط، وأعيدت بعض الكتب المسروقة، إضافة للكتب

(1) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص158.

(2) النجامة: علم التنجيم.

(3) ابن القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب (ت646هـ/1348م)،

إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، 1326م، ص443-444؛ ابن أبي أصيبعة، أبو

العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين (ت667هـ/1270م)، كتاب عيون الأنباء في

أخبار الأطباء، جزءان، القاهرة، 1299-1300، ج2، ص105.

(4) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص409.

(5) المصدر السابق، ج1، ص409.

الجديدة، لأن ما أعطاه السلطان صلاح الدين إلى القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني، قدر بمائة ألف كتاب وطرح الباقي للبيع⁽¹⁾.

وهدم صلاح الدين الأيوبي دار الحكمة وبنى مكانها مدرسة للشافعية. وذكر ابن ميسر أنه لما مات الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي سنة 515هـ-1121م، صدر الخليفة الأمر كافة ممتلكاته، فكأن من بينها خمسمائة ألف مجلد⁽²⁾، ونقلت كلها إلى مكتبة القصر.

ومنذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لخلافتهم تجلى فيها نشاط الحركة العقلية، فنجد الخليفة المعز لدين الله يفتح أبواب قصره للعلماء والطلاب، وسمح لهم بالإطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر، وسار الخلفاء من بعده على نهجه، فصاروا يعقدون المجالس الأدبية والعلمية في قصورهم، ويدعون إليها الفقهاء والعلماء والأدباء، فيتناظرون بحضرتهم، ولم تقل هذه المجالس في قيمتها التعليمية عن الدروس التي تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

وقد أدى مجيء الفاطميين إلى مصر إلى تأسيس مذهب شيعي له أسس ودعائم قخالما كان عليه أهل السنة في مصر، فنتج عن ذلك ظهور فريقين من العلماء، الفريق الأول مؤيد ومناصر لهم والفريق الثاني: يفند آراءهم⁽³⁾؛ وتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية في تأليف الكتب، وكان لأبي حنيفة النعمان المغربي وأبنائه، وهم جميعاً كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر في نشر الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية.

ولقد علصأبو حنيفة الفاطميين في المغرب، وكان مالكي المذهب كسائر أفراد عللمتقحول إلى المذهب الإسماعيلي، وقدم إلى مصر هو وأبناؤه في ركب المعز، ويعلمأبو حنيفة النعمان من أهم دعاة الدعوة الإسماعيلية، وله عدة كتب في الفقه الإسماعيلي منها "دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا

(1) خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 4، ص81؛ المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص409، ج2، ص366.

(2) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص160.

(3) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1945م، ج1، ص188.

والأحكام" مضيفاً في هذا الكتاب إلى قواعد الإسلام الخمس الولاية، وهي حب أهل البيت⁽¹⁾ وكان دعاة المذهب للإسماعيلي يرجعون في أحكامهم إلى كتاب "دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام" في أحكامهم.

وسار الوزير يعقوب بن كلس في كتابه "مصنف الوزير" على نهج كتاب الدعائم وأطنب القادة المتأخرون في مدح هذا الكتاب ، فذكره الحاكم بأمر الله في كتابه "راحة العقل" حتى صنفه في مرتبة تلي القرآن والحديث⁽²⁾.

ورغم تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلي فقد ظهر في عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية فكانت حلقة أبي بكر محمد النعالي المالكي المتوفى سنة 380هـ في جامع عمرو بن العاص⁽³⁾ خير دليل على ذلك.

وكان لتشجيع الخلفاء و الأراء الفاطميين للكتاب و العلماء أكبر الأثر في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر ، فاشتهر من المؤرخين في مصر في العصر الفاطمي أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي اتصل بخدمة الخليفة العزيز فولاه خزانة كتبه، واتخذة جليساً له وندياً ومن أشهر كتبه كتاب (الديارات) حيث أورد فيه أخباراً عن الأديرة في العراق والموصل وسوريا والجزيرة ومصر وما قيل عن كل منها من الأَشعار⁽⁴⁾. كما نبغ من المؤرخين في هذا العصر الأمير المختار عز الملك الموفق بالمسبحي الذي ولد في مصر سنة 366هـ وتوفي سنة 420هـ — وكان قد اتصل بخدمة الخليفة الفاطمي الحاكم 386هـ — 411هـ (996-1021) ونقل (ديوان الترتيب) وهو صاحب كتاب (تاريخ مصر).

ومن أعلام المؤرخين: أبو عبدالله القضاعي الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري وتوفي بها سنة 454هـ ويعد من أقطاب الحديث والفقهاء الشافعية، وقد ولي القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي و أرسله

(1) انظر كتاب حسن إبراهيم حسن وطه شرف، المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة، 1948م، ص 258-259.

(2) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص 476.

(3) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج1، ص 197.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص 426.

ال خليفة المستنصر بالله الى تيودورا إمبراطورة الدولة البيزنطية سنة 447هـ —
ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر له عدة مؤلفات في الفقه والتاريخ منها
"مناقب الإمام الشافعي وأخباره" ولمختار في ذكر الخطط والآثار " ويعد هذا الكتاب
مصدراً للمقريزي على كتابه " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"⁽¹⁾، ومن
مؤرخي النظم الإدارية الماوردي المتوفى سنة 450هـ — 1058م صاحب كتاب
"الأحكام السلطانية"⁽²⁾ من الكتاب والمؤرخين الذين ظهوروا في أواخر العصر
الفاطمي أبو القاسم علي بن منجب الصيرفي الذي تدرج في الوظائف حتى ولي
ديوان الإنشاء للخليفة الأمر بأحكام الله، ومن تصانيفه كتاب "قانون ديوان الرسائل"
و"الإشارة إلى من نال الوزارة الذي ألفه للمأمون البطاحي وزير الأمر ، حيث تتبع
فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه ، وتوفي ابن الصيرفي في
عهد الخليفة الحافظ سنة 542هـ.

و خلاصة القول: الحركة الثقافية في العصر الفاطمي سارت بخطى واسعة
نحو التقدم والارتقاء ورتبها على مثلتها في العهد الطولوني والإخشيدي ، كما
تميزت بنشاطها الواسع وفي مصر طائفة من علماء الدولة الفاطمية و غيرهم من
المؤرخين منهم عريب بن سعد والمسبحي، وابن زولاق، والفلاسفة ومنهم إخوان
الصفاء وأبو حاتم الرازي وأبو عبدالله بن أحمد النسفي وأبو يعقوب إسحق بن أحمد
السجستاني، ودعاة ومن أشهر الذين تقلدوا وظيفة داعي الدعاة أسرة أبي حنيفة
النعمان المغربي، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، والأدباء الذين أسهموا في
 النهضة الثقافية لذلك العصر.

(1) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج1، ص202.

(2) حسن إبراهيم الدولة الفاطمية، ص519.

(3) ابن ميسر، تاريخ مصر، ص80.

3.1 فضل الكتابة:

تبوأَت الكتابة قدراً وثلاً عظيماً عندما نسب الله تعليمها لنفسه، فقال -جل جلاله-: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽¹⁾ ثم بين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال -عز وجل-: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ، كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾⁽²⁾ ثم زاد ذلك تأكيداً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة وما يسيطر به.

فقال -عز من قائل-: ﴿ن، وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾⁽³⁾ ورحم الله

القائل:

إن افتخر الأبطال يوماً بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعاً مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم⁽⁴⁾
وقال سعيد بن العاص⁽⁵⁾: "من لم يكتب فيمينه يسرى" وقال معن بن زائدة⁽⁶⁾:
"إذا لم تكتب اليد فهي رجل" وقال الزبير بن بكار⁽⁷⁾: "الكتاب ملوك وسائر الناس
سوقة" وقال ابن المقفع: "الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك" ومن كلام
المؤيد⁽⁸⁾: "كُتِبَ الملوك عيونهم المبصرة، وأذانهم الواعية، وألسنتهم الناطقة" وكانت
ملوك الفرس تقول: "الكتاب نُظَّامُ الأمور وَلِجَّةُ الملك وبهاء السلطان وخُ زَّانُ

(1) سورة العلق، آية 4.

(2) سورة الانفطار، آية 11.

(3) سورة القلم، آية 1.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص 75، والقائل أبو الفتح البستي.

(5) من الصحابة، هو أبو عثمان وقيل أبو عبدالرحمن سعيد بن العاص بن أمية وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان في الكوفة (تهذيب الأسماء واللغات للنووي)، 218/1.

(6) معن بن زائدة الشيباني ولاء المنصور على بلاد سجستان (فتوح البلدان، 564).

(7) هو أبو عبدالله، الزبير بن بكار (المتوفى سنة 256هـ/869م)، مؤرخ راوية صاحب كتاب (جمهرة نسب قریش وأخبارها) الحلة السيرة، 25/1.

(8) إسماعيل بن علي بن محمود، الملك المؤيد، صاحب حماء ويعرف بأبي الفداء مؤرخ، وجغرافي قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين والفلسفة والطب، توفي سنة 732هـ/1331م، الأعلام 319/1، وفوات الوفيات، 183/1.

أمواله، وللأداء على رعيته و بلاده وهم وألى الناس بالحباء ⁽¹⁾ والكرامة، وأحقهم بمحبة السلام ⁽²⁾.

وفي عهد سابور ⁽³⁾ وليكن كاتبك مقبول القول عندك ورفيع المنزلة لديك ، يمنعه مكانه منك وما يظن به من لطافة موضوعه عندك من الضراعة لأحد والمداهنة له ليحمله من الإحسان إلى محض النصيحة لك ، ومناذة من أراد عيبك وانتقاص حقك ⁽⁴⁾ ولم يكن يركب الهماليج ⁽⁵⁾ في أيامهم إلا الملك والكاتب والقاضي.

ومن كلام أبي جعفر ⁽⁶⁾ الفضل بن أحمد " في جملة رسالة الكتابة أس الملك ، وعماد المملكة وأغصان متفرقة من شجرة واحدة ، والكتابة قطب الأدب ، وملاك الحكمة ولسان ناطق بالفصل وميزان يدل على راحة العقل. والكتابة نور العلم وفدامة ⁽⁷⁾ العقول وميدان الفضل والعدل . والكتابة حلقة ولبوس وجمال وهيبة وروح جارية في أجسام متفرقة ، والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة ، ومن جهل حق الكتابة فقد وسم بوسم الغواة الجهلة وبالكتابة والكتاب قامت السياسة والرياسة ، ولو أن فضلاً ونبلاً تصوّراً جميعاً تصورت الكتابة ولو أن في الصناعات صناعةً مربوبةً لكانت الكتابة رباً لكل صنعة ⁽⁸⁾.

ومن كلامه أيضاً : "للكتاب أقرت الملوك بالفاقة والحاجة، وإليهم أقيت الأعنة والأزمّة، بهم اعتصموا في النازلة والنكبة ، وعليهم اتكّلوا في الأهل والولد

(1) الحباء: العطاء.

(2) صبح الأعشى، ج1، ص73.

(3) ملوك الفرس وهو سابور الأول ابن أردشير حكم من 241-272م (الموسوعة العربية الميسرة: 1061).

(4) الهماليج: الدواب السهلة الإنقياد والحسنة السير.

(5) صبح الأعشى، ج1، ص74.

(6) أبو جعفر، الفضل بن أحمد بن عبدالله، أمير المؤمنين المسترشد بالله بن المستظهر بن المعتدي؛ بويغ بالخلافة سنة 512هـ/1118م (فوات الوفيات) ج3، ص179.

(7) الفدامة: المصفاة، (البستان)، ج2، 1787.

(8) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص66.

والذخائر والعقد وولاية العهد وتدبير الملك وقراع الأعداء ، وتوفير الفيء ، وحياطة الحريم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب ونظم الحروب⁽¹⁾.

وقد أورد الحريري في مقامته المعروفة بالفراتية مفاخرة بين كتابتي الإنشاء والأموال فقال على لسان أبي زيد السروجي⁽²⁾:

اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع وصناعة الحساب أنفع ، وقلم المكاتبة خاطب وقلم المحاسبة حاطب ، وأساطير البلاغة تنسخ لتدرس، ودساتير الحسابات تنسخ وتدرس والمنشئ جهينه⁽³⁾ الأخبار، وحقيية الأسرار ، ونجّي العظماء ، وكبير الندماء، وقلمه لسان الدولة ، وفارس الجولة: ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمة ، وهو البشير والنذير، والشفيع السفير، به تستخلص الصياصي⁽⁴⁾ وتملك النواصي ، ويقتاد العاصي ويستدني القاصي؛ وصاحبه بريء من التبعات، آمن كيد السُّعَات، مقررّ بين الجماعات، غير معرض لنظم الجماعات⁽⁵⁾.

ولما فتحت الصحابة -رضوان الله عليهم - مصر بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إلى عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل في عمل من أعمال المسلمين كافراً فأجابه عمرو بأن المسلمين إلى الآن لم يعرفوا حقيقة البلاد ، ولم يطلعوا على مقادير خراجها ، وقد اجتهدت في نصراني عارف منسوب إلى أمانة إلى حين معرفتنا بها فنعزله فغضب عمر بن الخطاب وقال : كيف تؤمنهم وقد خونهم الله؟ وكيف تعزهم وقد أذلهم الله؟ وكيف تقربهم وقد أبعدهم الله؟ ثم تلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾⁽⁶⁾. وقال في آخر كتابه "مات النصراني والسلام"⁽⁷⁾.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ص73.

(2) المظهر بن سلال السروجي، وهو الذي أنشأ الحريري مقاماته على لسانه كان تلميذاً للحريري في البصرة توفي سنة 540هـ/1145م، الأعلام، 7/253.

(3) أي موثق الأخبار تقول العرب: "عند جهينه الخبر اليقين النويري"، نهاية الأرب، القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص294.

(4) هي الحصون، البستان، 1/1380.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص87.

(6) سورة المائدة، آية51.

(7) القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص94.

وقد روى أن أبا موسى الأشعري -رضي الله عنه- قدم على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ومعه كاتب نصراني فأعجب عمر بخطه وحسابه، فقال عمر: "حضر كاتبك ليقرأ" فقال أبو موسى: "إن نصراني لا يدخل المسجد" فزيره⁽¹⁾ عمر رضي الله عنه - وقال: "لا تؤمنوهم، قد خونهم الله ولا تدنوهم وقد أبعدهم الله ولا تعزوهم وقد أذلهم الله"⁽²⁾.

وقد قال الشافعي رضي الله عنه -في كتابه الأم: "ما ينبغي لقاضٍ ولا والٍ من ولاية المسلمين أن يتخذ كاتباً ذمياً ويضع الذمي موضعاً يتفضل به مسلماً" وينبغي أن يعرف المسلمون بأن يكون لهم حاجة إلى غير دينهم⁽³⁾. وجزم الماوردي والقاضي أبو الطيب وابن الصباغ وهم من أعلام الشافعية أنه يشترط في كاتب القاضي أن يكون مسلماً وهو الأصح الذي عليه الفتيا في المذهب⁽⁴⁾ وإذا اشترط الإسلام في كاتب القاضي والوالي ففي كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضرر به. ويقول أبو الفضل الصدوري: "ولا يحتج بالصابيء وأنه كتب للمطيع والطائع من خلفاء بني العباس ومعز الدولة من ملوك الديلم، وهما يومئذ عمدة الإسلام وعضد الخلافة هو على دين الصائبة فإن الصائبة كان من أهل ملة قليل أهلها ليس لهم ذكر ولا مملكة، وليس منهم محارب لأهل الإسلام ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته"⁽⁵⁾. ومع ذلك فيجب أن يكون متمذهباً بالمذهب الذي عليه الملك ليكون أنقى جيباً وأنصح غيباً، فإن المسلمين -وإن جمعتهم كلمة الإسلام- فقد اختص كل واحد منهم بمذهب يباين به بعضهم بعضاً، حتى حدث بذلك بينهم من التباعد والتنافر قريب مما بين المسلمين والمشركون، فكما وجب أن يكون المؤهل لهذه المرتبة مسلماً، كذلك يجب أن يكون على مذهب الملك الذي اختص به من بين مذاهب

(1) زيره: أي انتهره، البستان، 977/1.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص94.

(3) الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، (ت150هـ/767م - 204هـ/819م)، الأم. دار المعرفة، بيروت، ج6، ص210.

(4) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص254.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص95.

المسلمين ليكون مجتهداً في خدمته مبالغاً في نصيحته ، يحضه الرأي عن صفو نية لا يخالطه كدر و خلوص محبة لا يشوبه مذق ، ويكون للملك قد أحسن لنفسه الاختيار، وأجاد لدولته النظر، وأراح نفسه من كلفة التحفظ منه والحذر له⁽¹⁾.

4.1 تعريف ديوان الإنشاء:

مركب من مضاف وهو ديوان ، ومضاف إليه وهو الإنشاء، أما الديوان بكسر الدالسم للموضع الذي يجلس فيه الكتاب، وأصل كلمة ديوان ، دوان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان وتجمع على دواوين⁽²⁾.

وفي لسان العرب الديوان مجتمع الصحف، وقال ابن الأثير : الديوان: هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء، وذكر أبو عبيدة وابن الأثير أن ديوان فارسي معرب⁽³⁾.

ويقال دونتلي أثبته وإليه يميل كلام سيبو به، ويقول الأصمعي إن ديوان عجمي وعليه اقتصر الجوهر في صحاحه⁽⁴⁾.

وذهب قومٌ إلى أن أصله عربي، قال النحاس : "والمعروف في لغة العرب أن الديوان طلال الذي يرجع إليه ويعمل بما فيه "ومنه قول ابن عباس : "إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب"⁽⁵⁾.

وأما الإنشاء: فنقول أنشأ الكاتب الكتابليبدأ عمله على غير مثال يحتذيه ، قال الله تعالى: "قل يحيها الذي أنشأها أول مرة"⁽⁶⁾ وتقول العرب: أنشأ يفعل كذا، وأنشأ يقول كذا، إذا ابتداءً، وأنشأ الله الخلق ينشئهم إنشاءً إذا ابتداءً خلقهم⁽⁷⁾.

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص9.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، ص123.

(3) ابن منظور، ألفبضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1994، ج13، ص166.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص123، 124.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص123.

(6) سورة يس، آية رقم79.

(7) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله (ت335هـ/946م)، أدب الكتاب. شرح وتعليق: أحمد حسن ليج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1994م، ج2، ص119.

والإنشاء مصدر أنشأ، وإضافة الديوان للإنشاء تحتل أمرين:
الأمر الأول: لأنه تنشأ منه وتبدأ الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات.
الأمر الثاني أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالاً، وكان هذا الديوان يسمى
قديمًا ديوان الرسائل، تسمية بأشهر الأنواع التي تصدر عنه، ولأن الرسائل أكثر
أنواع كتابة الإيلاء وأعمها، وربما قيل ديوان المكاتبات، ثم غلب عليه هذا الاسم
واشتهر به⁽¹⁾.

هناك عدة أنواع للدواوين منها ديوان المجلس، وديوان الجند، وديوان
النظر، وديوان التحقق، وديوان الأحباس،... الخ.
ديوان المجلس: ويسمى "استيماره" دفتر المجلس ويثبت به جميع مصروفات
الدولة من رواتب وعطاء ومصروفات الاحتفالات، كما كان من عمله المقارنة بين
مصروفات السنين المختلفة.

ديوان التحقيق: مراقبة الدواوين الأخرى.
ديوان النظر: وصاحب هذا الديوان له الولاية والعزل وإليه عرض الأرزاق
في أوقات معروفة على الخليفة والوزير، وإليه طلب الأموال واستخراجها
والمحاسبة عليها.

ديوان الرواتب: وتحفظ به سجلات برواتب الموظفين سواء كانت أموالاً أو
رواتب عينية ابتداء من الوزير حتى أصغر موظف، ويقوم الديوان في مستهل كل
عام بعمل ميزانية رواتب الموظفين يرفعها إلى ديوان المجلس.
ديوان الأحباس: لا يخدم فيه إلا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدّين،
وفيه عدة مدراء بسبب أرباب الرواتب، وكان فيه كاتبان معينان لنظم الاستيمارات،
ويورد في استمارة عمل ما في الرقاع والرواتب، وما يجبي له من جهات كل من
الوجهين القبلي والبحري.

ديوان الجيش: وكانت تعرض على صاحبه شؤون الأجناد وخیولهم⁽²⁾.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص124.

(2) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص566-569.

ب. ويقال أن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون ، فقال ديوانه أي مجانين بلغة الفرس ، فسمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقل ديوان ، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات.

وقيل إنه اسم للشياطين بالفارسية ، وسمي بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال⁽¹⁾.

أول من وضع الديوان في الإسلام ع مر بن الخطاب -رضي الله عنه - واختلف الناس في سبب وضعه له ، فقال قوم سببه أن أبا هريرة قدم عليه بمال من البحرين فقال له عمر : ما الذي جئت به ؟ فقال : خمسمائة ألف درهم فاستكثره عمر ، فقال له : أتدري ما تقول ؟ قال : نعم مائة ألف خمس مرات فقال عمر : أطيب هو ؟ فقال : لا أدري ، فصعد عمر الفبر فحمد الله تعالى و أثنى عليه، ثم قال : أيها الناس قد جاءنا مالٌ كثير فإن شئتم كلنا لكم كيلاً ، وإن شئتم عددنا لكم عداً ، فقام إليه رجل وقال يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدنون ديواناً لهم فدون أنت لنا ديواناً.

وقال آخرون بل سببه أن عمر بن الخطاب بعث بعثاً، وكان عنده الهرمزان فقال لعمر هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال ، فإن تخلف منهم رجل وآجل بمكانه فمن أين يعلم صاحبك به؟ فأثبت لهم ديواناً، فسأله عن الديوان حتى فسر له.

وروى عابد بن يحيى عن الحارث بن نفيل أن عمر رضي الله عنه - استشار المسلمين في ت دوين الديوان، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه :- نقسم كل سنة ما اجتمع لك من المال ولا تمسك منه شيئاً . قال عثمان بن عفان رضي الله عنه -أرى مالا كثيراً يتبع الناس ، فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر فقال خالد بن الوليد قد كنت بالشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنوداً فدون ديواناً وجند جنوداً ، فأخذ بقوله . ودعا عقيل بن أبي طالب ومخرمه بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من شبان قریش وقال اكتبوا الناس على منازلهم ، فبدؤوا ببني هاشم فكتبوهم ، ثم أتبعوهم أبا بكر

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص243.

وقومه ثم عمر وقومه ، وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ثم رفعوه إلى عمر ، فلما نظر فيه قال : لا ، ما وددت أنه كان هكذا ، ولكن ابدؤوا بقراءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأقرب فأقرب حتى تضعوا ع مر حيث وضعه الله فشكره العباس -رضوان الله عليه - على ذلك وقال وصلت رحمك⁽¹⁾.

وأما ديول الخراج والجبايات فبقي بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل . ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الإ نشاء بالرومية ، كتاب الدواوين من أهل العهد ، ولما جاء عبلملك بن مروان واستحال الأمر ملكاً ، وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سداجة الأمية إلى حذق الكتابة ، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب ، أمر عبدالملك بن مروان سليمان بن سعد والي الأردن لعهدده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية ، أكمله لسنة من يوم ابتدائه⁽²⁾ . وكان ذلك سنة 81هـ ، وذكر الماوردي في الأحكام السلطانية سبب نقله أن أحد كتاب الروم في ديوانه دأماً لدواته فبال فيها بدلاً من الماء ، فأدبه وأمر سليمان بن سعد أن ينقل الديوان إلى العربية ، فسأل أعينه بخراج الأردن سنة ففعل ، وولاه الأردن ، وكان خراجه مائة وثمانين ألف دينار فلم تنقضي السنة حتى فرغ من الديوان فنقله ، وأتى به إلى عبدالملك بن مروان فدعا سرجون كاتبه فعرضه عليه فضمه وخرج كنيبة فلقية قوم من كتاب الروم ، فقال لهم اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة وقد قطعها الله عنكم⁽³⁾.

ولما ديوان العراق فأمّر الحجاج كاتبه صالح بن عبدالرحمن ، وكان يكتب بالعربية والفارسية ، ولقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله ، ولما قتل زادان في حرب عبدالرحمن بن الأشعث استخلف الحجاج صالحاً هذا مكانه ، وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل ، وكان عبدالحميد بن يحيى يقول : "لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ، ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس

(1) الماوردي للأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ص 249 ، 25 ، مقدمة ابن خلدون ، ص 243-244.

(2) مقدمة ابن خلدون ، ص 244.

(3) الماوردي ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ص 253.

مطلقاً إلى من كان له النظر فيه ، كما كان شان بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة (1). وكان سبب نقل ديوان الفارسية بالعراق إلى العربية، أن كاتب الحجاج اذان فروخ كان معه صالح بن عبد الرحمن يكتب بين يديه ، فوصله زاذان بالحجاج فخفف على قلبه فقال صالح لز اذان: إن الحجاج قربني ولا آمن عليك أن يقدمني عليك ، فقال: لا تظن ذلك فهو لي أحوج مني إليه ، لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لفعلت ، قال فحول منه ورقة أو سطراً حتى أرى فعل، وبعد مقتل زاذان واستخلاف الحجاج لصالح مكانه فكر له ما جرى بينه وبين زاذان ، فأمره أن ينقله، فأجابه إلى ذلك وأجله فيعجلأ حتى نقله إلى العربية ، فلما عرف مروان شاه بن زاذان فروخ ذلك بذل له مائة ألف درهم ليظهر للحجاج العجز عنه فلم يفعل فقال له : قطع الله وطالك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ، مما دفع بكاتب مروان عبد الحميد بن يحيى أن يقول عبارته المشهورة في صالح "لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب" (2).

5.1 مراحل تطور ديوان الإنشاء:

اهتم المسلمون منذ ظهور الإسلام بالمراسلات التي عرفت فيما بعد بالمراسلات الديوانية، ثم اتخذت كلمة "الإنشاء" مدلولاً وظنفاً خاصاً ، أي أنها أصبحت وظيفة لها شروطها ، بل إن الشروط التي تطلب توافرها فيمن يشغلها بلغت حداً لم تبلغه أي وظيفة أخرى اللهم إلا "الخلافة" حين وضع الفقهاء لها شروطاً لا تتعد إلا بها (3)، وذكر القلقشندي في صبح الأعشى أنه كان لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - ما يزيد على ثلاثين كاتباً ، ومن أشهرهم بؤ بكر الصديق ، وعمر

(1) مقدمة ابن خلدون، ص 244.

(2) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص 253.

(3) شيث، عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي (ت 625هـ/1227م)، كتاب معالم الكتابة

ومغانم الإصابة. تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط 1 دار الكتب العلمية، بيروت،

1988م، ص 5.

بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد، ومعاوية بن أبي سفيان... الخ⁽¹⁾، وذكر القضاعي في تاريخه "عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف" أن زيد بن ثابت كان ترجمان النبي -عليه الصلاة والسلام-، وكان كاتبه إلى الملوك لأنه كان يعرف الفارسية واليونانية وأن الزبير بن العوام ، وجهم بن الصلت كانا يكتبان للنبي أموال الصدقات، وأن المغيرة بن شعبه والحسين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات ، فإن صح ذلك فتكون هذه الدواوين قد وضعت في زمنه صلى الله عليه وسلم -⁽²⁾. كما أن الخلفاء الراشدين قد ساروا على نهجه في ذلك ، ويمكننا القول إن: هؤلاء الكتاب في ديوان النبي عليه السلام قد شكلوا بذرة أول ديوان للإشياء في الإسلام، وإن لم يكن يتخذ هذا الاسم للدلالة عليه⁽³⁾ وقد كتب لأبي بكر الصديق عثمان بن عفان وزيد بن ثابت ، وكتب لعمر بن الخطاب زيد بن ثابت وعبدالله بن خلف وكتب لعثمان بن عفان مروان بن الحكم ، وكتب لعلي بن أبي طالب عبد الله بن أبي رافع وسعيد بن نجران الهمداني ، وكتب للحسن بن علي، عبدالله بن أبي رافع، وسعيد بن نجران الهمداني⁽⁴⁾.

قد ظل الكاتب من أهم الموظفين المدنيين في العصر الأموي ، إذ كان بمثابة الوزير في معاونة الخليفة أو الوالي ، غير أنه كان بمنأى عن الأخطار التي تهددت الوزير العباسي فيما بعد . وكأني إجاب ذلك يقوم بأنواع الكتابة الإدارية المختلفة، ومن الثابت أن غير المسلمين كان يشارك المسلمين في القيام بهذه المهمة ، لا سيما قبل نقل الدواوين إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان. وظل لفظ "الكاتب" يطلق طوال عصر بني أمية على متولي أمر المكاتبات حتى ولي الخلافة أبو العباس ، السفاح فاستوزر أبا سلمة الخلال ، وتوالت الوزر من بعده لخلفاء بني العباس⁽⁵⁾.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص126.

(2) القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي (ت454هـ/1062م)، عيون المعارف وفنون

أخبار الخلائف. تحقيق: جميل عبدالله محمد المصري، 1995، ص238.

(3) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص5-6.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص126.

(5) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص6.

ومنذ تولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة ومن بعده من الخلفاء وأمر ديوان الإنشاء في زمن كل واحد منهم مفوض إلى كاتب يقيمه إلى حين انقراض دولتهم ، وكان الخليفة هو الذي يوقع على القصص بنفسه ، والكاتب يكتب ما يبرز إليه من توقيعه ويصرفه بقلمه على حكموهن أشهر كتابهم عبد الحميد بن يحيى كاتب مـ روان بن محمد آخر خلفائهم⁽¹⁾.

وفي العصر العباسي زادت المكاتب الإدارية زيادة دعت إلى تنظيمها وإسناد مهمتها لديوان خاص أخذت اختصاصاته تتحدد على مر الزمن ، وفي بداية الأمر كان الإشراف عليه للوزير مباشرة ، إلا أنه نظراً إلى تضخم أعمال الديوان من جهة وزيادة أعباء الوزير من جهة ثانية ، كان الديوان ينفصل عن إشراف الوزير المباشر أحياناً لينفرد به رئيس خاص.

ثم انتهى الأمر بأن أصبح من القواعد المقررة أن يستقل بالإشراف على هذا الديوان رئيس خاص، كان أقل من الوزير في المرتبة، ويرجع إليه في أموره⁽²⁾.

وبفضل الكتابة في ديوان العصر العباسي وجد جماعة من البلغاء صاروا مضرب المثل في الكتابة والبلاغة أمثال يحيى بن خالد وزير الرشيد ، والحسن بن سهل وزير المأمون، وعمرو بن مسعدة كاتب المأمون ، وابن المقفع ، وسهل بن هارون، وابن العميد وزير ركن الدولة البويهية ، والصاحب بن عباد ، وأبي إسحاق الصائبي وغيرهم⁽³⁾.

وكان رئيس الديوان يسمى تبعاً لتسمية الديوان في العصور المختلفة⁽⁴⁾ ففي أوائل العصر العباسي كان يسمى "صاحب ديوان الرسائل" أو المكاتبات⁽⁵⁾ ثم سمي

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص127.

(2) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص6-7؛ حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ط1، دار النهضة العربية، مصر، 1978م، ص11.

(3) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص7.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص137.

(5) المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج2، ص225.

رئيس أو صاحب ديوان الإنشاء "وقد كان يجمع أحياناً لفظ الديوان فيقال "صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية" كما كان مصطلح العصر المملوكي⁽¹⁾.
أما في الدولة السامانية حيث عرف الديوان أحياناً باسم "عميد الملك" فقد كان رئيسه يسمى "خواجه عميد" وفي العصر السلجوقي عرف الديوان باسم "الطغرا" وأطلق على رئيسه اسم "طغرائي"، فضلاً عن ذلك فقد لقب رئيس الديوان بألقاب أخرى كلقب أحياناً بـ كاتب السر في العصر العباسي ، وبكاتب السر وكاتب الدست في العصر الفاطمي وبصاحب القلم الأعلى في المغرب⁽²⁾. وعلى نمط ديوان الإنشاء في عاصمة الخلافة العباسية قامت في الولايات المذ تلفة دواوين مماثلة تنظم المكاتبات الإدارية بين الولاية والخلافة وبين الولاية وغيرها من الولايات الأخرى والبلاد الأجنبية⁽³⁾. على أن رسد وم الكتابة الديوانية المعتبرة (من عناية باللغة وفنون الأدب والبلاغة والتمثل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأشعار القدماء وأمثال العرب وهي رسوم ذات طابع عربي) ما لبثت أن زحزحت عن مكانتها تبعاً لتدهور الأوضاع السياسية وضعف قوة العرب ، فحل محلها -بعد سقوط الخلافة العباسية 656هـ كتابات ديوانية بالمغولية والفارسية حيث آلت مقاليد الأمور لهؤلاء الأعاجم.

على أنه في سياق التدهور الذي أصاب ديوان الإنشاء الإسلامي والكتابة الديوانية - قدر لمصر أن تشكل استثناءً تاريخياً بارزاً استطاع أن ينهض بديوان الإنشاء ويطوره حتى بلغ أعلى درجاته من الكمال والضبط وانتظام القواعد في العصر المملوكي⁽⁴⁾.

كانت المرحلة الأولى في قيام الديوان في مصر مصاحبة لفتح العربي لها . في هذه المرحلة لم يحدث تطور معتبر في الكتابة بقرب مصر من العهد البيزنطي لغلبة اللسان القبطي على العامة وبعض الخاصة، وقد أعاد القلقشندي صرف المهمة

(1) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص11.

(2) المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج2، ص226.

(3) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص7.

(4) المرجع السابق، مقدمة المحقق ص8.

عن الديوان في هذه المرحلة إلى أن المسؤولين اقتصروا منذ بداية الفتح العر بي حتى أوائل الدولة الطولونية ثم الفتح سنة 21هـ. وبدأ حكم أحمد بن طولون سنة 254 هـ) على المكاتبات لأبواب الخلافة والنزر اليسير من الولايات . قال: (ولذلك ليصدر عنهم ما يدون في ا لكتب ولا يتناقل بالأسنة)⁽¹⁾. وقد كان الولاة في مصر يقتصرون في أول الأمر على اتخاذ كتاب يتولون إنشاء الكتب عنهم إلى ي الخلافة حتى جاء أحمد بن طولون فكان أول من أنشأ ديوان المكاتبات في مصر وذلك على مثال ديوان الإنشاء في عاصمة الخلافة جرياً على سياسته العامة في تنظيم دولته بمصر على منوال الإدارة في بغداد وسامراء⁽²⁾، وكذلك كان للأمرء الإخشيديين في مصر ديوان يشرف على مكاتباتهم، وفي أواخر الدولة الإخشيدية فظكافور ديواناً فرعياً في سوريا ،وبما كان الأول من نوعه ، وأند رياسته إلى ي يعقوب بن كلس⁽³⁾.

ومنذ بداية العصر الفاطمي أخذ نفوذ ديوان الإنشاء يزداد تدريجياً، إذ كانت صر قد أصبحت ذات علاقات تجارية وسياسية مستقلة بكثير من الدول والولايات ما بين إسلامية ونصرانية كافي من مهمة ديوان الرسائل إنشاء المكاتبات الصادرة باسم رئيس الدولة ، وتصديرها، و تسلم يرد إليه من شكاوي وكتب ، وعرضها عليه، وتوجيه ليقاته عليها إلى الجهات المختصة ،العمل على تنظيم ذلك كله . ومع ارتفاع شأن ديوان الإنشاء في هذا العهد ،وفي العهود التالية، يُعد الديوان يعتبر على حد تعبيرنا اليوم (أميناً عاماً لرئاسة الدولة) مطلعاً على أسرارها، عالماً بمسالك علاقاتها اللخية ودبلوماسياته الخارجية⁽⁴⁾، ولعل ابن الصيرفي يشير إلى ذلك عندما و صف الكتاب بأنهم (رؤساء الدولة)⁽⁵⁾. ومما له مغزاه في الإشارة إلى أهمية ديوان

(¹) القلقشدي، صبح الأعشى ، ج1، ص129؛ انظر القلقشندي وكتابه صبح الأعشى : دراسة

حسن حبشي عن ديوان الإنشاء وتطوره.

(²) حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص16.

(³) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص9.

(⁴) المرجع السابق، ص9.

(⁵) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص30.

ديوان نزلت أن أحد الوزراء الفاطميين و هو محمد بن جعفر المغربي اقترح أن يولى ولى الإنشاء بعد صرفه من الوزارة و كان ذلك خروجاً على العرف ، إذ لم يكن من المعتاد استخدام الوزراء بعد صرفهم⁽¹⁾.

ولكن هذه الوظيفة مقصورة على المسلمين في العصر الفاطمي ، بل كان يليها الكثير من أهل الذمة ، شأنها في ذلك شأن معظم وظائف الدولة التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بشؤون الشرع أو الحرب⁽²⁾.

قد عرف هذا الديوان بأسماء مختلفة في عصر الفاطميين : فقد كان يطلق عليه في أول الأ مراسم ديوان الرسائل ، ومن هنا سمي ابن الصيرفي كتابه (قانون ديوان الرسائل) كما كان يطلق عليهما اسم ديوان المكاتب⁽³⁾ وقد ورد ذلك الاسم في كتاب "الإشارة لمن نال الوزارة" لابن الصيرفي كذلك . كما سماه ابن الصيرفي أيضاً ديوان الإنشاء، ولم يعرف الاسم الأخير في مصر قبل العصر الفاطمي⁽⁴⁾.

وكان موظفو الديوان من الأهمية بحيث و صفهم ابن الصيرفي بأنه م رؤساء الدولة⁽⁵⁾ وكثيراً كانت وظيفة الكتابة تؤهل للوزارة . فقد سبقت الإشارة إلى تولي يعقوب بن كلس الذي أصبح أول وزير فاطمي - الكتابة بالديوان الفرعي الذي أسسه كافور بسوري كما كتب الجرجاني في أول حياته لقائد د القواد أستاذ الأستاذين غين⁽⁶⁾ وكان متوليداً ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي يعرف بكا تب الدست، وكاتب السر (ومن اللقب الأخير محرفاً قالوا كاتم السر) ومن الألقاب الفخرية العامة التي خوطب بها لقب الشيخ الأجل⁽⁷⁾، وربما كان لفظ الشيخ رمزاً

(1) حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص18.

(2) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص9

(3) ابن الصيرفي، الدين أبو القاسم علي بن منذ جب (ت542هـ/1147م)، قانون ديوان الرسائل والإشارة لمن نال الوزارة . تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط 1، الدار المصرية اللبنانية،

1990/1410م، المقدمة، ص8.

(4) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص10.

(5) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص30.

(6) المصدر نفسه، ص68.

(7) المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج1، ص402.

لمهمته المدنية، ولفظ الأجل و- هو من ألقاب الوزراء - مشيراً إلى أهميته ورفعة قدره السياسية، فضلاً عن ذلك لقب كثير من رؤساء الديوان وكتبته بنعوت فخريه خاصة: فكان فهد بن إبراهيم النصراني يلقب بالرائد س⁽¹⁾، وأبو نصر بن عبدون النصراني بالكافي⁽²⁾ ورعه بن عيسى بن نسطورس النصراني بالشافعي⁽³⁾، وأخوه صاعد بن عيسى بن نسطورس بالأمين الظهير شرف الملك تاج المعالي ذي الجدين، وأبله حسين عمار بن محمد بالأمرير الخطير رئيس الوزراء، وابن خيران بولي الدولة⁽⁴⁾. هذا وقد اتخذت النعوت الشذ صيقي أواخر العصر الفاطمي نمطاً خاصاً سرى الأخذ به إلى العصر الأيوبي، حين صاروا يلقبون بالفاضل والرشيد والعماد وما أشبه ذلك، ثم شملهم عموم التلقب بالإضافة إلى الدين: ذلك التلقب الذي فشا استعماله في أعقاب العصر السلجوقي. ظل ذلك معم ولا به حتى آخر عصر المماليك⁽⁵⁾.

ولا يغيب عن ذهن الباحث أهمية ديوان الإنشاء الفاطمي في تاريخ هذا الديوان بمصر إنانك تقاليد في حقيقة الأمر أصلاً لما جد في العصر الأيوبي وعصر المماليك. فضلاً عن أن كثير منها ظل معمولاً به في هذين العصور حتى فيما يتعلق بمقاطع الورق وربما يرجع الفضل في ذلك إلى القاضي الفاضل الذي خدم في ديوان الإنشاء الفاطمي، وتمرس بأنظمته قبل أن يستولي صلاح الدين على مقاليد الحكم ويسلّيه رئاسة ديوان الإنشاء بل والإشراف على الحكومة نفسها في بعض الأحيان⁽⁶⁾.

انتعش ديوان الإنشاء في بداية عصر الأيوبيين انتعاشاً ملحوظاً كان من مظاهره توسع في اختصاصاته، وضم دواوين الشام إلى إشرافه، وسمو المشرف عليه في

(1) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص 58.

(2) المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج 2، ص 15.

(3) المرجع السابق، ج 2، ص 287.

(4) ابن الصيرفي، الإشارة لمن نال الوزارة، ص 64، 65، 66.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5، ص 417.

(6) حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص 20.

بعض الأحيان إلى منصب النيايقن السلطان، وكثرة أعماله نظراً إلى حالة النشاط الذي شمل الدولة بقي ذلك الوقت هاككان منها علو شأن موظفيه علواً دام لبعضهم مع الأجيال، وأدى هذا كله إلى الإقبال على تعلم فنون الكتابة والتدريب على الإنشاء. ولذلك الانتعاش باب بعضها كان في تقاليد الديوان الفاطمي نفسه، وكفاءة موظفيه، بعضها جاءت وليدة الظروف الجديد التي صاحبت تأسيس الدولة الأيوبية⁽¹⁾. وديوان الإنشاء الفاطمي الذي صار أصل الديوان الأيوبي - لم يكن له المذكر بل كان على العكس ذا قيمة أدبية عالية - فضلاً عن أهميته الحكومية - فقد كان الفاطميون يولون عنا يتكبرى لفن الإنشاء، ولا يولون ديوان إنشائهم إلا رئيساً على علم تام بأصول هذا الفن، لذا كان كبار موظفي الدولة يدرّبون أولادهم في هذا الديوان حتى يتعلموا فن الكتابة، ويتدربوا على الإدارة ويلموا بخبرة عملية في كل منها⁽²⁾ لتساعدهم في مستقبل حياتهم الأدبية والإدارية. ولقد ظلت نظم ديوان الإنشاء وتقاليده معمولاً بها في عصر الأيوبيين فقد كان من سياسة صلاح الدين عدم المساس بنظم الفاطميين الإدارية، فأبقى على ديوان الإنشاء بتقاليده وأنظمته.

سواعد على استمرار تقاليد الإنشاء الفاطمية من جهة، وازدهار شأن الديوان من جهة أخرى أن تولى رئاسته قبيل القضاء على الخلافة الفاطمية وظل مسيطراً عليه بعد مجيء صلاح الدين أديب فذ قدر له أن يلعب أهم الأدوار في تاريخ الحركة الإدارية والأدبية في ذلك العصر ألا وهو القاضي الفاضل⁽³⁾.

والقاضي الفاضل هو محي الدين أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرج بن أحمد البيساني الأصل، وقد ولد في عسقلان سنة 549هـ، حيث ولي أبوه القاضي الأشرف البيساني الحكم والقضاء للفاطميين،

(1) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص 10، 11.

(2) أبو شامه، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت 665هـ/1266م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، 1287هـ، ج 1، ص 192.

(3) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص 11.

وقد أورد أبو شامة توقيعاً كتب إليه في ذي القعدة سنة 541هـ عن الخليفة العاضد الفاطمي⁽¹⁾.

وبعّن حفظ القاضي الفاضل القرآن و ديوان الحماسة بعثه أبوه في خلافة الحافظ إلى القاهرة لتعلم في ديوان المكاتبات تحت إشراف رئيسه إذ ذاك القاضي موافق أبي الحجاج يوسف ابن الخلال⁽²⁾ لاي قام بتدريسه ، وأشرف على تعليمه فنون الإنشاء، كلفه بأن يحل شعر الحماسة - أي ينثره -⁽³⁾ وفضلاً عن ذلك اشتغل أيضاً مع القاضي أبي الفتح محمود بن سماعيل بن قادوس كاتب الإيضاء بالخدمة المصرية: فكليسايره أثناء ركوبه من القصر و إليه يحاوره في فنون الكتابات والأدب والشعر⁽⁴⁾.

وبعد أن نجح القاضي الفاضل في إثبات كفته في مباشرة و وظيفة الكتابة التحق بخدمة الديوان وتدرج في عدة وظائف إدارية منها وظيفة كاتب بمال مصر⁽⁵⁾ وفي ديوان الجيش بالقاهرة عوفي ديوان الإيضاء بالإسكندرية⁽⁶⁾، ثم استقر في وظيفة كاتب الإيضاء لأسد الدين شيركوه بعد استقالته بالوزارة ، فأظهر كفاءة نادرة . فلما خلف صلاح الدين عمه في وزارة العاضد استبقاه في رئاسة ديوان الإيضاء ونشاء وقربه إليه. وأخذ مركز القاضي الفاضل يرتفع عند السلطان صلاح الدين الأيوبي حتى عهد إليه بالإشراف على الإيضاء في مصر و ركن إلى آرائه في أهم أمور الحرب والسياسة⁽⁷⁾ ثم أنابه في حكم مصر حين انصرف إلى حرب الصليبيين عند عكا.

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص50.

(2) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/1362م)، الوافي بالوفيات. الأستانة، 1931، ج15، ص16.

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص192.

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ص103.

(5) ابن خلكان، ج1، ص284-286، أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ج1، ص130.

(6) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص16.

(7) أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص273، ج2، ص176.

لقد وصل القاضي الفاضل إلى ما وصل إليه من مركز ممتاز عند صلاح الدين ببراعته في الإنشاء، وللمامة بفنون الكتابة ، إلى جانب طلاله وكرم أخلاقه ، وحسن رأيه. ولقد بلغ لجباب صلاح الدين بمكاتبات القاضي الفاضل أن كان يقول "فتحت البلاد بمكبات القاضي الفاضل لا بالعساكر (1). ولقد ذاع صيت رسائل القاضي الفاضل حتى أقبل الأبناء على اقتنائها وجمعها في مجلدات واتخاذها مثالا يحتذون به ويستشهدون به.

وكان لتعاون القاضي الفاضل مع عماد الدين الكاتب الأصبهاني أثر كبير في التوفيق بين تقاليد الديوانين : الفاطمي والعباسي ، بحيث استفاد الديوان الأيوبي من غنى التجربتين معاً . والبعض يعتبر أن العماد الأصبهاني هو الركن الثاني الذي قام عليه ديوان الإنشاء الأيوبي (2).

وفضلاً عن هاتين الشخصيتين اللتين لعبتا دورهما في الرقي بديوان الإنشاء وطبعه بطابع خاص ظل ملازماً له حتى عصر المماليك، عملت ظروف أخرى على ازدياد العناية بديوان الإنشاء في هذا العصر ، ولعل أهمها كان محاربة صلاح الدين للفلسفة والأبحاث العقلية التي كانت إحدى وسائل الدعاية للمذهب الفاطمي ، والتي كانت بغضبة عند فقهاء السنية حتى لقد ورد عن الشافعي قوله "لئن ألقى الله بكل خطيئة - عدا الشرك - أهون من أن ألقاه بعلم الكلام (3).

وانصرف العلماء مليادين أخرى من ميادين العلم يستنفدون فيها طاقاتهم ، ووجدوا سماعاً لهم في فنون الكتابة والإنشاء : فأقبلوا على التأليف فيها والتقن في وضع القوانين المنظمة لمصطلحها ، والتي اتخذت في غالب الأحيان صورة توجيهات لكتاب ديوان الإنشاء وقد شهد عصر الأيوبيين، ومن بعده عصر المماليك، أساطين المقننين لديوان الإنشاء أمثال: ابن الأثير في كتابه "المثل السائر" وابن شيث في كتابه "معالم الكتابة ومغانم الإنصاف" وشهاب الدين ابن فضل الله

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص16.

(2) حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص24.

(3) المرجع السابق، ص27.

العمرى فى كئابه التءرف بالمصطلح الشرف "والقلقشنى فى موسوء ته الكئابفة
"صبع الأعشف فى صناعة الإنشاء"⁽¹⁾.

ولما قامئ ءولة الممالفك أصف مئولى ءفوان ا لإنشاء من المكانة المرموقة فى
ءولة بءفث فصاحب السلطان فى حلّه وئرحالّه ورفاقه فى حرببه وءزوائه ،
وفعرف سن أر ءولة ما قء فءفى على الخاصة من أعوان السلطان . وفى هءا
العصر أصف صاحب ءفوان الإنشاء فنفل من مصر إلى الشام -إء كان هءان
الءناهان للعالم الإسلامف قء اءئما منذ مءطوفلة ئئ سلطة مركزفة واحدة - فقء
نفل الناصر محمد بن قلاوون القاضف شرف ءفء بن فضل الله العمرى من مصر
لى إكئابة السر فى ءمشق بعء أن كان قء كئب للأشرف بن قلاوون و أخفه الناصر
محمد وللعاءل كئبغا والمنصور لاففن والمظفر ببفرس⁽²⁾.

وئمة ظاهرة بارزة فى العصر مملوكف وهف التفرفع الهائل فى الإ ءارة وئضخم
ءهازها، وقء رافق هءه الظاهرة ائجاه إلى ءمفع السلطة الإءارفة فى ءفوان الإنشاء،
وبءلك نستطفع أن نئصور الأعباء الكبفره ائف كانت ملقاة على عائق هءا الجهاز ،
وفى الوقت نفسه علفنا أن نلاحظ مستوى القءرات الأءبفة والإءارفة ائف كان فئوجب
ئوفرها ففمن فكون على رأسه.

وئفلئ هءه الفئرة بأسماء كئفرفن من كئاب الإ نشاء قء فرجع البعض منهم
لى أسرة واحدة ، وفأء كل منهم نفسه بالاهئمام بالفنون اللازمة ائف ئهفئه لئولى
وظففة كائب السر ، ولعل أبرز هؤلاء أسرة ابن فضل الله العمرى ائف ئولى خمسة
أفراد منها وظففة صاحب ءفوان الإنشاء أو كائب السر فى ءولئف الممالفك البءرفة
والبرءفة لمءة ئزفء على القرن من الزمان ، وقء شغل أفراد هءه الأسرة هءه الوظففة
عن ءءارة أءبفة واستءقاق لا فرقى إلفها الشك⁽³⁾.

فجب الإشارة إلى أن الإنشاء ءفوانف فى كل القرون كان على نسق واءء لم
فئفر فءفرأ فءكر إلا فى عصر الانءطاط اللغوف ومن مشاهفره.

(1) ابن شفئ، معالم الكئابة ومغانم الإصابة، ص12.

(2) القلقشنى؁ صبع الأعشف؁ ء1؁ ص131.

(3) المرجع السابق؁ ء1؁ ص131؁ 132.

1. ابن العميد من أهل القرن الرابع وزير بني بويه في فارس.
 2. الصابي من أهل القرن الرابع كاتب الخلافة في بغداد.
 3. القاضي الفاضل من أهل القرن السادس وزير الدولة الأيوبية بمصر.
 4. ابن الخطيب من أهل القرن الثامن وزير غرناطة وأديب الأندلس.
- ويمكننا القول إنّ ديوان الإنشاء -من حيث التنظيم والفاعلية والدور القيادي على مستوى الإدارة في الدولة- وأن مصطلح الكتابة -من حيث التقنين والدقة والضبط- قد بلغأوجهما حتى استطاع خليل الظاهري أن يقرر في أواخر العصر المملوكي بأن العناية بمصطلح الكتابة بلغت من الدقة والضبط بحيث صار لا يمكن التلاعب بيلتغأو التبديل فيما كان يصدر من ديوان الإنشاء ، حيث أصبح هذا الديوان "على الأوضاع المحكمة والقانون المستقيم بين رتب الناس ومنازلهم"⁽¹⁾.

(¹) الظاهري، خليل بن شاهين (لا تا)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، طبعة باريس، 1894م، ص101.

الفصل الثاني

شروط الكتاب وصفاتهم في ديوان الإنشاء

كان لاتساع نطاق ديوان الإنشاء وللأهمية الكبرى التي احتلها صاحبه أن حددت له شروط ومواصفات جعلت الشخص الذي يحتل هذا المنصب يختار من فئة معينة ووفقا لشروط محددة، ومن أهم الصفات التي اتخذت لصاحب ديوان الإنشاء ما يأتي:

1. صفات شخصية
2. صفات خلقية
3. ومؤهلات معرفية.

1.2 الصفات الشخصية:

الصفة الأولى: الإسلام:

لقد شدّد ابن الصيرفي في كتابه الذي يعد دستوراً لديوان الإنشاء الفاطمي على هذه الصفة حيث يقول "يجب أن يكون دينه الإسلام ، لأنه من الملك بمنزلة الوزير، والوزير مشتق من المؤازرة، والمؤازرة هي المساعدة والمعونة والمظاهر فلا يجب أن يتخذ لهذا الأمر من يخرج عن دين الإسلام (1). لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (2) والمقصود بالبطانة من يطلع على حال المسلمين كالاطلاع على مقدار خزانة من المال، وإعداد جيشهم من الخيل والرجال.

وأول ما يتجنب الملك من نهى الله جل جلاله عن اتخاذه غير المسلم ولياً، بل الواجب على الإطلاق وخاصة بحكم الوقت الحاضر أن لا يطلع على أسرار من

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص 8، وقد تولى ديوان الإنشاء الفاطمي جماعة من أفاضل الكتاب وبلغاتهم ما بين مسلم وذمي على عكس ما شرط ابن الصيرفي . راجع الفلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص130؛ السيوطي، حسن، المحاضرة ج2: ص232.

(2) سورة المائدة، آية رقم 51.

يخالف شريعة الاسلام لقرب دار العدو. قال أبو الفضل الصوري⁽¹⁾ في تذكرته " وإن من الفطرة التي جبل كل أحد عليها حنين كل شخص من الناس الى من يرى رأييه ويدين دينه، وهذا أمر يجده كل أحد في نفسه "⁽²⁾ ومع ذلك فإن كاتب الرسائل أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثل بنواهيهِ وأوامره، والذكر لقوارعه وزواجره، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات، وهو الذي تشدّ قوى الكلام ويثبت صحته في الإفهام؛ فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن عارية من الفضائل ؛ لأنه الحجة التي لا تدحض، والحقيقة التي لا ترفض⁽³⁾.

فإذا كان الكاتب من الذمة لم يكن لديه من ذلك شيء ، وأنت كتبه مغسولة من أفضل الكلام، وخالية مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام، ومقصرة عن رتبة الكمال، ومنسوبة إلى العجز والإخلال⁽⁴⁾.

ويقول القلقشندي⁽⁵⁾ تعاطى الكاتب الذمي حفظ شيء منه وكتبه فقد أبيت حرمة كتاب الله تعالى وانتهكت ولمكن منه من يتخذه هزواً ولعباً ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾⁽⁵⁾ فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم⁽⁶⁾.

الصفة الثانية: وفور العقل وجزالة الرأي:

فإن العقل أسّ الفضائل وأصل المناقب وملاّ عقل له فلا انتفاع به ، وكيف لا يكون كذلك وهو المستشار في كبار الأمور والمشارك في النظر في سداد الثغور ، وإنما كلام المرء ورأيه على قدر عقله ، فإذا كان تام العقل كامل الرأي وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته مواضعها وأتى بالكلام من وجهه ، وخاطب كل أحد

(1) أحد كتاب الإنشاء أيام القاضي الفاضل.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص93.

(3) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص8.

(4) المصدر السابق، ص9.

(5) سورة الواقعة، آية79.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص95.

عن اللطآن بما تقتضيه الحال التي يكون عليها ، فيشدّ ما كانت الشدة نافعة، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجاً ، ويوبخ من لا يقتضي فعله أكثر من التوبيخ، ويذم من تعدى إلى ما يستوجب الذم ويأتي بأصناف المكاتبات التي تقتضيها اختلاف الحالات واقعة مواقعها صائبة مراميها⁽¹⁾.

الصفة الثالثة: قوة العزم وعلو الهمة، وشرف النفس:

فإنه يكاتب الملوك عن ملكه و لى كاتب يجذبه طبعه وجبّاته وخيمته⁽²⁾ في الكتابة إلى ما يميل إليه، ومكاتبة الملوك أحوج لشيء إلى التقخير والتعظيم، وذكر التهويل الرائعة والأشياء المرغبة، فكلما كان الكاتب أقوى نفساً وأشدّ عزماً وأعلى همة، كان في ذلك أمضى وعليه أقدر، ومهما نقص في ذلك نقصت من كتابته⁽³⁾.

الصفة الرابعة: العلم بمواد الأحكام الشرعية، والفنون الأدبية وغيرها:

إذ الجاهل لا تمييز له بين الحق والباطل، ولا معرفة ترشده إلى الطرق المعتمدة في الكتابة، ومن سلك طريقاً بغير دليل ضل، أو تمسك بغير أصل زل⁽⁴⁾.

الصفة الخامسة: الكفاية لما يتولاه:

لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن في أمر المسلمين ، وربما عاد عليهم عجزه بالوبال، أو أدى بهم ضعفه إلى الاضطراب والاختلال⁽⁵⁾.

الصفة السادسة: التكليف:

كما في كاتب للقي فلا يعول على الصبي في الكتاب ة إذ لا وثوق به ولا اعتماد عليه⁽⁶⁾.

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص10.

(2) الخيم: أي السجية، البستان، 736/1.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص100.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص99.

(5) المصدر السابق، ص99.

(6) المصدر السابق، ص97.

الصفة السابعة: الحرية:

فقط شرطوا في كاتب القاضي أن يكون حرّاً لما في العبد من النقص ، فلا يعتمد في كل القضايا ولا يوثق به في كل الأحوال ، فكاتب السلطان كذلك بل أولى كما تقدم⁽¹⁾.

الصفة الثامنة: العدالة:

فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقاً فإنه بمنزلة كبيرة ، ورتبة خطيرة ، يحكم بها في أرواح الناس وأموالهم لأنه لو زاد أدنى كلمة أو حذف أيسر حرف ، أو كتم شيئاً قد علموا، تأول لفظاً بغير معناه أو حرّاً فه من جهته، أدى ذلك إلى ضرر من لا يستوجب الضرر، ونفع من يجب الإضرار به ، وكان قد موّه على الملك حتى مدح المذموم، وذم الممدوح حتى لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب المآثم ويزعه عن احتقاب المحارم⁽²⁾ كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، وأثر فعله من الإضرار مالم تؤثره السيوف والله القائل:

ظلمة من كاتب بينانه أمضى أقطع من رقيق حسام
قوم إذا عزموا عداوة حاسد سفكوا الدما بأسنة الأقلام
وأيضاً فإنه لا يقبل قول الفاسق فتضيع به المصالح ، وربما حمله الفسق وعدم الاكتراث بأمور الدين على وهن يدخله على الدين بقلمه، أو ضرر يجلبه للسانه.
وأيضاً فالكتابة ولاية شرعية والفاسق لا تصح توليته شيئاً من أمور المسلمين، وقد أطلق القاضي أبو الطيب والماوردي من أصحابنا الشافعية باشتراط العدالة في كاتب القاضي فيجب مثله في كاتب السلطان بل أولى على ما تقدم⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ص 97.

(2) احتقاب: احتقبت فلان المحارم: جمعها (البستان 550/1).

(3) المصدر السابق، ص 97، 98.

الصفة التاسعة: الذكورة:

فقد صرح الشافعية، بأنه يشترط في كاتب القاضي أن يكون ذكرا وإذا اشترط ذلك في كاتب القاضي ففي كاتب السلطان أولى ك ما تقدم من عموم النفع والضرر به⁽¹⁾.

2.2 الصفات الخُلقية والخُلقية:

ذكر ابن مماتي في كتابه ((قوانين الدواوين)): يُتَّبَغَى أن يكون أدبيا ، حاد الذهن، قوي النفس ، حاضر الحس ، جيد الحِدى، حلو اللسان، له جرأة يَبِثُ⁽²⁾ بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه تَوَدَّة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية شريف الأنفة، عظيم النزاهة، كريم الأخلاق، مأمون الغائلة⁽³⁾.
قال محمد بن إبراهيم الشيباني⁽⁴⁾ من صفة الكاتب اعتدال القامة ، وصغر الهامة وخفة اللهازم⁽⁵⁾ وكثاثة اللحية وصدق الحس ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل، وخطف الإشارة، وملاحة الزي . قال: ومن حاله أيضا أن يكون بهي الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة، دقيق الذهن، حسن البيان، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة، مليح الإستعارة، لطيف المسالك ، مستقره⁽⁶⁾، المركب، لا يكون مع ذلك فضفاض الجثة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، فإنهم زعموا إن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفتنة، والله القائل:

(1) الشافعي، محمد بن إدريس (150هـ-204هـ)، الأم دار المعرفة، بيروت، ج6، ص210؛ الخالدي، بهاء الدين بن لطف الله، المقصد ا لرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشاء، مخطوط رقم 1027، مكتبة الجامعة الأردنية، ص85.

(2) لعل صحة العبارة "يَبِثُ بها في الأمور".

(3) ابن مماتي، شرف الدين أبي المكارم (ت606هـ/1209م)، قوانين الدواوين، جمع وتحقيق، عزيز سوريا عطية، مطبعة مصر، 1943م، ص66.

(4) محمد بن إبراهيم الشيباني، أديب أندلسي من كتاب الولاة من أهل قرطبة بمراكش 564هـ/1168م، الأعلام 296/5.

(5) مفردا لهزمه، وهو عظم ناتئ في اللحي تحت الأذن (البستان، 2206/2).

(6) أي يركب دابه فارهة نشيطة (اللسان، 521/3).

وشمول كأنما اعتصروها من معاني شمائل الكتاب
وقال ابو الفضل الصوري ⁽¹⁾ ينبغي أن يكون الكاتب فصيحاً بليغاً أدبياً سنياً
الرتبة، قوي الحجة، شديد العارضة ⁽²⁾ حسن الألفاظ، له ملكة يقتدر بها على مدح
المذموم وذم المحمود ⁽³⁾.

قال ابن مماتي: "أما حسن الهيئة، فإنه يرجع في ذلك إلى ما يعلمه من حال
مخدومه من إثارة نعمته على من هو في خدمته أو إخفاءها" ⁽⁴⁾.
وهذا قد يخالف ما تقدم: من أنه ينبغي أن يكون الكاتب بهي الملبس. وبالجمل
فصاحة اللسان، وقوة البيان، والتقدم في صناعة الكتابة هو الذي يرفع الرجل
ويعظمه دون أثوابه البهية، وهيئته الزاهية، بل ربما كان التعظيم في الفضل لمرث
الحالة المنحط الجانب أكثر، وترجيحه على غيره أقرب ⁽⁵⁾.

3.2 الشروط الفنية المطلوب توافرها في كتاب ديوان الإنشاء:

أول وأعظم صفة لمتولي كتابة ديوان الإنشاء هي حفظ كتاب الله عز وجل
- فنجد عبد الحميد الكاتب الذي يعد من أوائل المهتمين بقواعد الكتابة يقرر في
رسالته التي يوجهها للكتاب في عصره أنه ينبغي على من يريد مزاولة هذه المهنة
أن يبدأ بعلم كتاب الله فقال: "تنافسوا معشر الكتاب في صون العلم والآداب
وتفهموا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل" ⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ أبو الفضل الصوري، أحد كتاب الإنشاء أيام القاضي الفاضل.

⁽²⁾ هي اللسان والبيان والبديهة (البستان، 1554/2).

⁽³⁾ القلقشندي، صبح الأعشى، ص100.

⁽⁴⁾ ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص66.

⁽⁵⁾ القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص100، 101.

⁽⁶⁾ الجهشيري، أبي عبدالله محمد بن عبدوس (ت331هـ/942م): الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، ط2؛ مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1980، ص75.

وهذا ابن قتيبة ينكر على الأدباء الذين لا ينظرون في كتاب الله حيث يقول ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب⁽¹⁾.

ونجد أيضاً ابن الصيرفي يولي هذه الصفة اهتماماً كبيراً حيث يقول : ويجب أن يكون حافظاً لكتاب الله - تعالى - أو قيماً بقراءته إذا قرأه، فإنه شديد الحاجة إليه⁽²⁾.

ولكن ابن الأثير جعلها الأداة السادسة من الأدوات التي يفتقر إليها الكاتب فقال بماذا ركب الله تعالى في الإنسان طبعاً قابلاً لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات⁽³⁾.

وعدها "وذكر النوع السادس وهو حفظ كتاب الله والتدرب باستعماله وإدراجها في مطاوي الكلام"⁽⁴⁾ وهذا الشهاب محمود الدين الحلبي في كتابه حسن التوسل، إلى صناعة الترسل يقول "وأول ما يبدأ به من ذلك " حفظ كتاب الله وإدامة قراءته وملازمة دروسه بمر معانيه حتى لا يزال مصوراً في فكره، دائراً على لسانه ممثلاً في قلبه، ذاكراً له في كل ما يرد إليه من الوقائع التي تحتاج إلى الاستشهاد به فيهلو يفتقر إلى إقامة الأدلة القاطعة به عليها، يوكفي بذلك معينا في قصده، ومغنياً له عن غيره"⁽⁵⁾.

(1) ابن قتيبة، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، الكوفي (ت276هـ/889م): أدب الكاتب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المقدمة، ص3.

(2) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص11.

(3) ابن الأثير الجزري (ت637هـ/1239م) مثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم : روجي الفيصل، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية السورية، دمشق، 1996، ج1، ص32.

(4) المصدر السابق، ص33.

(5) محمود الحلبي، شهاب الدين محمود الحلبي (ت725هـ/1324م): حسن التوسل في صناعة الترسل. تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، منشورات الثقافة والإعلام، دار الرشيد، العراق، 1987م، ص72؛ الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء، ص17.

قال تعالى: "ما فرطنا في الكتاب من شيء" (1).

الثاني: حفظ أحاديث وأخبار الرسول : وحول ذلك يقول ابن الصيرفي " ويكون حافظا لأخبار الرسول والأئمة من ذريته - صلى الله عليهم أجمعين - قيما بها أو بأكثرها " (2) وبالنسبة لعبارة الأئمة من ذريته قد قالها بسبب تشيعه - إن ثبت أنه كان شيعيا - ولرب سائل يسأل لماذا لم يأخذ عبد الحميد الكاتب بهذه الصفة شرطاً لازماً لمن يريد مزاوله هذه المهنة ، فيجيب إحسان عباس بقوله: إن هذه الرسالة صدرت في فترة لم يكن فيها الاهتمام بتدوين الحديث قد بدأ (3).

ما ألن الأثير فقد جعل هذه الصفة نوعاً سابعا حيث يقول : " حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال " (4) ويقرر الشهاب محمود هذه الصفة ويجعلها في المرتبة الثانية حيث يقول : " ويتلوا الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية ، - صلوات الله على قائلها وسلامه وخصوصاً في السير والمغازي والأحكام ، والنظر في معانيها وغريبها وفصاحتها وفقه ما لا بد من معرفته من أحكامها ، لينفق منها عن سعة ويستشهد بكل شيء في موضعه ويحتج بمكان الحجة ويستدل بموضع الدليل، يصيرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه " (5). وينكر ابن قتيبة في مقدمة كتابه على الكاتب ان لا يتحلى بهذه الصفة حيث يقول " ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول _ صلى الله عليه وسلم وصحابته " (6).

(1) الأنعام، آية 38.

(2) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص 11.

(3) إحسان عباس، يحيى الكاتب، وما يتبقى من رسائله ورسائله سالم أبي العلاء، ط 1، دار الشروق، عمان، 1988، ص 185.

(4) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب، ص 33.

(5) شهاب الدين الحلبي، حسن التوصل إلى صناعة الترتيل، ص 78. انظر الخالدي : المقصد الرفيع، ص 18.

(6) ابن قتيبة، أدب الكاتب، المقدمة، ص 3.

ويرى ابن قتيبة أن الأحاديث التي ينبغي للكاتب حفظها الأحاديث المتعلقة بالفقه وأحكامه: كقوله - صلى الله عليه وسلم - البينة على المدعي ، واليمين على المدعى عليه، والخراج بالضمان إلخ⁽¹⁾ وحاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه ، بل تتعلق بما هو أعم من ذلك خصوصاً الحكم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة والاقتباس من معانيه⁽²⁾.

ويضيف ابن الأثير حيث يقول : " واعلم أن أكثر الأحاديث تدخل في الاستعمال ولا يخرج عنه إلا القليل النادر ، ولقد دار بيني وبين بعض علماء الأدب في هذا الأسلوب كلام فاستوعروه واستكروه ، وقال هذا لا يتهياً إلا في الشيء اليسير من الأخبار النبوية - فقلت لا بل يتهياً في الأكثر منها"⁽³⁾.

الثالث: معرفة تاريخ العرب والعجم وأيام الملوك، فقد طلب عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكاتب بأن يطلعوا على ذلك حيث يقول : مخاطباً الكاتب : "ارووا الأشعار، وأعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرتها فإن ذلك ميعى لكم على ما تسمون إليه بهمكم"⁽⁴⁾ وقد عدَّ عبد الحميد الكاتب علم التاريخ من العلوم الثمانية ، التي تمثل الأساس الثقافي الذي يصلح أن يكون متكاملاً للمسؤولية⁽⁵⁾ يعني مسؤولية الكتابة ويتشدد ابن قتيبة في ذلك حيث يقول "ولا بد له - أي الكاتب - من دراسة أخبار الناس"⁽⁶⁾ أما ابن الصيرفي فيشترط على من يتولى ديوان الرسائل أن يكون راوياً لأخبار الملوك وأيام العرب ووقائعهم وأخبار العجم وسائر الأمم وما جرى في أيام الملوك الماضين ، وما حدث من وزرائهم وكتابهم وقوادهم وأخبارهم، فإنه أحوج الناس إلى ذلك " وتسمى هذه الثقافة بالثقافة التاريخية الواسعة.

(1) ابن قتيبة، أدب الكاتب، المقدمة، ص 11.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص 245، 246.

(3) ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص 128-129.

(4) الجهشيارى، الوزراء الكتاب، ص 75.

(5) إحسان عباس، عبد الحميد الكاتب، ص 184.

(6) ابن قتيبة، أدب الكاتب، المقدمة، ص 11.

أما ابن الأثير فقد دمج شرطين في شرط واحد فقال : " والنوع الثالث معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام " (1) ويهمننا من هذا الشاهد هو الجانب التاريخي الذي يختص بأيام العرب ووقائعهم وهذا لا غنى لمن يريد مزاولة الكتابة.

وأما شهاب الدين محمود الحلبي فقد قال : " ثم النظر في أيام العرب ووقائعهم وحروبهم، تسمية الأيام التي كانت بينهم ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى ، وما جرى بينهم في ذلك من الأشعار والمناقضات، لما في ذلك من العلم ، بما يستشهد به من واقعة قديمة يرد عليه في مكاتبه من ذكر أيام مشهورة ، أو ذكر فارس معين " (2).

ولما كان كتابه "حسن التوسل في صناعة الترسل" كتاباً تعليمياً فقد أورد فيه بعض الأمثلة التي يمكن اتخاذها من قبل الناشئ نموذجاً للمحاكاة. ثم يشترط في موضع آخر بما يعرف بالثقافة التاريخية حيث يقول : " ثم النظر في التواريخ ، ومعرفة أخبار الدول، لما في ذلك من الاطلاع على سير الملوك وسياساتهم، وذكر وقائعهم ومكائدهم ، في حروبهم " (3) فإن الكاتب إذا لم يكن عارفاً بالوقائع عالمياً بما جرى منه لم يدرك كيف يجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا يقول إذا سئل عنها.

الرابع: حفظ الأشعار:

يرى عبد الحميد الكاتب أن معرفة الشعر وعلومه من الأساسيات التي لا غنى للكاتب عنها. إذ يقول: " وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها " (4). أما ابن الصيرفي فقد اشترط هذه الصفة واعتبرها ضرورية للكاتب وقال: "يجب أن يكون حافظاً للأشعار راوياً للكثير منها ، يستشهد بما عساه يحسن

(1) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص32.

(2) شهاب الدين محمود الحلبي، حسن التوسل، ص 86. انظر الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء، ص28.

(3) المصدر السابق، ص88.

(4) الجهشيارى، الوزراء الكتاب، ص75.

الاستشهاد به في بعض المواضع ، فإنه للمنظوم من البهجة في النفس والوقع في القلب ما ليس للمنثور ، وربما حل منه ما يحتاج إليه فأتى به منشوراً في أثناء رسائله، وطي انشاءاته فكم معنى بديع رائع قد حظي به المنظوم دون المنثور . وإن كمل لأن يكون محسناً لنظم الشعر مجيداً فيه كان أجمل لصفاته وأكمل لأدواته ⁽¹⁾.

أما ابن الأثير فقد اعتبرها الآلة الرابعة من الآلات التي يفتقر إليها الكاتب :-
الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة ،
والتحفظ للكثير منه ⁽²⁾ وأخذ ابن الأثير يعدد الفوائد المتوخاة من ذلك ومنها : "إنه يعلم
منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ، وتصبح المعاني ملقاة بين يديه يأخذ منها ما
يريد ويترك ما لا يريدونها نلمح تركيز ابن الأثير على المعاني، ثم إن اطلاعه
على المنظوم والمنثور يشحذ قريحته ويذكي فطنته ⁽³⁾ .

واشترط الشهاب محمود على الكاتب الذي يريد مزاوله صناعة الكتابة أن
يحفظ أشعار العرب ، ومطالعة شروحها ، واستكشاف غوامضها ، والتوفر على ما
خزاه العلماء بها منها :- "الحماسة" و"المفضليات" و"الأصمعيات" و"ديوان الهذليين"
وقد عبر الشهاب محمود عن الفوائد المتوخاه من حفظ الأشعار في نظره ليست
كالفوائد التي عند ابن الأثير فهي عنده الاستشهاد ، وكثرة النقل ، وصقل مرآة
العقل افتزاع الأمثال، والاحتذاء في اختراع المعاني ، والاطلاع على أصول اللغة
وشواهدا ويذكر الأمثلة على ذلك من أقوال الصحابة وأخبارهم ويذكر بعض
شعراء العرب الذين كانوا يضمنون قصائدهم بأنصاف أبيات للعرب ويذكر بعض
أشعارهم ⁽⁴⁾ .

واشترط أيضاً حفظ جانب جيد من شعر المحدثين كأبي تمام والبحتري وابن
الرومي معللاً ذلك بدوران الصناعة في كلامهم ، ودقة توليد المعاني في أشعارهم ،
وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة وخصوصاً المتبني الذي كأنه ينطق عن

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص11.

(2) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص32.

(3) المصدر السابق، ج1، ص50.

(4) الشهاب محمود، حسن التوسل في صناعة الترسل، ص89-91.

ألسنة الناس في محاوراتهم ، وقد يكتفي بالبيت الواحد عنده في الدلالة على المقصد، أو بلوغ الغرض في الجواب "(1)" ويستخدم الكاتب الشعر في كتاباته بثلاثة طرق:

- أ - الاستشهاد: وهو أن يورد البيت من الشعر أو غيره من خلال الكلام المنثور.
- ب - التضمن: وهو أن يضمن البيت الكامل من الشعر لبعض القرينه.
- ج - الحل: وهو أن ينثر الشاعر بيت الشعر ويستعين بها في كلامه المنثور، وحله بأخذ النثر البيت من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة وهو أدنى مراتب الحل"(2).

ولم يكتف بحفظ الشعر بل طالب الكاتب بالنظر في رسائل المتقدمين، دون حفظها، لما في النظر فيها من تنقيح القريحة وإرشاد خاطر والنسج على منوال جيد، ويعمل النهي عن حفظها بمخافة أن يتكل خاطر على ما في حاصله ويستند الفكر إلى ما في مودعه، ويستشهد على ذلك ما كتبه إبراهيم بن العباس الصولي، "إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه، وللمسيء من النكال ما يقمعه، بذل المحسن ما يجب عليه رغبة، وإنقاذ المسيء إلى ما كلفه رهبة".

ويستشهد بأقوال كثيرة منها لأبي نصر العتبي وبديع الزمان الهمذاني والقاضي الفاضل، ولكنه فضل حفظها لمن أراد المحاضرة دون الإنشاء"(3).

الخامس: علوم اللغة العربية:

لقد اهتم عبد الحميد في رسالته إلى الكتاب بعلوم اللغة العربية ، فقد عدّها من العلوم المهمة والضرورية التي تلزم كاتب الرسائل فقال : " وابدأوا بعلم كتاب الله - عز وجل والفرائض ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم"(4). أي بها تستوي وتستقيم ألسنتكم.

وينكر ابن قتيبة في مقدمة كتابه على الكاتب الذي لا ينظر في علم اللغة حيث يقول إنكّه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي علوم العرب ولغاتها

(1) شهاب الدين محمود، حسن التوسل في صناعة الترسل، ص 92-94.

(2) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 1، ص 128.

(3) شهاب الدين محمود، حسن التوسل في صناعة الترسل، ص 94-95.

(4) الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص 75.

وآدابها⁽¹⁾ كذلك اشترط ابن الصيرفي على الكاتب أن يكون قد قرأ من العربية والتصرف أكثرها حيث يقول : فإنه أحوج الناس إلى هذه العلوم . فإن كان مبرزاً فيها قيماً بها على الكمال فزيادة في فضله ، وإن حصل منها أن يكون متكلماً بألفاظ الفصحاء لاحقاً برتبة البلغاء لا يخفى عنه شيء مما يجري في المكاتبات ويكثر في المحاورات من غير أن يتبع حوشي الكلام⁽²⁾ ووحشي الألفاظ وغريب اللغة⁽³⁾ .

واهتم ابن الأثير بهذه الصفة ووضعها في كتابه في المرتبة الأولى فقال عن علم النحويته "في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إقنان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معرفة اللحن ، ولكنه لم يشترط الإلمام بكل جزئياته وفروعه ، بل اشترط معرفة النحو إذا كان ضابطاً لمعاني الكلام حافظاً لها من الاختلاف"⁽⁴⁾ .

وكذلك بالنسبة لعلم الصرف فإنه إذا لم يكن عارفاً به لم تفسد عليه معاني كلامه وإنما تفسد عليه الأوضاع ، إن كانت المعاني صحيحة ، وقد تطرق إلى ذكر أبي نافع بن أبي نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدراً - وأفخمهم شأناً - قال في "معاش" : "معاش" بالهمزة؟ ولم يعلم الأصل في ذلك، وإذا كان هذا شأن أولي العلم فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها"⁽⁵⁾ .

ويحتاج الكاتب إليه أي النحو والصرف، لأنه قانون اللغة ، وهو أول شيء يجب على دارس اللغة العربية أن يتقنه " وهو أول ما ينبغي معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي "⁽⁶⁾ .

واشترط الشهاب محمود هذا الشرط فقال : "ويتبع ذلك قراءة ما يتفق من كتب النحو التي يحصل لها المقصود من معرفة العربية ، ويك على الإعراب ويلزمه

(1) ابن قتيبة، أدب الكاتب، المقدمة ص3.

(2) حوشي الكلام: وحشية وغريبة، لسان العرب، باب حوش.

(3) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص11-12.

(4) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص33-35.

(5) المصدر السابق، ج1، ص38-40.

(6) الخالدي "المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء" مخطوط، ص120.

ويجعله دأبه ليرتسم في فكره هويدور على لسانه وينطلق به عقال قلمه وكلمه
ويكون على بصيرة من عباراته ، فإنه لو أتى من البلاغة بأتم ما يكون ولحن ذهبت
محاسن ما أتى به هوانهدمت طبقة كلامه ، ونصحه بقراءة ما يتهيأ من كتب
مختصرات اللغة مثل الفصيح، وكفاية المتحفظ، وغير ذلك من كتب الألفاظ⁽¹⁾.

السادس: البلاغة والفصاحة.

يرى ابن الصيرفي في من يتولى كتابة الإنشاء " أن يكون من البلاغة
والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسمى منزلة ، لأنه لسان السلطان الذي ينطق به ويده
التي يكتب بها ورب كاتب بليغ أصاب الغرض في ك تابتته فأغنى صاحبه عن
الكتائب فإذا كان جيد الفطرة صائب الرأي ، حسن الألفاظ تأنى له المعاني الجزلة ،
فيجلوها في الألفاظ السهلة، ويختصر بحيث يكون الاختصار كافياً ويطيل حين لا يجد
من الإطالة بداً، ويهدد فيملأ القلوب روعة، ويشكر فيلقي على النفوس جذلاً ومسرة.
ثمن كتب إلى ملك كبير هودي رتبه خطير ، عظم مملكة صاحبه وفخمها في
معاريض كلامه من غير أن يوجد أن ذلك قصده، واستصفى نية الكاتب واستجلب
مودته في أثناء الخطاب وإن لم يظهر ذلك مطلبه بل يريه أن الحظ والنصيب الأوفى
إذا تم ذلك معه"⁽²⁾.

ويرى أبو الهلال العسكري فضائل هذا العلم فيقول : " ولهذا العلم فضائل
مشهورة، منها أن صاحب العربي إذا أخل بطلبه، وفرط في التماسه، ففانته فضيلته
وعلقت به رذيلة فوته، عفى على جميع محاسنه وعمى سائر فضائله... ثم قال :
وقبيح لعمرى بالعربي الصليب والقرشي الصريح ألا يعرف إعجاز كتاب الله إلا من
الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي، أو أن يستدل عليه بما استدل به الجاهل
الغبي"⁽³⁾.

(1) الشهاب محمود، حسن التوصل في صناعة الترسل، ص 80-81.

(2) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص 10.

(3) أبو هلال العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت 395هـ / 1004م): كتاب

الصناعتين الكتابة والشعر . تحقيق: مفيد ميجه، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984،

ص 10.

ويرى الشهاب محمود " أن من الامور الخاصة التي تزيد معرفتها قدرة ويزين العلم بها نظمه ونثره فإنها من المكملات لهذا الفن ، وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب، والطبع السليم، والقريحة المطاوعة، والفكرة المنقحة ، والبديهة المجيبة والرواية المتصرفة لكن العالم بها متمكن من أزمة المعاني يقول عن علم، ويتصرف عن معرفه، وينتقد بحجه، ويتخير بدليل ، ويستحسن ببرهان، ويصوغ الكلام بترتيب فمن ذلك علم المعاني البيان والبدیع والكتب المؤلفه في إ عجاز الكتاب العزيز المجيد"(1).

وقال القلقشندي: " اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سبل الفصاحة واقتفاء سنن البلاغة ، وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة، اضطر الكاتب إلى معرفتها ، والإحاطة بمقاصدها، ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب وإنشاء الجواب، جارياً في ذلك على قوانين اللغة في التركيب "(2). وهذا العلم وإن شحن به أئمة الكتاب كتبهم - فإنه ليس مختصاً بفن الكتابة، بل هو آله لكل كلام اقتضى البلاغة، كما أن المنطق آله لكل العلوم العقلية التي يحتاج فيها إلى تصحيح الفكر، وقد أكثر الناس من المصنفات فيه كالرّماني والجرجاني وغيرهما، وأكثر اعتماد أهل الزمان فيه على " تلخيص المفتاح" للقاضي جلال الدين القزويني(3).

وقد اختلف القدماء في تحديد صفة البلاغة فقال ابن المقفع، : " البلاغة اسم يجري في وجوه كثيرة منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطباً ... والإيجاز هو

(1) شهاب الدين محمود، حسن التوسل في صناعة التوسل، ص100.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص219، 220 نظر الخالدي، المقصد الرفيع المذ شأ الهادي لديوان الإنشاء، ص20.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص223-224.

البلاغة⁽¹⁾ وقال ابن المعتز : - "البلاغة هي البلوغ إلى المعنى، ولما يطل سفر الكلام"⁽²⁾.

السابع: حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم (ومخاطباتهم).

قال أبو جعفر النحاس : " وهي آكها يحتاج الكتاب إليه ⁽³⁾ وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة، ومجامع الحكم بها تفاخرت العرب في مشاهدتهم، وبها نطق الخلفاء والأمراء على منابرهم، بها يتميز الكلام ، وبها يخاطب الخاص والعام، وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب " ⁽⁴⁾.

إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزودج الكلام، أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون ع شره، لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه مشافهة الملوك، أو الحالات، أو الإ صلاح بين العشائر، أو خطبة النكاح، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد⁽⁵⁾.

وهناك سبب آخر لرفض النثر وقلة اعتنائهم به، بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرهم وبآديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة فإنه لم يتعاطها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المصاقع، فلذلك عز حفظها وقلّ عنهم نقلها⁽⁶⁾. ويشترط الشهاب محمود في كتابه حسن التوسل حيث يقول : " ويتصل بذلك حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم ومخاطبتهم، ومحاورتهم، ومكاتباتهم، وما ادعاه

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ/868م): البيان والتبيين. تحقيق: درويش جويدي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، 1999، ص79.

(2) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص92.

(3) النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (ت338هـ/949م): صناعة الكتاب. تحقيق:

بدر أحمد ضيف، ط1، دار العلوم العربية، بيروت، 1990، ص253.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص253.

(5) المرجع السابق، ج1، ص254.

(6) المصدر السابق، ص254.

كل منهم لنفسه أو لقومه وما ينقضه عليه خصمه، لما في ذلك من معرفة الوقائع بنظائرها وتلقي الحوادث بما شاكلها، واقتداء بطريقة من فلج على خصمه واق تفاء آثام من اضطر إلى عذر، أو إبطال دعوى، أو إثباتها، فلحن بحجته، وتخلص بلطف مما أخذه، ودقة مسلكه، وحسن عبارته⁽¹⁾.

الثامن: حفظ الأمثال:

إن الكاتب يحتاج إلى النظر في كتب الأمثال الواردة عند العرب، نشرّاً ونظماً، في الكتب المصنفة في ذلك، كأمثال الميداني، والمفضل بن سلمة الضبيّ وحمزة الأصبهاني، وغيرهم. وبذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم؛ وهذه الألفاظ الواردة في المثل دالة عليها بأخصر لفظ وأوجزه . ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المعروفة لما فهم من هذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطوّلات⁽²⁾ وقال ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد: "والأمثال هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني ، والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم ، وينهل كل زمان وعلى كل لسان ؛ فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة؛ لم يسر شيء مسيرها ولا عمّ عمومها، حتى قيل : " أسير من مثل " . وقال الشاعر:

ما أنت إلا المثل السائر⁽³⁾ يعرفه الجاهل والخابر⁽³⁾

وقال أبو الهلال العسكري : "... ثم إنني ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن كحاجته إلى الشاهد والمثل ، والشذرة والكلمة السائرة ، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً ، ويكسبه قبولاً، ويجعل له قدراً في النفوس، وحلاوة في الصدور؛ وإنما هو في الكلام كالتفصيل في العقد والتنوير في الر وض، والتسليم في البرقد. علم أن كل من لم يعن بها من الأدباء عناية تبلغه أقصى غاياتها ،

(1) الشهاب محمود، حسن التوصل في صناعة الترسل، ص81.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص346، 347.

(3) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، (ت328هـ/939م): العقد الفريد. تحقيق

محمد بن عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، بيروت، 1432هـ/2003م، ج3، ص5؛ القائل أبو تمام.

وأبعد نهاياتها كان منقوص الأدب غير تام الآلة فيه ولا موفور الحظ منه ...
 وضرب المثل جعله يسير في البلاد؛ من قولك ضرب في الأرض، إذا سار فيها ،
 ومنه سمّي المضارب مضارباً. ويقولون: الأمثال تحكى ؛ يعنون بذلك أنها تضرب
 على ما جاءت عن العرب ،ولا تغير صيغتها ،فتقول للرجل: " الصَّيْفُ ضَيَّعَتِ اللَّبَنَ "
 فتكسر التاء، لأنها حكاية " (1). وقال النّظام (2): " يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في
 غيره من الكلام : إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو
 نهاية البلاغة". ويرى ابن الأثير النوع الثالث معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة
 الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام (3) والشاهد في ذلك " معرفة أمثال
 العرب فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها، انقاد ت
 اليه معانيها، وسيقت اليه ألفاظها، في وقت الاحتياج الى نظائرها من الوقائع
 والأحوال، فأودعها في مكانها واستشهد بها في موضعها ، والطريق في استعمالها في
 كل فن في حل الأشعار واستعمالها؛ إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها، ولا
 تغيير أوضاعها لأنها بذلك قد عرفت واشتهرت (4).

التاسع: معرفة الحلال والحرام.

ونجد أول ما بدأ به عبد الحميد رسالته الى الكتاب طالباً منهم التفقه في الدين
 حيث يقول: "وتفقهوا في الدين وابدعوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض" (5).

(1) هلال العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت395هـ / 1004م): جمهرة
 الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة،
 1964، ج1، 4، 5، 7.

(2) النظام: إبراهيم بن سيار، (ت231هـ / 845) تلميذ أبي الهذيل العلاف، متكلم معتزلي، نشأ
 في البصرة، وأقام في بغداد، منطقي وشاعر، ترك أثراً كبيراً في تاريخ الفكر الإسلامي
 معلم الجاحظ. عارض الفقهاء وانتقد الجبرية والمرجئة، إليه تنسب النظامية من فرق
 المعتزلة. (المنجد في الأعلام).

(3) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص50، 51

(4) القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص353، 354.

(5) الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص75

ويرى ابن الصيرفي " أنه يجب على الكاتب أن يكون لديه شيء من معرفة الحلال والحرام واجداً له متى دفع إلى أن يسأل عنه " (1).

وليس غريباً أن يجعل ابن الصيرفي معرفة الحلال والحرام واجباً على الكاتب، فقد كان الفقه جزءاً من ثقافته (2).

العاشر: إتقان الخط

ونرى عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكاتب يأمرهم بـ " لجادة الخط حيث يقول: " ثم أجدوا الخط فإنه حلية كتبكم " (3).

وهذا ابن الصيرفي يشترط على الكاتب " ألا يتوجه عليه لحن في الخط " (4). أما ابن شيث فجده يخصص باباً منفرداً في كتابه " معالم الكتابة ومغانم الإصابة " حديث عن الخط وحروفه وبري القلم و إمساكه مما لا يستغني الكاتب عنه " (5).

والغريب أن الشهاب محمود لم يهتم بالخط ولم يجعله شرطاً على من أراد مزاوله الكتابة، ووجه الاستغراب تتأتى من عدة أمور:-

أولها: أن الشهاب محمود الحلبي كان له إلمام بمعرفة خطوط الكتاب (6) وقد كتب المنسوب ونسخ الكثير (7) وكان له إجادة نظر في معرفة الخطوط، ذكر ذلك تلميذه العمري (8).

ثانيها: إن هذا العصر كان يعطي الخط اهتماماً كبيراً.

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص11

(2) الجويني، مصطفى الصاوي، ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية في القرن السابع الهجري، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1390هـ/1970م، ص306.

(3) الجهشيري، الوزراء والكتاب، ص75.

(4) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص12.

(5) ابن شيث، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص40.

(6) ابن شاعر، فوات الوفيات ج4، ص82.

(7) ابن حجر، الدرر، ج4، ص324.

(8) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت749هـ/1348م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مكتبة السلیمانية، استانبول، 1408هـ/1988م، ج12، ص303.

لقد وضع كل من عبد الحميد الكاتب وابن قتيبة وابن الصيرفي، وابن شيث مجموعة من الأخلاق لا غنى للكاتب عنها، بل يجب أن يتصف بها.

فهذا عبد الحميد للكاتب يطلب في رسالته مخاطبا الكاتب "أن يكون حليما في موضع الحلم فقيها في موضع الحكم، مقداما في موضع الإقدام، ومحجما في موضع اللجأ، لينا في موضع اللين شديدا في موضع الشدة، مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف، مكتوما للأسرار وفيلوعند الشدائد، عالما بما يأتي ويذر، ويضع الأمور في مواضعها، نظري في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه شدا منه شدوا يكتفي به يكاد يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه"⁽¹⁾.

أما ابن قتيبة فإنه يرى أن الكاتب لابد له "أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه، ويصون مروءته"⁽²⁾ إلى أن يقول: "فمن تكاملت له للأدوات وأمدّه الله بآداب النفس من العفاف والحلم، والصبر والتواضع للحق وسكون الطائر، وخفض الجناح فهذا المتناهي في الفضل"⁽³⁾.

ويرى ابن الصيرفي أن الكاتب يجب أن يكون وقورا، حليما، مؤثرا الجدل على الهزل، محبا للشغل أكثر من محبته للفراغ كثير الأناة، والرفق، قليل العجلة و الخرق، نزر الضحك، وقور النادي، حسن اللقاء، لطيف الإجابة، شديد الذكاء، متوقدا لفهم حسن الكلام إذا حدّث بحسن الإصغاء إذا حدّث، سريع الرضا بطيء الغضب، رؤوفا بأهل الدين محبا لذوي العلم والأدب، راغبا في نفعهم، يهدي النصيحة للملك من غير أن يوجد فيما تقدم من رأيه فسادا أو نقصا.

ويكون من كتمان السر بالمنزلة التي لا يدانيه منه أحد⁽⁴⁾.

(1) الجهشاري، الوزراء والكتاب، ص 74، 75.

(2) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص 11.

(3) المصدر السابق، ص 16.

(4) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص 12، 13.

أما ابن شيث فإنه لا يرى الكاتب أن يلقب كاتباً إلا إذا تحلى بـ "التقوى
واسلاس النصيحة" ⁽¹⁾ ثم يطلب منه أن يتحلى بالأخلاق التالية ، غض البصر،
وكتمان السر، والأمانة، و تركيز النظر إلى المحدث ⁽²⁾.

وقد حذر هؤلاء؛ الكتاب من الأخلاق الذميمة، طالبين منهم تحاشيها و
الابتعاد عنها:

فهذا عبد الحميد الكاتب يحذر الكتاب في رسالته من "واربأوا بأنفسكم عن السعاية و
الذميمة و ما فيه أهل الدناءة والجهالة، وإياكم والكبر و العظمة، فإنها عداو ة مجتلبة
بغير إحنه" ⁽³⁾.

ويحذر ابن قتيبة الكتاب من ذميم الأخلاق التالية "يصون مروءته عن دناءة
الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ورفث المزح: كان رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - ولنا فيه أسوة حسنة - يمزح ولا يقول إلا حقاً " ⁽⁴⁾. فأما السباب وشتيم
السلف وذكر الأ عراض بكبير الفواحش فما لا نرضاه لخساس العبيد وصغار
الولدان ⁽⁵⁾.

كما حذر ابن شيث الكُ تَاب من الأخلاق التالية "تجنب الرشى، والتصنت إلى
من يصحبه ولا يناهب صاحبه الكلام ، وتجنب المزاح، ولا يزرى بأحد عند
صاحبه، ولا يفاجئ صاحبه بالشكر، وتجنب التعسف عن صاحب " ⁽⁶⁾.

بل نجد ابن شيث في كتابه معالم الكتابة قد جعل آداباً تتعلق بالتصرف منها:
ألا يخلل أسنانه في مجالس صاحبه ، ولا يتنخم ولا يشير بالتمخط أو بالتبصق
ولا يتشاءب ولا يأكل الأشياء التي تكره رائحة الفم.
وآداباً للملبس: منها ألا يتزوق بالملبوس الغريب وألا يخرج عن زيه.

⁽¹⁾ ابن شيث، معالم الكتابة معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص27.

⁽²⁾ المرجع السابق، ص28، 30، 31.

⁽³⁾ الجهشيارى، الوزراء و الكتاب، ص75.

⁽⁴⁾ ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص11.

⁽⁵⁾ المصدر السابق، ص12.

⁽⁶⁾ انظر ابن شيث، معالم الكتابة معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص28-31.

وآداباً للسان والكلام : منها تجنب الهرج والمناهة في الكلام، والنطق بالألفاظ المتحاشاه.

ثم يذكر ابن شيث آداب صناعة الكتابة، حيث يرى ابن شيث أن الكاتب لا بد له أن يتقن صناعة الكتابة وألا يشغل نفسه برونق الخط ، ولا بد أن يتدرب في معرفة الخطوط السقيمة والحروف الناقصة، وأن يكون ماهراً في قراءة الكتاب وأن يكون سريع الخاطر وأن يكثر من مطالعة التاريخ وأن يتأمل المعاني المطروحة يستفيد منها وأن يكون له تعليق يشمل نعوت الناس وأسماءهم⁽¹⁾.

الحادي عشر: آداب عشرة الملوك والعظماء

قال علي بن خلف نولا يقوم بآدابها وأكمل رسومها إلا من علت في الأدب درجته وسمت في راحة العقل منزلته، وتميز بغريزة فاضلة، وأدب مكتسب، وصبر على المشاق في التحلي بالهمم الشريفة والسمو إلى المنازل اللطيفة⁽²⁾.
لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحبه راكب خطر جسيم ، وأول ما يجب على المتصل بخدمة السلطان للنظر في عواقب أموره ، وحفظ نفسه من جريرة يجرها عليها بغفاله فرضاً من فروض طاعته ، وتضييعه المحافظة على حقوق خدمته للعلم بأن لكل مصحوب خلقاً يغلب عليه ويرجع بغريزة الطبع إليه ، فإن الملوك والرؤساء لا يقابلون بلوم على خلق ذميم بل جرت العادة في خدمتهم ، أن يصوبوا ما يركبونه من خطأ ، ويحسنوا ما يواقعونه من قبح، فعليه أن ينزل عن أخلاقه لأخلاق سلطانها، ينزل عن هواه لهواه ويتبع فيما يسخطه ويأباه ، ما يؤثره سلطانه ويرضاه لينبغي أن لا يعرض نفسه لما يسقط منزلته ويفسد عاقبته ، ولا يوجد للزمن طريقاً إلى التتكر له ثم يضيف قائلاً : ويلزمه بعد الاحتياط فيما تقدم عدة خصال منها:-

• الإخلاص وهو قوام الأمر في المصاحبه ، فإن من صحب سلطاناً بعقيدة مدخولة في ولايته، مشوبة في محبته، لم ينتظم له ولا لسلطانه أمر.

(1) ابن شيث، معالم الكتابة معالم الكتابة ومغانم الإصابة، ص 32-42.

(2) علي بن خلف، مواد البيان، ص

● النصيحة توهي ترب الإخلاص، والطريق الموصل إلى التوفية بها ، وأن يطالع السلطان بكل ما يفتقر إلى العلم به من خاص أموره وعامتها ، وعلى من استخلصه السلطان لنفسه وأتمنه على رعيته ، أن لا يستر عنه دقيقاً ولا جليلاً من أحوال ما فوضه إليه، لا يحمله فرط النصيح له على الإضرار برعيته، ولا الرغبة في إثبات حقه على تضییع حقوقها.

● ومنها الاجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بما يعود عليه نفعه بحيث لا يبقى في ذلك ممكناً

● ومنها كتمان السر : وهو أفضل الآداب في صحبة السلطان وغيره وأعوذها بالفلاح على صاحبها، على أن إفشاء السر من الأخلأ التي طبع أكثر الناس عليها ، وحيل بينهم وبين الإقلاع عنها . فمن علم في نفسه ذلك فليحذر معاملة السلطان في أسرارهِ وبواطن أموره.

● ومنها الشكر: وإن كان واجباً على الانسان مع أكفائه ونظرائه ، فإنه مع السلطان الذي يستظل بظله ويستأثر بخلفه أوجب . ولا يقدر على مكافأة سلطانه إلا بشكر نعمته، والمحافظة على حقوق خدمته⁽¹⁾.

● ومنها الوفاء: هو من أهم الخصال وأكدها ، إذ هو الطريق إلى صلاح العباد وعمارة البلاد بل هو رأس مال الكاتب وربحه ودوام عمله ، والسبب الذي لأجله ترغب السلاطين في صحبته ويكون الوفاء بإظهار النصيحة ، وبذل الاجتهاد وقصد المخالصة ومن الشروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه في حال سعادته وإقبال دولته، وفي حال توليها عنه وعطلته ، أما في حال إقبال الدولة عليه فأن يصحبه بقلبه دون بدنه ، ولا يتطلب صاحباً غيره ينتقل إلى صحبته وسيتبدل بخدمته من خدمته، ولا يحدث نفسه بأنه متى وجد أنفع منه عدل إليه.

وأما في حال انصراف الدولة عن صاحبه فإنه لا يباينه مباينة المساعد للزمان عليه، الموافق للمقادير عليه، ولا يخونه عند حاجته إليه، ولا يضيع حقوقه عنده وصنائعه لديه.

(1) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص106-109 بتصرف.

• ومنها مجانية الادلال إذ الدالة على السلطان والرئيس من أعظم مصارع الترف وأقرب الاشياء إلى زوال النعم ، ولأجلها هلك من هلك من بطانة السلطان وخاصته ووزرائه. وعليه أن يعول في الاعتداد بخدمه ونصائحه له على اشتهاها وظهورها ولا يفيض في تعديدها وذكرها ، ولا يواصل التثقل بأغراضه والالحاف بأسئلته، ولا يظهر التشعب عند التقصر به ولا الغضب اتكالاً على سالف خدمة ، وقليل حرمة وأن يتناسى ما أسلفه من الخدمة والصحبة ، فإن السلطان مجبول على أنفة النفس وعزتها.

• ومنها التمسك بآداب الخدمة والمواظبة عليها ، فصرف الاهتمام إليها ، إذ هي أعظم الذرائع إلى نيل الرتب وبلوغ المآرب ، والسبب الذي يقرب البعداء ويرفعهم على أهل الوسائل والحرم وما نال أحد عند السلطان م رتبة إلا والمواظبة على خدمته سببها والمواصلة موجبها ، وأولى الناس بلزوم السلطان كَتَّابه الذي لا غنى به عن حضورهم في ليله ونهاره وأبَّان شغله وفراغه . فيجب أن يخص سلطانه من زمانه بالقسم الأوفر، ولا يؤثر نيل لذة عليه.

• ومنها التمسك إذا حضر بين يدي سلطانه أو رئيسه في المجلس الخاص به أو العام أن يعتمد مقابلته بالإجلال والإحظام والتوقير والإكرام، ولا يحمله تأكيد الخدمة وتطول الصحبة على إهمال ذلك بل يحفظ رسمه، ولا يغير عاداته.

• ومنها أن يتخير لخطابه في الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلوصه فيها ، وفراغ باله وانشراح صدره إلا إن كان ما يخاطبه فيه أمراً عائداً بانتظام سلطانه واستقامة زمانه، داخلاً في مهمات أعماله التي متى أخرها نسب إلى التقصير، فيقدم الكلام فيها خفّ ثقلًا وإذا خاطبه رئيسه في أمر من الأمور فعليه أن يراعيه بعينه وينصت إليه سمعه، ويشغل به فكره، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتى يستوعب ما يلقيه إليه ويجيبه عنه أحسن الجواب ، ولا يلتفت في حال إقباله عليه إلى غيره، ولا يصغي إلى كلام متكلم ، ولا حديث متحدث ، فإن التقصير في ذلك مما ينكره الملوك والرؤساء ويستدلون به على ضعف المخاطب (1).

(1) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص109-112 بتصرف.

• ومنها أن يجري في الحال في مجا لسهلى ما يعود بوفائه وإرادته : فإن مال إلى الانبساط أطلق عنانه فيه إطلاق المتجنب للهجر (1) والفحش، ورفث القول (2) تابعا لإيثاره، قاضيا لأوطاره ، وإن أظهر الانقباض ذهب مذهبه في ذلك ولا ينبغي أن يخالفه في حال من أحواله.

• ومنها أن لا يحضر سلطانه في ملابسه التي جرت العادة أن ينفرد بها ، كالوشي ونحوه ؛ إلا أن يكون هو الذي يشرفه بها ، وأن يقتصد في لباسه، فينحط عما يلبسه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السوقة ، ويصرف عنايته الى التنظيف والتعطر ، وقطع الرائحة الكريهة من العرق وغيره في حال دونه منه ، ويواصل استعمال الطيب والبخور فإن الملوك ترى أن من أغفل تعهد نفسه كان لغيرها أشد إغفالا.

• ومنها أن يتجنب التفاحش والتعمق في مخاطبة رئيسه والافتخار عليه بالبلاغة والبيالها في ذلك من الترفع عليه في الكلام ، بل يجعل ما يلقيه إليه ضمن ألفاظ تدل على معانيها بسهولة مع غض من صوته، وخفض من طرفه، وسكون من أعضائه.

• ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وارتفعت رتبته لديه أن يجمل القول في خاصته وعامته ويحسن الوساطة لحاشيته ورعيته ، ويتجنب القدح عنده في أكفائه ونظرائه من بطانته والمقربين من حضرته ، ليكون ذلك داعيا إلى محبته والثناء عليه مكافأة له وإمساك الألسن عن الطعن فيه.

• ومنها أن يبادر إلى المشورة عليه بالصواب فيما يستشير فيه ، ويورده إيراد مستفيد لا مفيد ومتعلم لا معلم ، فإن من عادة الملوك والرؤساء الأنفة من الانقياد إلى ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة (3).

• ويعلي بن خلف أول من ألف في هذا الفن في مصر الفاطمية في كتابه "مواد البيان" حيث قنن فيه لفن الكتابة بوجه عام ولفن كتابة الإنشاء بوجه خاص، فهو يضع لقوانين ويقعد القواعد التي يجب أن تتبع عند كتابة كل نوع من أنواع

(1) الهجر: القبيح من الكلام. (اللسان 253/5).

(2) رفث في كلامه: أي أفحش (اللسان 154/2).

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص113-114.

الرسائل والوثائق. وقد عاش ابن خلف في النصف الأول من تاريخ الدولة الفاطمية، ثم كتب بعده ابن الصيرفي كتابه القيم "قانون ديوان الرسائل" فهو كاتب ومؤرخ فاطمي تولى الكتابة في ديوان الإنشاء الفاطمي ثم رئاسته وظل يشغل هذا المنصب قرابة نصف قرن من الزمان ، فقد أوضح ابن الصيرفي أن غرضه من هذا الكتاب أن يكون قانوناً يسترشد به العاملون بهذا الديوان، فقد اهتم فيه بذكر الشروط التي يجب أن تتوفر في موظفي هذا الديوان.

لقد بلغت الدول الإسلامية والدولة الفاطمية خاصة من الاتساع و الجاه ما تطلب قيام جهاز حكومي يتناسب و عظمة تلك الدولة ، فكان ديوان الإنشاء يضاف تارة إلى الوزارة ، والوزير هو الذي يتولى أحواله بنفسه وينفذ أموره بقلمه، وتاريخه عنه بكاتب ينظر في أمره ، ويكون الوزير هو الذي ينفذ أموره بكلامه ويصدقها بتوقيعه ؛ فكان صاحب ديوان الإنشاء يعتمد ما يرد عليه من ديوان الوزارة ويصرفها بتوقيعه.

والمعروف في مصر أنها بقيت جزءاً من الخلافة الإسلامية ، تأتمر بأمر ولاية يتلقون أوامره من الخليفة في دمشق أو بغداد إلى أن قامت الدولة الطولونية 292/254 هـ - 905/868م فكانت أول من أخذت ترتيب الملك وإقامة شعائر السلطنة في مصر.

وكان طبيعياً أن يعنى أحمد بن طولون بديوان الإنشاء بوصفه مظهراً لسيادته واستغلاله. وفي ذلك يقول القلقشندي أن أحمد بن طولون لما علا سلطانه وارتفع بها شأنه، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات. وظل الحال كذلك حتى قامت الدولة الفاطمية وهي دولة قامت على أساس الدعوى والرعاية الشيعيتين فوجه الفاطميون مزيد اهتمامهم وعنايتهم بديوان الإنشاء وكتابه، فارتفع بهم قدره وشاع في الآفاق ذكره وتولى رئاسته أفاضل الكتاب وبلغاؤهم ما بين مسلم وذمي ، وغتالى شؤونهم من أكابر وأرباب الأ قلام فينهضون ويعملون على بلوغه حد الكمال فقد بلغ هؤلاء الكتاب ذروة مجدهم إبان هذا العصر (الفاطمي). فقد أولاهم الخلفاء مزيداً من الرعاية والاهتمام وحاطوهم بهالة من التعظيم ، وذلك لأن الخلفاء الفاطميين كانوا شيعي المذهب فعملوا على

كسب الكتاب إلى جانبهم حتى يكونوا لهم سنداً يقوون به شوكتهم وينشرون مذهبهم فهم أيديهم الكاتبه وعقولهم المفكرة فلا أقل من غرس مذهبهم في عقول هؤلاء الكتاب وهم بدورهم سيقومون بنشر ذلك المذهب والترويج له وإشاعته بين الناس. فكان ديوان الإنشاء جهازاً إدارياً حكومياً ، وجميع مراسلاته وأعماله متصله بالسلطان الحاكم ويعتبر كل ما يصدر عنه تعبيراً عن السياسة العامة التي تنتهجها الدولة.

فكان ديوان الإنشاء أشبه اليوم بأمين رئاسة الدولة في العصر الحديث التي تمثل الجهاز الذي يشرف على كل الشؤون الخارجية من علاقات ثقافية ودبلوماسية وعسكرية ومراسلات.....الخ.

إذن فصاحب الديوان يتمتع بمركز قيادي خطر في الدولة . فكان يراعي في اختياره مواصفات محددة وهامة وله صفات لا بد أن يتحلى بها لأنه يعبر عن سياسة الدولة تجاه القوى والبلاد الأخرى.

تبارى الكتاب في العصر الفاطمي بوضع شروط وصفات لكتاب الديوان ، كانت لأهميتها وعظمتها أشبه بالدستور الذي سار عليه الكتاب في العصر بين العصريين الأيوبي والمملوكي.

لذا نستطيع القول إن ديوان الإنشاء الأيوبي والمملوكي كان امتداداً لديوان الإنشاء في العصر الفاطمي ، وساروا على النهج الذي رسمه الكتاب في العصر الفاطمي.

الفصل الثالث

الجهود الكتابية لديوان الإنشاء وما صدر عنه من مكاتبات

1.3 الجهود الكتابية لديوان الإنشاء:

إن الكتابة تسير حياة الأمم في حضارتها وهي صورة للدول ومرآة لميول أفرادها تسير من حيث الأغراض في اتجاهين أساسيين: أولها: فردي يرتبط بمقاصد الأشخاص وميولهم. الثاني: اجتماعي يتصل بالدولة وبالشؤون العامة للمجتمع. فأما الفردي فإنه يتجلى في الرسائل الإخوانية في شتى الأغراض وفي ميول الكتّاب إلى إظهار مواهبهم البيانية ومقدرتهم في مناحي البلاغة والإبانة عن خلجات نفوسهم وما تتطلبه حياتهم.

أما الاجتماعي فإنه يرجع إلى ما تحتاج إليه الدولة في إدارتها ونظامها وما تتطلبه قيادة الشعوب وتوجيهها من إرشاد إلى ما ينهض بالحياة ومرافقها. فالكتابة إذن أداة الدولة وعون للأفراد وموضوعاتها ترتبط بالفرد وميوله وأغراضه ووجدانه بالمجتمع ونظامه وشؤونه⁽¹⁾.

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلي الوزارة في الرتبة، وكان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معاونة لجة الأمور، فإذا حاز صاحبها رضى الخليفة رشّحه للوزارة في أي وقت⁽²⁾.

وعندما تولى الفاطميون أمر مصر، نهضت الكتابة فيها قوية مزدهرة، تضاعفت هذه النهضة في العصر الفاطمي بما عمل الفاطميون على النهوض أولاً بدور العلم، وإذكاء شعلته في البلاد، حتى كان للحركة العلمية أثر قوي في تيار الفكر الإسلامي عامة وفي مصر الفاطمية على وجه الخصوص، ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفاطمية بنهضة أدبية كان لها أثرها القوي في ازدهار الشعر وازدهار

(1) عبد الحميد حسن، صفحات من الأدب المصري من العصر الفاطمي إلى النهضة الحديثة، ص12.

(2) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص280.

الكتابة مع فقد عني الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء، ولا نغالي إذا قلنا إن
عناية الفاطميين بالكتاب كانت أشد من عنايتهم بالشعراء⁽¹⁾، وسبب ذلك لاتساع
ملكهم وتشعب نواحي حياتهم وسلطانهم اضطرتهم إلى أن يوجهوا همّهم إلى العناية
بالدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم.

كما أن التشريف الذي جعله الفاطميون لكتاب دولتهم، كان من أهم عوامل
ازدهار الكتابة في هذا العصر، كما كان الإغداق على الكتاب من أسباب كثرتهم،
واقبال الناس على التعليم وإجادة الكتابة ؛ ليصلوا إلى مرتبة الكتابة في الدواوين،
فكثر عدد الكتاب ، وأصبح على المتأدّب أن يأخذ من الكتاب طرائقهم وفنهم، ويحدثنا
القاضي الفاضل أنه كان من عادة أرباب الدواوين في تربية أبنائهم أنهم كانوا
يرسلون هؤلاء الأولاد إلى ديوان المكاتبات ليتعلموا فن الكتابة . "كان فن الكتابة
بمصر في زمن بني عبيد غصّاً طريّاً، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس
يرأس مكانا وبيانا ويقوم لسلطانه بقلمه سلطانا ، فكان من العادة كلا من أرباب
والذين إذا أنشأ له ولد، وشدا شيئا من علم الأدب ، أحضره إلى ديوان المكاتبات
ليتعلّم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع، فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضيا بثغر
عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ ، وأمرني بالمسير إلى ديوان المكاتبات،
وكان يرأسه في ذلك الوقت ابن الخلال، وعندما مثلت بين يديه وعرضّ فته من أنا، وما
طلبي رحّب بي وسهّل ، ثم قالها: الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت : ليس
عندي شيء سوى أنني أحفظ القرآن العزيز، وكتاب المحاسن، فقال : وفي هذا بلاغ،
ثم أمرني بملازمته، فترددت عليه وتدرّبت بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن أحل
شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته⁽²⁾.

ونفهم هنالك النص مدى تعلق الناس وحبهم في تعليم أبنائهم فن الكتابة فقد كان
حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عُدّة الكاتب في هذا العصر، فقد رأينا ابن
الخلال يطلب من تلميذ ذه القاضي الفاضل أن ينثر الأشعار من ديوان الحماسة تهيئة
له للدخول في سلك الكتاب ولا تكفي ملكة الكتابة لأن تجعل الإنسان كاتباً ، بل لا بد

(1) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص308، 309.

(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص192.

له من آلات أخرجهما عبر عنها ابن الخلال بـ "ومن هذه الآلات : علوم العربية، حتى يتسنى للكاتب أن يسير على منهج الأساليب العربية فلا يقع في لغوي أو نحوي، وبلغ من حرص الفاطميين جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين لمراجعة ما كان يحرره الكتاب، حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء، وهذا الحرص على سلامة أساليب الكتابة كان من العوامل التي جعلت الكتاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصة متفقة مع الأساليب العربية.

"ومن عوامل ازدهار الكتابة في العصر الفاطمي، أن وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمي كانوا من الكتاب، فكانوا يعملون في الدواوين قبل اختيارهم للوزارة، فاللحي، والجرجرائي، وبلبلي، وبنو المغربي، وابن المدبر، وابن الأنباري.... الخ كانوا من الكتاب وقد بلغوا مرتبة الوزارة، حتى أن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدولة الأولى كانوا من أصحاب الأقلام . وأن وزراء الدور الثاني من أصحاب السيوف.

ولا يعني ذلك أن الكتابة ضعفت في الدور الثاني، إذ أن الكتاب أصبحوا في مكانة لا تقل عن مكانتهم الأولى، بل ظل الكتاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذي كانوا فيه في الدور الأول، ومنهم من كان جُلساء الإمام وحُجابه، وأصحاب مظلاتهم ومنهم من كان القضاة والدعاة هذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة . فالكتاب طوال العصر الفاطمي كانت لهم مكانة متميزة، والعطايا الجزيلة فلا غرابة إذاً أن يقبل الناس على الكتابة وأن تزدهر في هذا العصر"⁽¹⁾.

أُضِفَ إلى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمي كان من أشدّ العوامل على ازدهار الكتابة، فإن الفاطميين كانوا يسجلون كل دقيقة وعظيمة في سجل يخرج من الديوان، فتعيين الوزراء أو الكتاب أو القضاة أو الدعاة وغيرهم من أرباب وظائف الدولة وكان يخرج به سجل مطول، فيه الحض على تقوى الله وطاعة الإمام، والتمسك بأهداب الدين الحنيف، ثم الإشارة إلى المنصب الذي سيُعين فيه الموظف، يوظفه ذلك المنصب من عمل، إلى غير ذلك من ترغيب في المنصب ومشورة في تصريف العمل، وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج

(1) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص 311، 312.

السجلّ بذلك. وفي أعيادهم ومآتهم كانت تصدر هذه السجلّات أيضا، حتى أصبحت هذه السجلّات تاريخا للعصر الفاطمي كله. وكان الكتاب يَتَقَنَّون في إظهار مقدرتهم وكفايتهم في صياغة هذه السجلّات، ويتنافسون في هذا الفن، فجاءت هذه السجلّات الفاطمية صورا رائعة من صور الكتابة العربية التي تمثل العصر الفاطمي أصدق تمثيل⁽¹⁾.

ومن ذلك نستطيع أن ندرك كيف ازدهرت الكتابة في العصر الفاطمي، وكيف أقبل المتعلّمون على أن يلمّوا بفن الكتابة، حتى أصبحوا كتابا في دواوين الفاطميين. وأن ينالوا ما ناله الكتاب من تكريم وتقريب ونعم.

"ومهما يكن من شيء فإن الكتابة في العصر الفاطمي، قد ازدهرت بازدهار الحياة المصرية في ذلك العصر، ولشدة إقبال الناس على التماس العلم والنهل من منابعه التي كثرت وتعددت ألوانها وفنونها تطورت الكتابة يتبع دائما الحياة العلمية، فإذا ارتقت العلوم تبعها رقي في الكتابة وإذا انحطت العلوم انحطت الكتابة"⁽²⁾.

أما عن ديوان الإنشاء وكتابه فإن تأسيسه يعود في مصر إلى أيام أو عهد أحمد بن طولون، أول من ولي هذا الديوان أحمد بن محمد بن مودود المعروف ابن عبدكان الكاتب، وقد استمر تلاميذ ابن عبدكان يعملون في دواوين الطولونيين والإخشيديين فلزدهرت الكتابة في مصر على أيديهم ثم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة في مصر⁽³⁾.

ولكن حينما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد اهتمامهم بديوان الإنشاء ووجهوا إليه رعايتهم، واتخذوه وسيلة لرفعة قدرهم، ونشر ذكرهم في الآفاق، ذلك أن كتابه يشيدون بمجدهم فيما يكتبون من رسائل وغيرها فينمّون في قلوب الشعب إجلالهم وتقديسهم كما ينشرون اسمهم محاطا بهالة من التعظيم في أنحاء العالم⁽⁴⁾.

(1) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص312.

(2) أحمد عطا الله، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، ص271.

(3) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص308.

(4) أحمد أحمد بدوي، في الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص332.

كما ارتفع بهم قدره وشاع في الآفاق ذكره، وولي ديوان الإنشاء منهم من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي⁽¹⁾.

فقد كان ديوان الإنشاء يشبه وزارة الخارجية في وقتنا هذا، فمنه تصدر المراسلات الرسمية الخارجية لحكام مصر إلى غيرهم من الحكام المسلمين وغير المسلمين، ويشرف رئيسه على المفاوضات المتعلّقة بأمور داخلية أو خارجية ثم يسجلها، كما يسجل المعاهدات والمهادنات بين حكام مصر وغيرهم . وديوان الإنشاء منسق للإدارة الداخلية ؛ لأن جميع المراسلات ترد عليه من مختلف نواحي الدولة فيقرأها رئيسه أو مساعدوه ويوزعون نسخا عنها إلى جميع الجهات المختصة، بعد إيداع النسخ الأصلية في أماكن حفظها الخاصة⁽²⁾.

وإضافة إلى هذه المسؤوليات فإن ديوان الإنشاء يتولى أهم ناحية إدارية في الدولة وهي الإشراف على العيون والرسل ويقع ضمن هذه المسؤوليات تدريب الرسل ومراقبتهم وبتّ العيون داخل مصر وخارجها والإطلاع على جميع التقارير الواردة على الديوان، بالإضافة إلى مراقبة البريد وما يتعلق به من تدريب للعاملين فيه، ومراقبة أبراج حمام الزاجل، والإشراف على العاملين في الأبراج⁽³⁾. ويساعد رئيس ديوان الإنشاء المعروف بصاحب الدست، سبعة من الكتاب، يقوم كل منهم بالكتابة نوع معين من المراسلات والوثائق.

الكاتب الأول: ينشئ ما يكتب من المكاتبات والولايات، وهو أعلى الكتاب مكانة وهذا الكاتب يسجل العهود والتقاليد في الولايات، والكتب في الحوادث ذات الشأن والمناسبات العظيمة التي تقرأ فيها الكتب على المنابر.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص130.

(2) هادية دجاني شكيل، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (526-596هـ/1199-1131م) دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1993، ص55.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص149، 151، 153.

الكاتب الثانفيهو كاتب المراسلات بين حاكم مصر وغير ره من الحكام، ولذلك يتطلب منه أن يكون على دين الحاكم، لما يحتاج إليه من مجادلة ودفاع عن الدين أمام غيره من الحكام.

الكاتب الثالث: مختص بالكتابات المتعلقة بأمر الدولة الداخلية، إذ يكتب عن رجال الدولة من ولاة وقضاة ومشارفين وغيرهم، كما ينشئ تقاليد الموظفين الصغار والأمانات، وكتب الأيمان والقسمات.

الكاتب الرابع: يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ ويجب أن يكون هذا الكاتب مأموناً كتوماً للسرّ، مأمون الوقوع من الخطأ واللحن وحسن الخط.

الكاتب الخامس: يبيّض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلى حسن الخط، كالعهود والبيعات ونحوها.

الكاتب السادس: يتصفح ما يكتب في الديوان من إنشاءات وتقليدات ومكاتبات وغيرها.

الكاتب السابع: كتابة التذاكر والدفاتر لمتعلقات الديوان، ومن جملة أعماله إعداد فهرس للكتب الصادرة والواردة على الديوان، بحسب السنة والشهر واليوم، وإعداد فهرس للإنشاءات والتقاليد والأمانات والمناشير وغيرها بحسب شهور السنة، وإعداد فهرس لترجمة ما يترجم من الرسائل الواردة على الديوان باللغات الأجنبية. وكان هناك بالإضافة إلى هؤلاء الكتاب، عدد من النساخ والنقاشين والخزان للمكاتبات⁽¹⁾.

2.3 المخاطبات الإعلامية:

ويمكن تقسيم صدر عن ديوان الإنشاء في هذا العصر إلى مذ اطببات إعلامية وعلى كتابات إدارية وسياسية واقتصادية ونبدأ بالمخاطبات الإعلامية التي تجلت في:

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص165-168.

1.2.3 المناشير:

ومفردها منشور وهو كل وثيقة أو مكتوب لا تحتاج إلى ختم، أي هي منشورة غير مطوية، وذكر ابن الصيرفي أن المنشور ما لا عنوان له ⁽¹⁾، ورغم أن الفاطميين قد أطلقوا على جميع وثائقهم الرسمية لفظاً عاماً هو "السجل" إلا أن بعض التقاليد كان يطلق عليها ألفاظاً أخرى من بينها "المنشور" ⁽²⁾ مثل المناشير التي أوردها القلقشندي، وأحدها خاص بمشاركة الموارد الحشرية.

والمنشور في أصل اللغة خلاف المطوي ومنه قوله تعالى : ﴿وَكِتَابٌ مَّسْطُورٌ﴾ ⁽³⁾ ومن خاصية المناشير كما يخبرنا القلقشندي أنها لا تكتب إلا عن السلطان، مشمولة بخطه ⁽⁴⁾.

ويرى ابن فضل العمري أن المناشير من الرسائل التي تصدر عن ديوان الإنشاء إلا أن لها خصوصية تميزها عن غيرها فهي مختصرة ولا تحوي وصايا ⁽⁵⁾. ويطلق أحياناً على السجل لفظ "منشور" إذا كان سيقراً على رؤوس الأشهاد ويطلق عليه في هذه الحالة "السجل المنشور" ⁽⁶⁾.

وقد اصطلح كتاب العصر المملوكي على تسمية جميع ما يكتب في الإقطاعات من عاليها ودانيها للأفراد، والجنود، والعربان، والتركمان، وغيرهم مناشير ⁽⁷⁾. ومن أشهر المناشير، المنشور الذي أصدره المأمون البطائحي وزير الأمر بتنظيم الموارد الحشرية وإعادتها حسب فقه الشيعة ومفهومهم . والمواريث

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص19.

(2) المرجع السابق، ص16.

(3) سورة الطور، الآيتان 2-3.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص162.

(5) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص117.

(6) ابن المأمون (الأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي، ت588هـ/1192م، أخبار مصر، نصوص من)، تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة، المعهد

العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1983، ص17، 19.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص162.

الحشرية هي مال من يموت ولا وارث له بسم الله الرحمن الرحيم : خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السيد الأجلّ المأمون أمير الجيوش ونعوته والدعاء - وهو الخالصة أفعاله في حياة المسلمين، وذو المقاصد المعروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والدين..... الخ⁽¹⁾.

ثم أمر الخليفة الأمر بأحكام الله بإنشاء منشور يتلى، وهو موجّه إلى كافة الأمراء وسائر الولاة وجميع النواب والمستخدمين وسائر الكتّاب بجميع الأعمال، وكتابه هو أبو الحسن علي بن أبي أسامة ومضمونه:

"خرج أمر أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين بإنشاء هذا المنشور -:

بأن يعتمد في ديوان التحقّيق والمجلس، وسائر دواوين الدولة -قاصيها ودانيها، قريبتها ونائيها - إمضاء ما كان السيد الأجلّ الأفضل - (والدعاء) - قرره، وخرجت به توقيعاته، الثابتة عليها علاماته، في الأحكام والأموال، بتصاريه الأحوال، إذ أمير المؤمنين راض بأفعاله، متحقق لأقواله، حامد لمقاصده ماضٍ لأحكامه، عارف بسداد رأيه في نقضه وإبرامه على أوضاعها وأحكامها، وتقريراته في كل منها.

فليحذر كافة الأمراء وسائر الولاة نصرهم الله وأظفرهم - وجميع النواب والمستخدمين، وسائر الكتّاب ولمتصرفين بجميع الأعمال، من تأوّل فيه، وتعقب تغيير شيئاً من أحكامها، على ما قرره وأمر به"⁽²⁾.

والمناسبة التي كانت وراء إصدار هذا المنشور هو أن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي ولي الوزارة بعد موت أبيه في سنة 487هـ/1094م للخليفة المستنصر، وبعد موته نحى بله الأكبر نزاراً، ولي الخلافة الابن الأصغر أحمد، ولقبه بالمستعلي بالله، ثم طوّز ليلاً في أيام الأمر بأحكام الله بن المستعلي، وفي كل هذه العهود كانت السلطة الفعلية كلها في يد الأفضل شاهنشاه، وكان هؤلاء الخلفاء الثلاثة كالمحجور عليهم إلى أن قتل الأفضل أخيراً ليلة عيد الفطر سنة

(1) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص89-92.

(2) المرجع السابق، ص120.

515هـ/1121م ويقال إنَّ الأفضل قُتِلَ بتحريض من الخليفة الآمر، فقد روى ابن تغري بردي في حوادث سنة 513هـ/1119م: أن الخلاف اشتد بين الآمر وبين مدير مملكته الأفضل ابن أمير الجيوش "واحتجب الآمر عنه وتعلل بالمرض واجتهد الأفضل أن يغتاله بالسّم فلم يقدر، ودس إليه السّم مرارا فلم يصل إليه" (1)، "فلما ملك الأفضل سار على سيرة أبيه مع الخلفاء من الحجر والتضييق عليهم، وزاد الأفضل هذا في حق الآمر حتى أنه منعه من شهواته، وأراد قتله بالسّم، فحمّله ذلك على قتله، واتفق الأمر مع جماعة، وكان الأفضل يسكن بمصر، فلما ركب في غير موكب وثبوا عليه وقتلوه في سلخ رمضان (2).

وكان من الطبعي أن يتنفّس الموظفون الصعداء بعد أن رفعت عنهم يد الأفضل القوية؛ وأن يحاولوا تغيير بعض أوامره مما يعرض الدولة وشؤونها المالية بوجه خاص - للاضطراب والفوضى؛ لهذا سارع الأمر بإصدار هذا المنشور. ومن الأمثلة على المناشير:

منشور أصدره المأمون البطّاحي وزير الأمر بتنظيم الموارِيث الحشرية
واعادتها حسب فقه الشيعة ومفهومهم . والموارِيث الحشرية هي مال من يموت ولا وارث له:

بسم الله الرحمن الرحيم خُزِج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذه المنشور ع ندما طالعه السيد الأجل المأمون أمير الجيوش - ونعوته والدعاء - وهو الخالصة أفعاله في حياة المسلمين، وذو المقاصد المعروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والدين، والهمة الموقوفة على الترقى إلى درجات المتقين، والعزائم الكافلة بتشديد أحوال الكافة أجمعين، شيمة خصه الله بفضيلتها، جبلة أسعد بجلالها وشريف مراتبها، والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة، وأنحاء الميامين كافلة ضامنة، من أمر الموارِيث وجوؤها عليه الحكام الدراجون بتغاير نظرهم، وقرروه من تغيير عما كان يعهد بتغلب آرائهم، وما دخل عليها منهم من الفساد، والخروج بها عن المعهود المعتاد؛ وهو أن لكل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص218.

(2) المصدر السابق، ص222

واعتقاداتهم تحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته، فيخلص لحرم ذوي التشيع الوارثات جميع موروثهم وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، أن الله بكل شيء عليم⁽¹⁾. ويحمل من سواه من على مذاهب مخلفيهم، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لهم من بعدهم، عدولاً عن محجة الدولة، وخروجاً عما جاء به العباد من الأئمة الذين نزل في بيتهم الكتاب والحكمة؛ فهم قراء القرآن وموضحو غوامضه ومشكلاته بأوضح البيان واليهم سلم المؤمنون، وعلى هديهم وارشادهم يعول الموقنون.

فلم يرض أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك على قاعدة واهية الأصول، بعيدة من التحقيق خالية من المحصول ولم يلا الإعود فيه إلى عادة آبائه المطهرين وأسلافه العلماء المهديين، صلوات الله عليهم أجمعين، وخرج أمره إلى السيد الأجل المأمون بالايجاز إلى القاضي ثقة الملك النائب في الحكم عنه، بتحذيره، والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر وسائر الأعمال دانيها وقاصيها، قريبتها وفائمين الاستمرار على تلك السنة المتجددة، ورفض تلك القوا انين التي كانت معتمدة، واستئناف العمل في ذلك بما يراه الأئمة المطهرة وأسلافه الكرام البررة، واعادة جميع مواريث الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم إلى المعهود من رأي الدولة فيها، والافراج عنها برمتها لمستحقها من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها، وأن يضربوا عما تقدم صفحاً ويطووا دونه كشفاً منذ تاريخ هذا التوقيع وفيما يأتي بعده مستمراً غير مستدرك لما فات ومضى، ولا متعصب لما ذهب وانقضى.

وليوف الأجل المأمون، عضد الله به الدين، بإمتثال هذا المأمور، والاعتماد على مضمون هذا المسطور، وليحذر كلاً من القضاة والنواب والمستخدمين في الباب وسائر الاعمال من اعتراض موجود أحد ممن يسقط بالوفاء، وله وارث بالغ رشيد حاضر أو غائب، ذكراً كان أو أنثى، من سائر الناس على اختلاف الأديان، بشيء من التأولات، أو تعقب ورثته بنوع من أنواع التعقبات، إلا ما أوجبه بينهم

(1) سورة الأنفال: الآية 75.

المحاكمات والقوانين الشرعيات الواجبات، نظراً إلى مصالح الكافة، ومداً لجناح العاطفة عليهم والرأفة، ومضاعفة للأنام وابانة عن شريف القصد إليهم والاهتمام، فأما من يموت حشراً ولا وارث له حاضر ولا غائب، فموجوده لبيت المال بأجمعه على الأوضاع والقوانين المعلومة القويمة، لا ما يستدقه خرج⁽¹⁾، إن كان له، أو دين عليه يثبت في جهته، وإن سقط متوفي وله وارث غائب فليحفظ الحكام والمستخدمون على تركته احتياطاً حكماً وقانوناً شرعياً مصوناً من الاصطلام، محروساً من التقريط والاخترام، فإن حضر و ثبت استحقاقه ذلك في مجلس الدكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتباب طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد بقيضه عليه.

وكذلك نمي إلى حضرة أمير المؤمنين أشهود الحكم بالباب وجميع الأعمال ، إذا شارف أحد منهم بيع شيء مما يجري في الموارث من الترك التي يتولاها الحكام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع، فيعود ذلك بالنقيصة في أموال الأيتام والتعرض إلى الممنوع الحرام، اصطلاحاً استمروا على فعله، واعتماداً لم يجر الأمر فيه على حكمه، فكرر ذلك وأنكره واستقطعه وأكبره، واقتضى حسن نظره في الفريقين ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام، وتعويض من يباشر ذلك من الشهود جأريقام لكل منهم من الأنعام، وأمر بوضع هذا الأثر وتعويضه، وإبطاله وحسم مادته، فليعتمد القاضي ثقة الملك ذلك بالباب، وليصدر الأعلام إلى سائر النواب، سلوكاً لحجة الدين وعملاً بأعمال الفائزين السعداء المتقين، بعد تلاوة هذا التوقيع في المسجدين الجامعين بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد، ليتساوى في معرفة مضمونه كل قريب وبعيد وحاضر وباد، ولتفرغ منه النسخ إلى جميع النواب عنه في الأعمال، وليخلد في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الأمري، وحيث يثبت مثله أن شاء الله تعالى إلى حجة مودعة في اليوم وما بعده، وكتب لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسائة⁽²⁾.

(1) الخرج: هو المال المستحق لأحدى الجهات الحكومية من خراج أو ضريبة.

(2) المقريري، اتعاط الحنفا في أبار الأئمة الفاطميين الحنفا، ج3، ص89-92.

2.2.3 التوقيعات:

جمع توقيع وله عدة معانٍ في اللغة، منها يأتي بمعنى الإصابة وخفة التأثير⁽¹⁾، ويأتي بمعنى أن يصيب المطر بعض الأرض ويخطئ بعضها⁽²⁾. وعرف ابن خلدون التوقيع عات "هو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه"⁽³⁾. وهو يتفق مع ما كان شائعاً في اصطلاح الأقدمين من أنه اسم لما يكتب في حواشي القصص كخط الخليفة أو الوزير أو خط كاتب السر، ثم غلب حتى صار علماً على نوع خاص مما يكتب في الولايات وغيرها⁽⁴⁾ فالتوقيعات هي عبارات فصيحة بليغة، ترتبط بالواقع المعيش، ولها من المكانة بين فنون الأدب حق التفرد والامتياز وهذا راجع إلى أصالتها واعتمادها على الإيجاز الذي هو أساس البلاغة العربية.

ويرى محمد الدروبي أن العصر العباسي هو عصر ازدهار التوقيعات العربية وقد ازدهرت هذه التوقيعات بسبب ازدياد العنصر الفارسي في الدولة العباسية، حيث طوروا هذه التوقيعات، ولم يقتصر أثرهم عند المناحي الموضوعية في التوقيعات بل تعداه للمناحي الأسلوبية، وعدلوا عن الإيجاز إلى الإطناب فيها، حيث نظموا لها هيئة إدارية خاصة سميت "ديوان التوقيع" يعمل فيه أمهر الكتاب حيث يوقعون على الكتب الواردة على أبواب الخلفاء⁽⁵⁾، حتى أصبح التوقيع من

(1) ابن منظور، المصري، لسان العرب، مادة وقع.

(2) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة وقع.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ص247.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص114.

(5) محمد محمود الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الفكر، عمان، 1999، ص65.

المناصب الخطيرة لأرباب القلم وفيه إشارة لمقولة علي بن خلف صاحب "مواد البيان" حين اعتبر صاحب التوقيع "يد السلطان ولسانه"⁽¹⁾.

وبذا فالتوقيع ينظم على رد موجز يضع الأمور في نصابها الصحيح، إذ يتوخى الإصابة من هذه الجهة، كما يترك أثرا من الجهة الأخرى من صاحب الرسالة الموقع عليه سواء أكان هذا التأثير خفيفا أم شديدا، سلبيا أم إيجابيا، فالمهم أن صاحب الرسالة يناله أثر جرّاء التوقيع، مع إغضاء الطرف عن طبيعة هذا الأثر وتبعاته⁽²⁾.

والطريقة التي كانت يتبعها الخليفة الفاطمي للتوقيع على القصص وكتابة علامته عليها وتتص على أن علامة الخلفاء الفاطميين جميعا كانت : "الحمد لله رب العالمين" ؛ وكان الخليفة إنزفعت إليه القصة وقّع عليها : "يعتمد ذلك إن شاء الله تعالى" ويوقع في الجانب الأيمن منها عليها : "يوقع بذلك"، فيخرج إلى صاحب ديوان المجلس فيوقع عليها جليلا، ويخلى مكان العلامة فيعلم عليها الخليفة وتثبت؛ وكانت علامتهم أبدا "الحمد لله رب العالمين"⁽³⁾.

وقد يكون التوقيع للتركية، أو للمناقشة، أو لإبداء الرأي والاقتراح، أو للاعتراض. ويبدو أن التقاليد المتبعة - على الأقل في النصف الثاني من العصر الفاطمي - كانت توجب أن يوقع الخليفة بخطه على التقليد الصادر بتعيين الوزير بكلمات فيها التأييد لوزيره والإشادة بفضله كما هو واضح في هذا التوقيع - . المفروض أنه الخليفة الفائز، ولكنه في الحقيقة ابن الخلال كما يرى الدكتور جمال الدين الشيال حيث يقول وأرجح أن هذا التوقيع كتب للفائز فقد كان عمره حينذاك في الخامسة من عمره⁽⁴⁾.

(1) علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تحقيق : حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفتح، طرابلس، 1982، ص74.

(2) محمد الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص68.

(3) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص245.

(4) جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، 2002م، ص169.

قال القاضي النعمان: أمرني الإمام المعز لدين الله بالجواب عن مسائل وردت عليّ من بعض النواحي، بعد أن طالعت في ذلك منسوباً إليه . فكتبت الجواب عنها ورفعته إليه ليتصفحه فيكون ما ارتضاه منه منسوباً إليه ومروياً عنه، كما صححت كذلك ما كنت رويته عن آبائه، واستأذنته في أن يكون ذلك مروياً عنه، في رقعة ذكرت ذلك فيها ورفعتها إليه.

فوقع بخطه إليّ في ظهرها: يا نعمانُ أنفذ هذا الجواب فقد أحسنت فيه، أحسن الله إليك، وأعانك على ما أخذت به نفسك من ابتغاء رضى الله ربك ورضانا عنك، وختم لك بالسعادة في دينك ودنياك، فقد أتيت بالجواب على ما يجب⁽¹⁾.

كتب جوذر عن نفسه رقعة يرغب فيها إلى المعز في إسعافه بما تقدمت فيه من حاجته ويسترحم في ذلك ويتضرع إليه، فوقع إليه المعز:

يا جوذر والله ما نسيناك، ولكن تعاورتنا أشغال وفكرٌ حالت بيننا وجميع ما تريده لك من ذلك، فوا الله ما أخرج من بيتي إلا هرباً منه لثقل ما يرد على النفس عند الخلوة، إذ لا معين إلا الله الواحد القهار، فأخرج لكي أستريح من بعض ما أجده، فما ازداد إلا تعباً ونصباً، والله يبسر لنا ما عسير ويسهل كل مستصعب، والذي رغبت فيه كنا له على ما تحب بحول الله وقوه إن شاء الله⁽²⁾.

ونوع التوقيع (توقيع على طرة السجل) الصادر إلى وزير الخليفة الفائز الصالح طلائع بن رزيك وتاريخ هذا التوقيع نفس تاريخ كتابة الوثيقة، وثيقة تقليد الصالح طلائع الوزارة.

"لوزيرنا السيد الأجل، الملك الصالح ناصر الأئمة، كاشف الغمة، أمير الجيوش، سيف الإسلام، غياث الأنام، كافل قضاة المسلمين؛ وهادي دعاة المؤمنين، أبو الغارات، طلائع بن رزيك الفائز، عضد الله به الدين، وأ منع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلا أبدأ كلمته من جلاله القدر، وعظيم الأمر، وفخامة الشأن، وعلو المكان، واستيجاب التفضيل، واستحقاق غايات المنّ الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا، ودعاه دون الخلائق - إلى القيام بحق

(1) القاضي نعمان، المجالس والمسائرات، ص 357.

(2) سيرة جوذر، ص 91-92.

مشايعتنا، ما يبعثنا على التبرع له ببذل كل مصون، والابتداء من ذاتنا بالاقتراح له بكل شيء يسر النفوس ويقر العيون. والذي تضمنه هذا السجل من تقريضه وأوصافه، فالذي تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه، ولذلك شرفناه بـ جميع التدبير والإنالة، ورفعناه إلى أعلى رتب الأصفياء بما جعلناه له من الكفالة.

والله تعالى يعضد به دولتنا، ويحوط به حوزتنا، ويمدّه بمواد التوفيق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غاية الاستمرار إن شاء الله تعالى⁽¹⁾.

وهناك توقيع للمعزّ إلى صاحب بيت المال بشراء حاجياته وحاجيات أولاده بسعر باقي الناس، "تقدم يا محمد بابتياح لنا ولمولاك عبد الله "ولي العهد" في كل يوم من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا وكذا بسعر الناس، ولا تعرّف الرسول لئلا يقع محاباة ولا مسامحة، وكذلك حوائج المطبخ"⁽²⁾.

وهذا توقيع آخر للخليفة العاضد إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب بتعيينه وزيرا له، وكاتب هذا التوقيع القاضي الفاضل.

"هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك؛ ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة، ولمن بقي بقربنا سلوة⁽³⁾. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾"⁽⁴⁾.

ومن توقيعات الحاكم بأمر الله عندما كتب بعض العمّال إليه رقعة يقول فيها:
إن الوافدين كثروا وإن عطاء أمير المؤمنين وافر، فوقّع على الرقعة يقول:

(1) انظر جمال الشّيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص312.

(2) محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، دراسة نصوص، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1400هـ/1980م، ص107.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص407.

(4) سورة القصص، الآية 83.

"المال مال الله، والخلق عيال الله، ونحن أمناء الله في الأرض، فأطلق أرزاق عباد الله، واحذر من قطعها"⁽¹⁾.

ورفع الناظر بالديار المصرية إلى الحاكم بأمر الله كتابا يقول فيه : "إن لم يغلق باب القبول عمّن هاجر إلى الدعوة النبوية، لم يبق أحد في مشارق الأرض ومغاربها إلا وهاجر إليها وكان ما يدفع إليهم يستغرق فضول الارتفاع " فوقّ الحاكم بأمر الله على رقعتة : "الغربة مذلة الأعناق، والفاقة مرّة المذاق، والمادة من الله الرزاق، فأجرهم على عوائدهم في الإنفاق"⁽²⁾ ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ﴾⁽³⁾.
ومن توقيعات المستنصر بالله عندما رفع إليه استيثار الرواتب، وقد أنقص منه قوم، فوقّ بظاهره:

"الفقر مرّة المذاق، والحاجة تذلة الأعناق، وحراسة النعم بإدارة الأرزاق، فليجروا على رسومهم في الإطلاق"⁽⁴⁾ ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ﴾⁽⁵⁾.

ومن توقيعات المعزّ، قال القاضي النعمان : سألني المعزّ عن أمر رُفِعَ في بعض الحكام قرّف به في نفسه، فكتب ت إليه فيه أن ذلك يقال عنه، ويُستفاض فيه ويتكلم الناس فيه عن غير حقيقة يثبت بها، والله أعلم بذلك، فوقّ إلي تحت ذلك : قد سترنا، وكذلك قال مولاك علي بن الحسين عليه السلام : لم يعيش مع الناس إلا من جهلهم⁽⁶⁾.

لقد عرفت أمم كثيرة كالفرس واليونان والهنود والصينيين وغيرهم التوقيعات منذ أزمنة قديمة، فقد كان عظماءهم يوقعون في أسافل الرسائل المرفوعة إليهم أو على ظهورها، أو بين سطورها تعليقات موجزة مختصرة، تتضمن ردّاً مناسباً على

(1) حمادة محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية.

(2) محمد محمود الدروبي ورفيقه، جمهرة توقيعات العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ، ج 1، ط1، 1421هـ/2001، ص196-197.

(3) سورة النحل، الآية 96.

(4) المقرئزي، اتعاط الحنفا في أخبار الخلفاء، ج3، ص343.

(5) سورة النحل، الآية 96.

(6) القاضي النعمان بن محمد، المجالس والمسائرات، ص98.

كل ما اشتملت عليه كل واحدة من هذه الرسائل فلا غرابة أن تحوي المصادر العربية قدرلاً بأس به من توقعات هذه الأمم ولا سيما الفرس على وجه الخصوص لما كان عليه منعقدا بين الفرس والعرب من صلات حضارية وثقافية واقتصادية وسياسية، وقد تعمقت جذور هذه الصلات بعد اعتناق الفرس للإسلام، وإتقانهم للغة العربية وتعرب كثير منهم . والعرب كغيرهم من الأقوام عرفوا هذه التوقعات وتمرسوا بها منذ عهد الخلفاء الراشدين قبل أن يقوموا بنقل النظم الإدارية عن الفرس مما يدل على عروبة هذه التوقعات التي كتبت في هذه المدة المبكرة، وأن العرب لم ينقلوها عن غيرهم في هذا الطور، كما يذهب نفر من الدارسين⁽¹⁾.

وقد اهتم الفاطميون بالتوقعات وأولوها عناية كبيرة فقد كشفت المصادر الفاطمية كسيرة جؤذر، والمجالس والمسائرات وعيون الأخبار وفنون الآثار، واتعاظ الحنفاء، عن توقعات نفيسة من توقعات الفاطميين التي تميل - غالباً - إلى الإطالة مخالفة للإيجاز الذي يعد جوهر التوقيع وأهم ما يميزه عن غيره من ألوان التعبير الأخرى. غير أننا نلاحظ أكثر توقعات الفاطميين للخليفة المعز لدين الله الفاطمي ولعل السبب عائلي ما وصل إلينا من كتابات معاصرين لهذا الخليفة هما : القاضي النعمان والأستاذ جؤذر⁽²⁾.

وبقي القول أن توقعات خلفاء الدولة الفاطمية فهي وإن كانت تبتعد في الغالب - عن أهم ملامح التوقعات العربية إلا أنها تحتفظ بقيمة متعددة الوجوه، وتعتبر بحق وثائق أدبية تاريخية.

3.2.3 عقود الأمان:

الأمان هو الأمر الأول من الأمور الثلاثة التي يرفع بها القتل عن الكفار، قال العلماء: وهو من مكاييد القتال ومصالحه، وإن كان فيه ترك القتال : لأن الحاجة داعية، والأصل فيها من الكتاب قوله تعالى : ﴿إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ

(1) الدروبي، محمد محمود ورفيقه، جمهرة توقعات العرب، ج1، المقدمة5.

(2) المرجع السابق، ص7.

حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ⁽¹⁾ ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم"⁽²⁾.

وقد ذكر الفقهاء له أركاناً وشرائط وأحكاماً:

فأما أركانه فثلاثة:

الأول العاقد للأمان من المسلمين . وليُعلم أن الأمان على ضريبين عام وخاص. فالعام هو عقده للعدد الذي لا يحصر كأهل ناحية؛ ولا يصح عقد الأمان فيه إلا من الإمام أو نائبه كما في الهدنة.

والخاص: هو عقده للواحد أو العدد المحصور؛ ويصح من كل مسلم مكلف وإن لم تكن له أهلية القتال، فيصح من العبد والمرأة، والشيخ الهرم والسفيه والمفلس بخلاف أمان الصبي والمجنون.

الثاني العقود له ويصح عقده للواحد والعدد من ذكور الكفار وإناتهم . نعم في تأمين المرأة عن الاسترقاق خلاف.

الثالث: صيغة العقد . وهي كل لفظ يفهم الأمان كناية كان أو صريحاً، وفي معنى ذلك الإشارة المفهومة . ويُعتبر فيه قبول الكافر شرطاً لا بد منه، حتى لو رد الأمان لم ينعقد.

أما شرطه: فأن لا يكون على المسلمين ضرر في المستأمن: بأن يكون طليعة أو جاسوساً، فإنه يقتل ولا يبالي بأمانه ويعتبر بأن لا تزيد مدة الأمان على سنة بخلاف الهدنة فإنها تجوز عند ضعف المسلمين إلى عشر سنين.

أما حكمه: فإذا عقد الأمان لزم المشروط، فلو قتل مسلم وجبت الدية، ثم هو جائز من جهة الكفار فيجوز للكافر نبذه متى شاء ولازم من جهة المسلمين فلا يجوز النبذ إلا أن يتوقع من المستأمن الشر، فإذا توقع منه ذلك جاز نبذ العهد إليه ويلحق بمأمنه⁽³⁾.

(1) سورة التوبة، الآية 6.

(2) صحيح البخاري ، حديث رقم 1771

(3) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص321-323.

وللكتاب مذهبان في كتابة كتب الأمان:

المذهب الأول: أن يفتح الأمان بلفظ: "هذا كتاب أمان" أو "هذا أمان" قال علي

ابنخلف في مواد البيهان: والرسم فيه "هذا كتاب أمان ابن فلان الفلاني، وأمير المؤمنين أو وزيره، لفلان بن فلان الفلاني الذي كان من حاله كذا وكذا، فإنه قد أمته بأمان الله تعالى وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمانه".

فإن كان عن الوزير قال: "وأمان أمير المؤمنين فلان بن فلان وأمانه على نفسه وماله وشعره، وبشره، وأهله، وولده، وحرمه، وأشياعه، وأتباعه، وأصحابه، وحاله، وذات يده، وأملاكه، ورباعه وضياعه، وجميع ما يخصه ويخصهم أمانا صحيحا، نافذا واجبا لازما، لا ينقض ولا يفسخ ولا يبطل، ولا يتعقب به مخالفة، ولا دهان ولا موارد، ولا حيلة.... الخ"⁽¹⁾.

المذهب الثاني: "أن يفتح الأمان بخطبة مفتوحة بالحمد، والرسم فيه أن يستفتح الأمان بخطبة يكرر فيها الحمد مرتين، أو ثلاثا فأكثر، بحسب ما يقتضيه حال النعمة على من يصدر عنه الأمان في الاستظهار على من يؤمنه . يحمد الله في المرة الأولى على آلائه وفي الثانية على إعزاز دينه، وفي الثالثة على بعثه نبيه، وفي الرابعة على إقامة ذلك الخليفة من بيت النبوة لإقامة الدين؛ ويأتي مع كل واحدة منها بما يناسب ذلك"⁽²⁾.

ومن الأمثلة على نصوص الأمان، نص أمان جوهر لأهل مصر لما فتحها باسم مولاه المعز بن محمد بن الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من جوهر الكاتب، عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه - لجماعة أهل مصر الساكنين فيها . من أهلها ومن غيرهم، إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم:

أبو جعفر مسلم الشريف - أطل الله بقاءه.

وأبو إسماعيل الرسي - أيده الله.

وأبو الطيب الهاشمي - أيده الله.

وأبو جعفر أحمد بن نصر - أعزه الله.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص320.

(2) المصدر السابق، ص321

والقاضي - أعزّه الله.

وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم فعرفتكم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - وحسن نظره لكم، فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم، وتدابروا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعة ه، العاصمة بكم الخ وما أمر به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي صلوات الله عليه - بإثباتها عليكم، وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه - والكه عليّ أمان الله التام العام، الدائم المفصل، الشامل الكامل المتجدد د المتأكد على الأيام وكرور الأعوام، في أنفسكم وأموالكم وأهلكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجنّ، ولا يتعقب عليكم متعقب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون، ويذبّ عنكم ويمنع نكم، فلا يتعرّض إلى أذ اك، ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قويمكم " (1).

وهذه نسخة أمان للحاكم بأمر الله لأهل الأسواق بخاصة:

منع الحاكم الناس من الدخول من باب الزهومة إلى باب الزمرد لأنه ملاصق للقصر، ثم سمح للمكارين (2) بالدخول وكتب لهم أمانا، ثم خاف الناس فطلبوا منه أن يكتب لهم أمانا، فكتب أكثر من مائة أمان لأهل الأسواق بخاصة، وكلها نسخة واحدة، ونصها كما يلي "هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مشهد عبد الله، إنكم من الأمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان سيدنا محمد خاتم النبيين، وأبيننا عليّ خير الوصيين، وذرية النبوة المهديين آبائنا على الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين - وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل والدم والمال لا خوف عليكم، ولا تهديد بسوء إليكم، إلا في حدّ يقام بواجبه وحق يؤخذ لمستوجبه، فليوثق بذلك وليعول بأمان الله.

(1) المقرئزي، اتعاط الحنفا في أخبار الخلفاء، ج1، ص148-153.

(2) المكارين: المكاري هو مكري الدواب ويغلب على الحمّار والبغال.

وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى خير الوصيين وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلّم تسليمًا"⁽¹⁾.

4.2.3 البيعات:

مصدر بايع فلان الخليفة يبايعه مبايعة، ومعناها المعاقدة والمعاهدة وهي مشبهة بالبيع الحقيقي⁽²⁾؛ ويقال بايعه وأعطاه صفقة يده؛ والأصل في ذلك أنه كان من عادة العرب أنه إذا تباع اثنا صفق أحدهما بيده على يد صاحبه، وذكر القلقشندي خمسة أسباب موجبة لأخذ البيعة على الرعية ، والذي يهمنها هو السبب الرابع وهو: أن تؤخذ البيعة للخليفة المعهود إليه بعد وفاة العاهل، كما كان الخلفاء الفاطميون يفعلون في خلافتهم بمصر ، وكانوا يسمون البيعة سجلاً، كما كانوا يسمون غيرها بذلك⁽³⁾.

وما ينبغي مراعاته في كتابة البيعة للخليفة الجديدة أمور كثير منها : حسن الاقتناع والتنبية على شرف الخلافة ، وبيان الحاجة الماسة إلى وجود إمام، والإشارة إلى أن صاحب البيعة قد استوفى شروط الإمامة، وأنه أفضل من غيره . ثم التنبية لملى أهل الحل والعقد في المملكة، وهم الذين لهم فضل المبايعة، والتنبية على سبب خلع الخليفة السابق إن كانت البيعة مترتبة على خلع ، ثم التنبية على وجوب طاعة الخليفة الجديد لقباً لا لاله، ولا ينسى الكاتب التعبير عن معنى التعزية في البيعة الميت، ومعنى التهئة للخليفة الجديد المستقر إن كانت البيعة مبنية على موت خليفة⁽⁴⁾.

ونجد أن موضوع البيعات على اختلافها محدد، فهو عرض وطلب، في آن واحد، يكون الخليفة الطرف الأول العارض والطالب، أما الرعية فهي الطرف

(1) المقرئزي، اتعاط الحنفا في أخبار الخلفاء، ج2، ص57-58.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص281.

(3) المصدر السابق، ص284.

(4) المصدر السابق، ج9، ص280-331.

الآخو. عليها إلا الموافقة وعن رضا وطيب خاطر . فجاءت البيعات لدرجة التطابق تقريبا مما يجعلها لا تمتاز بثراء في مضمونها⁽¹⁾.

ومن النماذج على البيعات من العصر الفاطمي البيعة التي كتب بها عن الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الأمر بأحكام الله، قام بعقدها الوزير أبو الفتح يانس الحافظي وعند إمعان النظر نجد أن هذه البيعة موجهة من الخليفة الحافظ إلى أهل الدولة جميعا : شريفهم ومشروفهم، وأميرهم ومأمورهم، وكبيرهم وصغيرهم، وأحمرهم وأسودهم، وتبدأ -كالعادة- بالحمد وبالصلاة على محمد وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

ثم تهتم هذه البيعة أو الوثيقة اهتماما خاصا بالإشارة على وصية النبي عليه الصلاة والسلام إلى ابن عمه علي يوم غدير خم⁽²⁾، وإلى كلمته التي قالها يومذاك: "كنت مولاه فعلي مولاه"، واهتمام الوثيقة بالتنويه بهذا اليوم وما قيل فيه له مغزاه، فإن تولية الحافظ للخلافة بعد ابن عمه الأمر كانت تجربة جديدة بالنسبة لتاريخ الدولة الفاطمية، فللمرة الأولى يخالف المذهب الإسماعيلي في أصوله، ولا يلي الخلافة ابن الخليفة السابق بل ابن عم له، مما اقتضى الرجوع إلى يوم غدير خم للبحث عن مبرر وسابقة تاريخية يعتمد عليها لتبرير ولاية ابن العم.

ثم تنتقل الوثيقة إلى التعزية في الخليفة المنتقل الأمر بأحكام الله الذي مات شهيدا "وكان انتقاله إلى جوار ربه تبارك وتعالى كانتقال أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بغيا من الكافرين واغتialا".

(1) محمد محمود الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن 3هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1999، ص30

(2) خم: موضع بين مكة والمدينة به غدير أبو بطيحه وحوله شجر كثير؛ ويقال أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما عاد من مكة بعد حجة الوداع سنة 10 هـ نزل بغدير خم، وأخى علي بن أبي طالب ثم قال : "علي مني كهارون من موسى، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله" ويلق الشيعية على هذا الحديث أهمية كبرى إذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول -قبيل وفاته لعلي بن أبي طالب . انظر ياقوت، معجم البلدان.

- ثم تورد الوثيقة الأدلة التي تثبت صحة انتقال الخلافة إلى الحافظ ومنها:
- أن الأمر كان يذكر -أثناء حياته- ما يعلمه من حق أمير المؤمنين (يعني الحافظ) بأثرة مجاهرا وتارة مخافتا، إلى أن صار على بسط القول في ذلك وتبيينه مثابرا متهافتا، وأفصح بما كان مستبهما مستعجما".
 - وأنه فعل ذلك عندما ألغى الحافظ لأشرف فرع من سنخ النبوة، وراه أكرم في فخاره الأبوة وذلك لأن أبا الحافظ وهو الأمير أبو القاسم محمد - عم الأمر وهو كما يقول النص :سليل الإمامة القليل المثل ، ونجل الخلافة المخصوص من الفخر بأجزل حظ وأوفر كفل".
 - أن المستنصر كان قد سمى ابنه هذا أبا القاسم محمد (والد الحافظ وعم الأمر) ولي عهد المسلمين "وتضمن ذلك ما خرجت به توقيعاته وتسويغاته إلى الدواوين، ويثبت في طرز الأبنية وكتب الابتاعات والأشربة (1). وعلمته الكافة علما يقينا، ظلت منه غير مرتابة ولا ممترية".
 - أن هذه التسمية كانت تتضمن باطنا لا يعقله إلا العالمون، فقد كان الخليفة الحافظ هو الغرض منها والمقصد والبغية والمطلب "وكان والده الأمير أبو القاسم قدس الله روحه - بمنزلة الأشجار التي يتأنى بها إلى أن يظهر زهرها، والأكمام التي ينتظر بها إلى أن يخر ج ثمرها، والزرجونة (2) التي نقلت الماء إلى العنقود".
 - ثم تذكر أن محمدا - عليه السلام - قد عقد الولاية لابن عمه علي يوم غدير خم مع وجود عم له حاضر، وكذلك فعل الأمر نص على ابن عمه الحافظ مع حضور عمومته "وفعل جده رسول الله، إقتداء به وانتهاء إليه".
 - ثم تشير إلى ساقية أخرى، وهي أن أبا علي المنصور الحاكم بأمر الله جعل ابن عمه عبد الرحيم ابن إلياس ولي عهد المسلمين.

(1) هذا نص له أهمية كبرى، فإن المعروف أن بعض الخلفاء الفاطميين كانوا يأمرؤن بأن يضرب اسم ولي العهد على السكة وأن ينقش على الطراز أي المنسوجات، ولكن النص هنا يضيف جديدا، يضيف أن اسم ولي العهد كان يثبت في طراز الأبنية "

(2) الزرجونة : بفتح الراء أو سكونها وهي كلمة فارسية معناها شجر العنب أو قضبان الكرم

"وميزه بذلك على كافة الناس أجمعين، ونقش اسمه في السكة وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكة وألبسه شدة الوقار ⁽¹⁾ المرصعة بالجوهر، واستتابه عنه إمام الأعياد في الصلاة وفي رقي المنبر، وأقامه مقام نفسه في الاستغفار لمن يتوفى من خواص أوليائه، وفي الشفاعة لهم بمنتقل مناجاته ومسموع دعائه، مع علمه أنه لا ينال رتبة الخلافة، ولا يبلغ درجة الإمامة، وأن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله هو الذي خلق لها".

ثم تختتم الوثيقة بإشارة إلى مكانة الوزير الأجل أبي الفتح يانوس الفاطمي وتوفيه حقه من التعظيم والتبجيل.

وتدعو الوثيقة أخيراً الناس جميعاً إلى الدخول في بيعة الخليفة الحافظ منشوحة صدورهم، طيبة نفوسهم.

ومن الأمثلة على سجل البيعات ما صدر بولاية العهد من خليفة لولده وهو من إنشاء القاضي الفاضل:

نسخة بولاية العهد من خليفة لولده، من إنشاء القاضي الفاضل، أتى فيها بالتحديد بعد التصدير ثلاث مرات، وهي:

((من عبد الله ووليه فلان أبي فلان الإمام الفلاني إلى فلان الفلاني.

أما بعد، فالحمد لله الذي أستحق الحمد بفضله، وأجرى القضاء (على ما أراده) ووسع الجرائم بعفوه وعدله، وصرف المراحم بين قوله وفعله، وأعلى منار الحق (380) وأرشد إلى أهله، واختار الإسلام ديناً وعصم المعتقلين بحبله، وأوضح

سبل النجاة بما أوضح لسالكيه من سبله، وتعالى علاه إلى الصفات، فلم يوصف بمثل قوله "ليس كمثلته وتتنزه عن اشتراك الت شبيهات في كل جليل الوصف مستقلة ومغيرة، علم ما أشتملت عليه خطرات الأسرار، وأشارات إليه نظرات الإبصار، وأنفجرت عنه غمرات الأخطار، وأخفته سترات الظلماء وباحت به جهرات الأنوار) منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (2).

(1) شدة الوقار: يقصد بها التاج الذي كان يتوج به الخليفة الفاطمي في المواكب العظام.

(2) سورة الرعد الآية 10.

وللّٰه الذي جعل الدّين عنده الإسلام، فمن أبتغى غيره ضلّ المنهج، و أبعد المعرج، واستلقح المخدج، وغلط المخرج، وفارق النور الأبلج، وركب الطريق الأعوج، وأتى يوم القيامة باللسان الملجلج، ومن أسلم وجهه إليه فاز بالسعي النجيج، وحاز المتجر الربيح، وورد المورد الأحمد، ويمم القصد الأقصد، ووجد الجدّ الأسعد، وسلك المنج الأرشد، فهو العروة الوثقى، والطريقة المثلى، والدرجة العليا؛ وأمر به خير المرسلين، المنعوت في سير الأولين، والمبعوث بالحق المبين، والقائم رسولاً في الأميين، والهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم؛ والداعي الذي من أجابه وآمن به غفر له ما تقدم من ذنبه وأجير من عذاب أليم، والمستقلّ (بالعبء) العظيم، بفضل ما منح من الخلق العظيم، والممدوح بقوله: (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) (1).

والحمد لله الذي وصل النبوة بالإمامة؛ وجعلها كلمة في عقبه إلى يوم القيامة، وخصّها بالخصائص التي لا تتبغى إلا لتأمّ الكرامة، وأجار بها خلقه من متالف الطامة وبوادي الندامة، وهدى بشرف مقامه إلى دار المقامه، واستردّد بأنوار تدبيره من ظلام الباطل الظلامه، وأحسن بما أجراه من نظره النظر للخاصة والعامة (إن هذا هو الفضل المبين) (2).

يحمدّه أمير المؤمنين أن رفعه إلى ذلك الحلّ المنيف، واستعمر به المقام الشريف، وأظهر كلمة الدين الحنيف، ونفى عنه تغالي التعمق وتجديف التحريف، وبين بموافقة توفيق هديه طريق التكليف، وأمدّه بمواد إلهية، تشتهر فتستغنى عن التعريف، وتتصل فتقطع موادّ التكليف.

ويسأله أن يصلّى على جدّ محمد الذي نسخ بشريعته الشرائع، وهذب بهدايته المشارع، وأيده بالحجج القواطع، والأنوار السواطع، وجعل من ذريّته جبال الله القوارع، ومن مشكاته نجوم الهدى الطوالع، وعُرفت صنائعه بالله إذا افتخرت المنعمون بالصنائع.

(1) سورة التوبة الآية 128.

(2) سورة النمل الآية 16.

وعلى أخيه وأبينا أمير المؤمنين على بن أبي طالب المخصوص بأخوته، وأبي
التقلين من عثرته، والسابق إلى الإسلام فهو بعده أبو عذرتة، وإلى تف ريج الكرب
عن وجهه في الحرب فهو ابن بجدته.

وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الظلمات، ومفاتيح الشكوك المبهمات،
والممنوحين من شرف السمات ما جلّ عن المسامات، والممدوحين بفضل اتجاه في
الأرضين والسموات.

وإن الله بحكمته البديعة، ورحمته الوسيعة، أقام الخلفاء لخلقه قواماً وبحقه قواماً،
وجعل نار الحوادث بنورهم برداً وسلاماً، وجعل لهم الهداية بأمره لزاماً،
واستصرف بهم عن الخلق عذاب جهنم⁽¹⁾ عذاباً كان غراماً⁽²⁾ فهم أرواح
والخلائق أجسام، وصيّاخ والمسالك أضلام، وثمرات والوجود أكمام، وحكام والحقائق
أحكام، يسهرون في منافع الأنام وهم نيام، وينفردون بوصب النصّب ويفردونهم
بلذات الجام، ويهتدون بهدایاتهم إلى ما تدقّ عنه حوائط الأفهام، ولا يدرك إلا
بوسائط إلهام.

وقصطفى الله الأمير من تلك الأسرّة ورقاه شرف تلك المناير ومُلك تلك
الأسرّة وأثار بمقامه نجوم السعّادة المستسيرة، واستخدم العالم لأغراضه، وسدّد كلّ
سهم في رميه إلى أغراضه، وأقرض الله قرضاً حسناً فهو واثق بحسن عواقب
إقراضه، وافترض طاعته في خلقه فالسعيد من تلقى طاعة أمير المؤمنين بافتراضه،
وأمضى أوامره على الأيام فما يقابلها صرف من صروفها باعتراضه، وأدار الحقّ
معه حيث دار، وكشف له ما أستجنّ تحت أستار الأقدار، ووقف الخيرة والنصرة
على آرائه وراياته فهو المستشار والمستخار؛ وألهمه أن يحفظ للأمة غداً كما حفظ
لها يومها، وأن يجرى لها موارِد توفيق الارتياذ ولا يطيل حومها، وأن يجعل
المؤمن على ثلج من الصدور، وفلج من الظهور، ويدعّ عندها بردّ اليقين بالإشارة
على مستودع النور، ويجلها على شريعة من الأمر فتتبعها، ويحلها بمنزل⁽³⁾ الخصب
فترتبعها؛ ويعلم ندى خيرليكون غايتها ومفرعها، ويعرفها من تنتظره فتتخذ مآلاً لها

(1) سورة الفرقان الآية 65.

ومرجعها، ويقتدى في ذلك بسيد المرسلين في يوم الغدير، ويشير إلى من يقوم به المشيرُ مقام البشير.

ولما كنتَ حافظَ عهد أمير المؤمنين والسيّد الذي لا بد أن يُتوجَّ به السرير؛ والنجم الذي لا بد أن نستطيل إلى أنواره ونستطير، والذخيرة التي أذخرها الله لنيل كل خطر ودفع كل خطر، والسحاب الذي فيه الذّ لج المطير، والنجم المنير والرجم المبير، وقد تجلّت لـ لُوجه الكرامات وتبدت، وتبرحت لـ ك مخطوبات المقامات وتصدت، وطلبتك كفنًا لنيل عقليتها وسكنى معقلها فما تعدّت، وأدت إليك لطائف فهمك من أسرار الحقائق ما أدت؛ وعرفت من سيمك هدى النبوة، واجتمع لك مزية الشرفين من الطرفين الأبوة والبنوة، وأخذت كتاب الحكمة ومصون العصمة بقوة، وأجرت القلوب التي بعوارض الشك ممنوه، وآثرت العقائد التي بنواقض العقد مملوه وغدت وجوه الأنام بأيامك مجلوة، وتوافقت الألسن على مدحك ولا مثل ما مدحت من الآيات المثلوه، وكنت بحيث تذهب بالأهوال المسلوه، وتقبل بالآمال المرجوه، ولو أن ركبا ضلّ لهداه نورك في الليل البهيم، ولو أن ذكرك شدّ لتبدى في الآيات والذكر الحكيم، ولو أنك طلعت على الأولين لما تساءلوا ولا اختلفوا في النبأ العظيم، ولو أن قديماً علا فوق كل حديثٍ لقام لك الحديثُ مقامَ القديم، ولو أن جميعَ الأنام في صعيدٍ لصعدت دونهم المقام الكريم، ولو أن يدك البيضاء تجسمت للناظرين لأعدت آية موسى الكليم، هديتك الغراء تنسّم للذاكرين لأحييت بها العظام وهي رميم، ولو أن علومك انتشرت بين العلماء لتلوا: (فوق كل ذي علم عليم) ⁽¹⁾؛ ولو أن ليلة ولادتك رصدتها البصائر، رأت كيف يفرق فيها كل أمر حكيم، والصفات إذا احتفل أربابها وقفت لك عبيداً، والأيام إذا كانت ظروفًا لفنائك كان كل يوم منها للعبيد عيدا، والأنساب إذا كانت ظروفًا للجدّ سعيداً، فلتنقذ ر قبل السير بأن أملت عليها السور.

وابشر بأن المنتظر من فضل الله لك فوق ما تعجله النظر، وأشمخ بأن سادة القبائل مضر وأنت بعد أمير المؤمنين سيد مضر، وابذخ بأنك عوض من كل من غاب وما عنك عوض في كل من حضر، وابجح بأنك قد أهلت لأمر أبي الله له إلا

(1) سورة يوسف الآية 76.

أولي العزم والخطر، وأشكر الله على نعمة خلقك لها بقدر، ومزية لا يزفي حقها من أضمر فأغرق أو نطق فشكر : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)⁽¹⁾.

وَقُلْ: (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)⁽²⁾.
فإليك هذا الأمر يصير، وأنت له والله لك نعم المولى ونعم النصير، وتأهب له في درجته التي لا ينا لها باعٌ قصير، ولا يمتطيها إلا من اختاره الله على علم من أهل الثقلين، ولو أن بعضهم لبعضٍ ظهير، ولا نرى لها أهلاً إلا من أراه الله من آياته أنه هو السميع البصير، وفاوض أمير المؤمنين في مشكلات الأمر ولا ينبئك مثل خبير، واقتد منه بمن هو (في) أهل البائن دون الخلق بشير، وسر إذا استعملك الله فيهم بما رأت أمير المؤمنين به فيهم يسير، و ادع الله بأن ييسر على يدك مناجحهم إن ذلك على الله يسير، واعرف ما آثرك الله به من أنه لم يجعل ليديك كفواً إلا ذا الفقار، ولا لقدمك كفواً إلا المنبر والسرير، وتحدث بنعمة الله وإجرائها فأمر المؤمنين اليوم عليك أميرٌ وأنت غداً على المؤمنين أمير: (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)⁽³⁾.

وأما العدل وإفاضة، والجور وإغاضته، والعصيان ورياضته، والجذب وترويضه، والخطب وتفويضه، والجهاد ورفع علمه، والذب عن دين الله وحفظ حرمة، والأمر بالمعروف ونشر رذائعه، والنهي عن المنكر وطباعتائه، وإقامة الحد بالصَّفْح والحد، والمساواة في الحق بين المولى والعبد، وبت دعوة الله في كل غور من البلاد ونجد، وأمر عباد الله إن عباد الله في زمنك الرغد، فذلك عهد الأئمة الراشدين، وهو إليك من أمير المؤمنين، عهدٌ مؤكَّد د العقد: وهو سنُّه فضل الخلفاء

(1) سورة الأعراف الآية 43.

(2) سورة النمل الآية 19.

(3) سورة النمل الآية 40.

التي لا تجد تلها يلاً، ومعنى العهد الذي أمر الله بالوفاء به فقال : (إن العهد كان مسؤلاً⁽¹⁾).

وهل يُوصَى البحرُ بتلاطم أمواجه؟ وتدافع أفواجه؟ وبتزخر عجاجه؟ وهل يحض البدر المنير على أن ينير سراجَه، ويطلع ليتضح للسالك منهاجَه؟ أو ينبه على هدايته إذا تهدّته أبراجُه؟.

وعليك من رسلِ أنوار الله ما يغنيك أن توصد ي، ولديك من ظواهر لطائف الله ما تميز به عن الخلق إذا أضحيّت به مخصوصاً، ومن شواهد اختيار الله ما تظاهرت عليك آياته نصوصاً، فبسلام الله يحييك المؤمنين، وبالاغتيال بعصمة ولاتك في يوم الفرع الأكبر يأمنون، والله منجز لك وعده ك ما أنجزه لمن جعلهم أئمة لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون.

والله سبحانه يُهدى إليك تحية من عنده مباركة طيبة، ويسدي إلى مقام شرفك سحابة رحمة غدقة صيبه، ويجعل ما رآه أمير المؤمنين من ولايتك عهده، وكفالتك للأمة بعده، للمسرات ناظماً، وللمساءات حاسماً، وللبركات جامعاً، وللباطل خافضاً وللحق رافعاً.

وأمر أمير المؤمنين أن يعيّن على رجال من أولياء دولته ، ووجوه شيعته، وأنصار سرتة، عدة يكون إليك أعترأؤها وبك اعتزازها ، وببابك العالي إقامتها، وإلى جانبك انحيازها، فتكون موسومة بالعبودية، ومتعرّضةً بالولاء للسعادة الأبدية ؛ فتمثل عل ما تمثله من المراسم وتتصرف على ما تصرفها عليه من العزائم وتكون أبداً لما ينفذ عنك من أحكام الهبات والمكارم، وتقوم من ملازمة الخدمة في مواعيدك بما هو لكل خادم فرض لا زم، وسقارِع في مطالبك إلى ما يسارع إليه الحازم، وتجود باسماء الإنعام بالغدق السامح، وتقدر لها من الواجبات والزيادات ما تقتضيه همم المكارم؛ تبذل في الخدمة الاجتهاد، وتتافس فيما تستمد (به) الحظوة بحضرته والإحماد؛ وعرضها من الإحسان الجم للازدياد وبلغها المراد بما تبلغ بها من المراد

(1) سورة الإسراء الآية 34.

لتنشرف بأن تكون تحت ركابه العالي متصرفة، وتفتخر بأن تكون أنسابها باسمه العالي متشرفة؛ إن شاء الله تعالى.

3.3 التنظيمات الإدارية:

أما ما صدر عن الديوان من كتابات سياسية وإدارية واقتصادية فقد تمثل في:

1.3.3 السجلات:

السجلات: جمع سجل، وهي المكاتبات الصادرة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة وموجهة إلى أرباب الوظائف الكبار أو ملوك الدول الأجنبية أو كبار رجال الدعوة لإبلاغ حادثة من الحوادث أو بمنح لقب لأحد أرباب الوظائف⁽¹⁾.

وهذه الوثائق لها قيمة كبرى في الناحية الأدبية، وإن دلت كثرة السجلات على شيفلها تدل على اتساع رقعة الإمبراطورية إلى الشد رق وإلى الغرب؛ كما نعتقد أنه كان من عادة الفاطميين إخبار الولاة بما يدور في داخل الإمبراطورية وخارجها وإرسال التعليمات إليهم.

وإن السجلات الصادرة عن ديوان الإنشاء من الخليفة المستنصر بالله يجدها تبدأ بالبسملة: (بسم الله الرحمن الرحيم)؛ والحمد لله: (الحمد لله رب العالمين)، مكتوبين بخط اليد الشريفة النبوية، أي بخط الخليفة⁽²⁾.

وذكر المقرئ أن صيغة (الحمد لله رب العالمين) تعرف بالعلامة وهي التي كان يوقع بها خلفاء الفاطميين في مصر لتدل عليهم⁽³⁾.

ولكن لا تظهر هذه العلامة للخليفة المستعلي بالله في السجل الوحيد الذي أرسله إلى السيدة لحرّة⁽¹⁾؛ فلعل الناسخ أسقطها سهواً دون قصد أو أهملها في

(1) ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، ص 16.

(2) عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 23.

(3) المقرئ، الخطط، ج 2، ص 345.

الأصل، أو أيضا أنها لم تكن قد ظهرت له بعد، فهذه الرسالة في الواقع، من بدء حكمه ومن الطريف أن نذكر هنا أن علامة أم الخليفة المستنصر كانت : (الحمد لله ولي كل نعمة)⁽²⁾.

وأن علامةبنة الخليفة الظاهر و أم المستعلي: (الحمد لله على نعمه) وبعد البسمة والحمد له يأتي اسم المرسل وحين يكون المرسل الخليفة المستنصر أو الخليفة المستعلي فإن اسم الخليفة يسبق هذا النعت : (عبد الله ووليّه) بقصد إظهار خضوع الخليفة وضعفه أما الخالق وإيمانه الشديد بالله؛ ثم يأتي لقب : (إمام)؛ يليه اللقب المعروف: (أمير المؤمنين)؛ وقد يذكر الخليفة نسبه بذكر أبيه.

أما المرسل إليه، فإنه كان يذكر في الغالب بعد اسم المرسل أو الراسل، بالألقاب المنعوت بها؛ وبالألقاب أبيه؛ وأحيانا بألقاب جدّه، ويدعى له بدعوتين أو ثلاث⁽³⁾.

ونجد بعد هذا التصدير في ما نشر في سجلات الجملة التي تتكون من صيغة السلام، والحمد، والصلاة على النبي، والدعاء للأئمة وهي : (سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليه الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين، وسلم تسليمًا) ثم تليها هذه الصيغة : (وأما بعد)؛ يتبعها: (الحمد) من جديد، الذي يبدأ موضوع السجل⁽⁴⁾.

وكان الفاطميون يتعمدون دائما أن يذكروا أن محمدا جد الأئمة، فكأنهم كانوا يحاولون إثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم وكل سجل من سجلاتهم، وكأنهم دلّوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصو مهم نفيه، أو كأنه رد على سجلات

(1) السيدة الحرة: الملكة أروى بنت أحمد الصليحي، وزوجة أحمد المكرّم هما اللذان حكما في اليمن بعد مقتل الصليحي، فكانت مثالا للتقوى والكفاءة في إدارة شؤون البلاد؛ عبد المنعم ماجد، سجلات المستنصرين، ص 19.

(2) المصدر السابق، ص 23.

(3) المصدر السابق، ص 24.

(4) المصدر السابق، ص 25.

العباسيين في دحض نسب الفاطميين، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في كل رسائل الفاطميين منذ دخول جوهر مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية. ولعلّ هذه الظاهرة هي التي تميز رسائل الكتاب الفاطمي ن عن غيرهم من كتاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين. وكما كانوا يبدعون كتاباتهم وسجلاتهم بالحمد والصلاة على النبي والأئمة، كانوا يختتمون هذه الكتابات والسجلات، لم يشذّ عن ذلك كاتب من كتابهم. ففي هذه السجلات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطوات الإمام الفاطمي، فإذا خرج للصلاة صدر بذلك سجل من الديوان، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل، وإذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل بالفتح وهكذا، ففي كل هذه السجلات تظهر هذه الميزة. ومن السجلات التي تؤيد ما ذهبنا إليه السجل الذي يكتبه ابن الصيرفي بإعلان وفاة الخليفة المستعلي بالله وولاية الأمر بأحكام الله الخلافة من بعده. والخطاب في هذه الوثيقة موجه من الأمر "إلى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاياها : شريفهم ومشروفهم، وأمرهم ومأمورهم، مغربهم ومشرقهم، وأحمرهم وأسودهم⁽¹⁾، كبيرهم وصغيرهم". حيث تبدأ الوثيقة بالسلام، ثم تنثني بحمد الله، والصلاة على محمد رسول الله وآله، ثم يستأنف الحديث فيها بلفظي "أما بعد" يتلوها حمد ثانٍ يشير فيه الكتاب إلى حكمة الله في الموت، وأنه سبحانه - جعله "حكما يستوي فيه جميع الأنام، ومنهلا لا يعتصم من ورده كرمة نبي ولا إمام" ومستشهدا ببعض الآيات القرآنية التي تؤيد هذا المعنى⁽²⁾.

ثم يأتي ابن الصيرفي بصلاة ثانية على النبي محمد وعلى أخيه وابن عمه علي مع إشارات بمنزلة كل من هذين الرجلين، ثم على الأئمة من ذريتهما، ونلمح أن الصلاة على النبي محمد وعلى الأئمة في مفتتح كل الوثائق الفاطمية الرسمية الصادرة عن الدولة، فإن الدولة كانت لا تترك فرصة تمر دون أن تعلن عن

(1) أسودهم وأحمرهم: أي عربهم وعجمهم.

(2) جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص46.

مذهبها، وتؤيد شرعيتها في كل وثيقة تصدر عنها، لتستقر في نفوس الشعب وفي نفوس كل من توجه إليه هذه الوثيقة.

وتشير هذه الوثيقة بعد ذلك إلى الخليفة المتوفى المستعلي بالله -والد الأمر- وتؤكد في الأذهان مرة أخرى صحة خلافته وإمامته، وتشيد به وبأعماله وحكمه، وتعلن للملأ حزن الخليفة الجديد على وفاته.

ثم تنتقل الوثيقة إلى ناحية أخرى هامة تتصل بالمذهب وأصوله، فالشيعة الإسماعيلية يعتقدون أن الإمامة هي ركن الدين الركين، وقاعدة الإسلام، وهم يعتقدون أيضا أن عليا كان وصي محمد والإمام من بعده، باختيار إلهي، وأن محمدا استودع علياً وبثه علوماً لدُنْيَا كان يخفيها عن جمهور صحابته، وأن هذه العلوم يلقنها كل إمام من نسل علي للإمام الذي يليه ويستودعه إياها، ولهذا كانت السجلات التي تصدر إعلان تولية الخلفاء تعني دائما هذا المعنى وتأكيد، وهذا ما قصد إليه ابن الصيرفي كاتب هذا السجل، خاصة أن هذا الخليفة الجديد للأمر أحكام الله - كان طفلا صغيرا، وله من العمر خمس سنين، فلتبرير خلافته نص على أن المستعلي -عند نقلته- جعل لابنه الأمر "عقد الخافة من بعده" وأودعه "ما حازه من أبيه عن جدّه" وأطلعهم العلوم على السر المكنون "وأفضى إليه" من الحكمة بالغامض المصون".

وكانت القوة الفعلية في الحقيقة في يد الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي منذ أواخر عهد المستنصر، والأفضل هو الذي أبعد نزاراً بن المستنصر عن الخلافة، وولّى بدلاً عنه أخاه الصغير المستعلي بالله، وظل طول عهده وهو صاحب الحل والعقد؛ وانقسم الفاطميون منذ ذلك، ونتيجة لذلك - لأول مرة إلى فرقتين متعاديتين: النزارية والمستعلية، وكان هذا الانقسام أول معول عمل في هدم وإضعاف الشيعة الإسماعيلية بوجه عام، والدولة الفاطمية في مصر بوجه خاص.

وعند وفاة المستعلي ولي الخلافة ابنه الأمر -الطفل الصغير والأمور- على ما هي عليه بيد الأفضل شاهنشاه، ولهذا رادت الوثيقة بعد ذلك تشير إلى مكانة الأفضل في عهدي المستنصر والمستعلي، وتشير إلى أن المستعلي كان قد أوصى ابنه الأمر -الخليفة الجديد- بإعلاء مكانة الأفضل وتبجيله وتكريمه وأن يتخذه

صَفِيًّا لَهُ وَظَهِيرًا " وَأَنْ لَا يَسْتَرْ عَنْهُمْ الْأُمُورَ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا " وَأَنْ يَسْنَدَ إِلَيْهِ تَدْبِيرَ الْأُمُورَ جَمِيعًا.

وتختتم الوثيقة بإعلان العزاء في الخليفة المتوفى، والبشرى بتولية الخليفة الجديد والطلب إلى الجميع بتقديم الولاء والطاعة والقيام بشروط البيعة له⁽¹⁾.
ومن الأمثلة على السجلات "سجل من إنشاء القاضي الفاضل لبعض الوزراء":

وهذه نسخة سجل من ذلك كتب به لبعض وزرائهم، من إنشاء القاضي الفاضل؛ وهي:

إنَّ أمير المؤمنين لما أطلق الله يد بره من أميالٍ تبدو على الأحوال شواهدُ آثارها، وترُوض الآمال سحائبها بسائب مدارها، وتتنزه مواعدها عن أنظارها، ومواردها عن أن يؤتى بأنظارها، ويقوم بناصرها فيكون أقوى أعوانها على الشكر وأنصارها، وألهمه من مواصلة المنن التي لا تنقطع روايتها و لا تنتهى مراتبها، وموالاته المنح التي تهب على جناب الخير شمائلها وجنائبها، وتلتقي في مسارح المدائح غرائبها ورغائبها، وحببه إليه من انتهاء فرص المكارم في الأكارم، وابتداء المعروف وابتداء مغانمه التي لا تعقبها -يولي آلاءه من يجزي عن حسنيتها عشرًا، ويعقل عقائلها عند من يسوق إليها من استحقاقها -مهراً، ويقابل بالإحسان إحسان أجل أوليائه قدرًا، ويضاعف الامتنان عند من لم يضعف في موازرتة أزارًا، ويودع ودائع جوده في المغارس الجيدة بالزكاء والنماء، ويزكي أصول معروفه لمن يفتخر بالانصواء إلى موالاته والانتماء، ويستكرم مستقرَّ مننه وآلاته، ويحسن إلى الإحسان ثم يبتهج بموالاته لدية وإيلائه.

ولما كان السيد الأجل أمير الجيوش آيه نصر أمير المؤمنين التي أنبرت فما تبارى، ونعمة الله التي أشرق أنوارها وأورت فما تتوارى، وسيف حقه الذي لا تكلُّ مقاطعه، وبحر جوده الذي لا تكدر مشارعه، والمستقل من الدفاع عن حوزته بما عجزت عنه الأمم، والعلي على مقدار الأقدار إذا تفاوتت قيم الهمم، والكاشف

(1) ابن ميسر، أخبار مصر، ص 70-74 للسيوطي، حسن المحاضرة، ج 1، ص 604-407؛ جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص 183-190.

الجُلِّي عن دولته وقد عظمت مظالم الظلم، والجامع على الممارسة والمواراة قلب
الموالف والمخالف ولسان العرب والعجم، والمتبويء من الملك ملكاً لا ينبغي لأحد
من بعده، والمتوقِّل⁽¹⁾ من الفخر محلاً لا يطمع النجم فيه من بعده، والمغير على
الحرب العوان بَقْلِيَّة البُكر، والمنفذ بمتدع العزمات ما لولا وقوعه لما وقع في⁽²⁾
الفكر، والقاضي للدين بحد سيوفه مطلول حقة وممطول دينه، والقائم لأمير المؤمنين
مقاماً قام به أبوه في نصرة جدّه صلى الله عليهما يوم بدره ويوم حنينه.

ولقد أظهر الله آيات نظارة نظره على الأرض فأخذت زخرفها وازينت وابتدت
أيديه الجنى فتظاهرت أدلتها على دولته وتبنيت، واستألمت⁽³⁾ المملكة من تدبيره
بجنته تحامها الأقدار وهي سهام، ووثقت من عنايته إلى هجر الخطوب بما يعيد
نارها وهي برد وسلام؛ وما ضرها مع تيقظ جفنه أن يهجع في جفنه طرف الحسام،
ولا احتاجت وقلبه يساور جسيم أمورها أن تتعب في وأداها الأجسام؛ فأَيُّ خير يُولى
- وإن عظم - يناهض أستمحاقة؟ وأي غاية وإن جلت تروم نيل مدى مسعاه
ولحاقه؛ وأنى لأرض الدنيا أن تهدي لجوهره عرضاً، ولا تبليغ مبالغ النعم
الجلال أن تعتدّ اليوم من مساعيه عوضاً؟، وهل لأمير المؤمنين أعمال في مجازاته
عن قيامه بغمد راية ومجرد عضبه، ودفاعه عن حوزة عدته وذبه، وكرهه في مواقف
كربوه وكفايته للأمة في سلمه وحربه، وإياله التي خصّ الأرض منها فضل خصبه،
إلا أن يذكره بقلبه عند ربه، وأن يرفع الحجب عند كلِّ سؤال كما يرفع الله عند
دعائه مُسَدِّل حُجْبِهِ؟.

وعُرِضَتْ بِحَضْرَةِ أمير المؤمنين مطالعةً منه عن خبر باسمه الكريم مقصور
على الرّغبة في خروج الأمر بتمليك جهته التي تقوم عدتها عدّه ألف مستخرجاً بها
الخطّ الشريف بإمضاء التمليك وإجازته، وتسليم الملك وحيازته.

فتلقّى أمير المؤمنين هذه الرغبة بإفراز جرى فيه من الأوامر على أفضل سنن،
وتقبلها منه بقبول حسن، وتهللت عليه لسؤاله مصابيح الطّلاقة والبشر،

(1) توقّل في الجبل: سعد فيه.

(2) الزيادة يقتضيها السياق.

(3) استألمت: لبست اللّامة، وهي عدة الحرب، والجنة: الدرع الواقية.

ونفقت⁽¹⁾ توقعية ما لا تبلغه مواقع ماء المزن في البلد ا لقفر، وشمله خطّه الشريف بما نسخته : خرج أمره إليه بأن يُوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السّجل بتملك الجهة المقدّم ذكرها بجميع حدودها وحقوقها، وظاهرها وباطنها، وأعلىها وأسافلها، وكل حق لها، داخل فيها وخارج عنها، وما هو معروف بها ومنسوب إليها، تملكاً مخلداً ، وإنعاماً مؤبداً، وحقاً مؤكداً، يجري على الأصل والفرع، ويُحكم أحكام الكرم والشرع، ماضياً لا تتعقب حدوده بفسخ، جائزاً لا تتجاوز عقود بنسخ، موصولة أسبابه فلا تتطرق أسباب التغيير إليها، مورو ثاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فليعتمد كافة ولاية الدواوين، ومن يليهم من المتصرفين، حمل الأمر على موجب، والحذر من تعديه وتعقبه، وأمثال ما رسمه أمير المؤمنين وحده، والوقوف عند أمره الذي عدم من مال فردّه، وليقر في يد الديوان حجة لمودعه بعد نسخه في الدواوين بالحضرة، إن شاء الله تعالى⁽²⁾.

2.3.3 التقاليد:

جمع تقليد وتجمع أيضاً تقاليدات، يقال قلّدت أمر كذا إذا وليته إياه⁽³⁾. قال ابن الرارزي: مأخوذ من القلادة في العنق يقال قلّدت المرأة فتقلّدت، قال : ومنه التقليد في الدين⁽⁴⁾. والتقليد يشتمل على طرة ومتن⁽⁵⁾، ويرى علي بن خلف في مواد البيان أن التقليد هو أن يقلّد بولاية أحد الولايات أو المناصب⁽⁶⁾.

(1) لعل الصواب ((وبلغت مواقع)).

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص143-146.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص101.

(4) ابن الرارزي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، (ت666هـ/1267): مختار الصحاح، مكتبة النوري، دمشق، باب قلد، ص548.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص101.

(6) علي بن خلف، مواد البيان، ص633-634.

ولقد رسم علي بن خلف لنا من خلال التقليد الذي كتبه في عصر الخليفة المستنصر بالله حقيقة التقاليد التي كانت تصدر بتعيين الوزراء في العصر الفاطمي، ولقد الخوض في أعماق هذه التقاليد لا بد لنا من معرفة أن الوزارة في العصور الإسلامية كانت تنقسم إلى نوعين: وزارة تنفيذ ووزارة تفويض.

ويكون الوزير في وزارة التنفيذ منفذا لأوامر الخليفة، بحيث لا يعقد ولا يبرم أمرا إلا بعد استشارة الخليفة، وكان هذا في عهود الخلفاء ذوي الشخصيات القوية والتي كانت لا تسمح للوزير أن يطغى أو يستبد بالحكم دونهم.

ويكون الوزير في النوع الثاني مفوضا من الخليفة بمباشرة أمور الدولة أي بمعنى آخر يتولى بنفسه الحكم دون الخليفة، ولا يكون هذا في فترات الضعف أو عندما يكون الخلفاء أطفالا صغارا أو شخصيات ضعيفة لا حول لها ولا قوة.

والعصر الفاطمي في مصر انقسم إلى شطرين: الشطر الأول كانت الخلافة قوية وشديدة، وكان الخلفاء من أمثال المعزّ والعزّيز والحاكم ذوي شخصيات قوية ظلوا بالتالي كان وزراءهم وزراء تنفيذ؛ وفي الشطر الثاني كان الخلفاء ضعافا أو صغار السن وكانت الوزارة وزارة تفويض ، وأصبح الوزراء هم أصحاب السلطة الفعلية؛ يستبدون بمأور الحكم جميعا . وقد "حدث هذا التطور في منتصف عهد الخليفة المستنصر عندما قصرّ النيل في فيضانه وحلّت المجاعة في البلاد امتدّت قرابة سبع سنين"⁽¹⁾ وعندما اضطربت أمور البلاد وسادتها الفوضى، واستجد بقائده بدر الجمالي والي عكا، وولي الوزارة للمستنصر ، وأعاد النظام إلى ربوع البلاد وقضى على الفتن، وأصبح منذ ذلك الحين صاحب الحل والعقد ولم يعد للمستنصر معه تصرف، ووضع التقليد منذ ذلك الحين أن ينزوي الخليفة وأن يصبح الوزير هو صاحب السلطان، وتتابع الوزراء بعد بدر الجمالي إلى نهاية الدولة وهم على هذا الوضع حتى سُمي الشطر الثاني من العصر الفاطمي بعهد الوزراء العظام.

وعودة إلى التقليد الذي كتبه ابن خلف، نجد أن التقليد بدأ بالحمد كالعادة ويثني بالصلاة على محمد خاتم الأنبياء وعلى عليّ "أكمل الوزراء" وعلى الأئمة من ذريتهما.

(1) المقرئزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر زياد والشيال، الطبعة الثانية، القاهرة، 1957.

ثم يستطرد الكاتب مبيناً أهمية الوزارة ، وكالعادة يلتمس لها السند من أصول المذهب الشيعي مستشهدا بالسابقة الأولى وهي اتخاذ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام علياً وزيرا له، ويأتي بشاهد آخر من كتاب الله عز وجل ومن قول موسى ﴿وَجْعَلْ لِّي زَيْرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾⁽¹⁾ ومن قول النبي عليه الصلاة والسلام لابن عمر "من كهارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"⁽²⁾ ثم يخاطب الخليفة في هذا التقليد وزيره فيقول : إنه عجم عود الرجال يرتاد لوزارته حقيقا بها "حتى انتهت رؤيته إليك، فراك لها من بينهم أهلا " ولهذا ولآه النظر في مملكته وأعمال دولته برها وبحرها، وسهلها ووعرها، وبدوها وحضرها، ورد إليه سياسة رجالها وأجنادها وكتائبها وعرفائها ورعيته ودواوينها وارتفاعها ووجوه جبايتها وأموالها.

ويستمر الخليفة في حديثه لوزيره فيذكره رغم علمه بحصافته وفطنته وتجربته متور الحكم الذي يجب عليه أن يلتزمه، فينصحه بالحلم والرفق ومراعاة العدل بين الرعية، وثواب المحسن وعقاب المسيء.

ثم يتطرق الخليفة إلى السياسة التي يرسمها للوزير ليتبعها حيال طبقات رلحا الدولة والرعية، والخليفة ي نص على طبقتين هامتين من طبقات رجال الدولة وهما: الأجناد، والكتاب المستخدمون في استخراج الأموال. أما وصيته عن طوائف الأجناد فيقول فيها لوزيره:

أما طوائف الأجناد فتقرهم على مراتبهم في ديوان الجيش المنصور، وتسديد الأمور، وتراعي وصول أطماعهم إليهم، أوقات الاستحقاق إليهم"⁽³⁾ وفي وصيته بالكتاب فيقول: أما الكتاب المستخدمون منهم في استخراج الأموال، وعمارة الأعمال فتخصص كفاتهم بما تقتضيه كفايتهم وأمناءهم بما توجبهم أمانتهم، وتستبدل بالعاجز الخبيث الطعمة والطع المستشعر شعار النعمة ليحتفظ النزه المأمون

(1) سورة طه، الآيات 29-31.

(2) محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته حديث رقم 1484.

(3) جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص 278.

نزاهته وأمانته، ويقلع الدنس الخئون عن دنسه وخيانتته، وتأمّر من تختاره لخدمة
أمير المؤمنين منهم رأ يسير بالسبب لفاضلة، ويعملوا على الرسوم العادلة، فلا
يضيعوا حقاً لببت مال المسلمين، ولا يخيفوا أحداً من العاملين⁽¹⁾.
وأما الرعية:

فليأمر أن تحكم بينها بال سوية وتعتمدها بعدل القضية، وترفع عنها نير
الجور، وتحميها من ولالة الظلم، وتسوسها بالفضل والرافة متى استقامت على
الطاعة، وتأدبت في إ تبليغها متى أجرت إلى المنازح و الافتتان، وأصرت
على مغضبة السلطان⁽²⁾ ثم يختتم الخليفة السجل بالدعاء لوزيره بالتوفيق في عمله
وفي تحمّل أعباء هذه الوظيفة الخطيرة.

وتقليد آخر وضع واستمر منذ بدر الجمالي إلى نهاية الدولة وهو أن يكون
الوزير من رجال السيف ومن رجال القلم كما كان العهد في الشطر الأول - وأن
يكون له الإشراف على رجال القلم من كتّاب وقضاة ودعاة وعلى رجال السيف من
أجناد وأمرأء جميعاً.

ويتضح مما سبق أن التقاليد في العصر الفاطمي تميزت بمميزات منها
الإطالة، والاستشهاد بالقرآن الكريم، وبث روح التشيع من خلال هذه التقاليد وبداية
التقاليد بالحمد والثناء والصلاة على سيدنا محمد خاتم الأنبياء . وعلى الإمام علي
وعلى الأئمة وذريتهم أ. ثم الثناء لمن كتب بحقه هذا التقليد ثم بعض الوصايا يتطرق
إليها من خلال هذا التقليد، ويختتم عادة الخليفة التقليد بالدعاء وبالتوفيق للوزير أو
من كتب بحقه هذا التقليد.

ومن الأمثلة على التقاليد "تقليد من إنشاء ابن خيران":

سجل تقليد من إنشاء ابن خيران:

وقام في الأمر بعده ألي بعد الخليفة الحاكم وإله أبو الحسن علي الظاهر
لإعزاز (دين) الله؛ وأخذت له البيعة بعد أبية في يوم عيد النحر من سنة 411هـ،
واستقامت الأمور بعد ميلها، وأمنت النفوس بعد وجلها، وحسنت السيرة بعد قبجها،

(1) المرجع السابق، ص281.

(2) المرجع السابق، ص281، ملحق الوثيقة صفحة 277-282 الشيال.

وارتضيت السياسة بعد النفور عنها؛ ورُدَّ تدبُّير الأعمال والنظر فيها، وتسديد الأحوال ولمَّ ما تشعَّت منها، إلى الوزير صفى أمير المؤمنين وخالصته، أبي القاسم على بن أحمد الجرجاني؛ وكتب له السجلُّ بالتقليد من إنشاء ولى الدولة أبي علي بن خيران - متولى الإنشاء وقرىء بالحضرة على القواد والمقدمين في ذي الحجة سنة 418هـ؛ ونسخته بعد البسملة:

(أما بعد، فالحمد لله مطلق الألسن بذكره، ومجزل النعم بشكره ومصرف الأمور على حكم إرادته وأمره؛ الذي أستمحمد بالطول والنعماء، وتمجَّد بالحكمة والسناء، وملك ملكوت الأرض والسماء، واستغنى عن الظهراء والوزراء؛ وأكرم عباده بأن جعل تذكرت لهم في صحفٍ مكرمة، مرفوعةٍ مطهرة، بأيدي سفرة، كرم بررة، فسبحان من نظر لخلقه فأحسن وأنعم، وعلم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم).
يحمدُه أميرُ المؤمنين حمد مخلص في الحمد والشكر، متخصص بشرف الأمانة ونفاذ النهي والأمر، ويرغب الله تعالى في الصلاة على نبيه محمد الذي نزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيراً، وعزَّ به الإيمان وجعل له من لدنه ⁽¹⁾ سلطاناً تصيراً، وانتخب أباناً علياً أمير المؤمنين أخاً ووزيراً، وصيَّره على أمر الدين والدنيا منجداً له وظهيراً؛ صلى الله عليهما وسلم في العترة الزاكية من سلالتهما سلاماً دائماً كثيراً.

وإنَّ أحقَّ مَنْ عُوِّل في الوزارة ونصب لحفظ الأموال وتمييزها وسياسة الأعمال وتدبيرها، وإياله طوائف ⁽²⁾ الرجال كبيرها وصغيرها، من كان حفيظاً لما يستحفظ من الأمور، قووماً بمصالح الجمهور، عليماً بمجاري السياسة والتدبير؛ ولا ذلك قال يوسف الصديق - عليه السلام - : (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) ⁽³⁾.

ولو أستمغنى أحد من رعاة العباد عن وزير وظهير يكاتبه على أمره ويظاھرُه، لكان كلیم الله موسى - صلى الله عليه - وهو القوى الأمين عنه مستغنيا، ولم يكن له

(1) الأصل ((لديه)).

(2) الأصل ((طوائف)).

(3) سورة يوسف الآية 55.

من الله - جلّ جلاله - طالباً مستدعياً، وقد قال: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي { 25 } وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي { 26 } وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي { 27 } يَفْهَمُوا قَوْلِي { 28 } وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي { 29 } هَارُونَ أَخِي { 30 } أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي { 31 } وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي { 32 } كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا { 33 } وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا) (1).

ولما كنت بالأمانة والكفاية علماً، عند أهل المعرفة والدراية مقدماً؛ وكان الكتاب على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم يسلمون إليك في الكتابة، ويقتدون بك في الإصابة، ويشهدون لك بالتقدم في العناء، ويهتدون به حلمك اهتداء السَّقَر بالنجم في الليلة الظلماء، ولا يتناكرون الانحطاط عن درجتك في الفضل لتفاوتها في الارتفاع، ولا يَرُدُّ ذلك رادًّا من الناس أجمعين إلا خصمه وقوع الا جماع؛ هذا مع المعروف من أَسْتَقْلَالِكَ بالسياسة، وأَسْتِكْمَالِكَ لأدوات الرياسة، وتدبيرك أمور المملكة؛ ومـ ألف بُرْشَدٍ وساطتك من سمو اليمن البركة.

رأى أمير المؤمنين -وبالله توفيقه - أن يستكفيك أمر وزارته، وينزلك أعلى منازل الاصطفاء بخاص أثرته، ويرفعك على جميع الأكفاء بتام تكرمته، وينوّه باسمك تنويها لم يكن لأحد قبلك من الظهراء في دولته؛ فسمّاك بالوزير لمواز رتك له على حمل الأعباء؛ ووَكَّدَ هذا الاسم بالأجل لأنك أجلُّ الوزراء؛ وعزَّز ذلك بصفى أمير المؤمنين وخالصته إذ كنت أعز الخلصاء والأصفياء؛ وشرَّفك بالتكنية تسميقاً بك في العلياء؛ ودعا لك بأن يمتعه الله بك ويؤيدك ويعضدك دعاءً يجيبه فيك رب السماء؛ فأنت الوزير الأجلُّ صفى أمير المؤمنين وخالصته المحبب بالمرّ الجسيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأمر أمير المؤمنين بأن تدعى بهذه الأسماء وتُخَاطَبُ، وتُكْتَبَ بها عن نفسك وتُكَاتَبُ، ورسم ذكر ذلك فيما يجرى من المحاورات، وإثباته في ضروب المكاتب، ليثبت ثبوت الاستقرار، ويبقى رسمه على مرّ الليالي والنهار.

(1) سورة طه، الآيات 25-34..

فأحمد الله تبارك وتعالى على تمييز أمير المؤمنين لك بتشريفه واختصاصه، وإجلاله إياك أعلى محال خواصه؛ واجرٍ على سننك الحميد في خدمته، ومذهبك الرشيد في مناصحته؛ إذ كان قد فوّض إليك أمر وزارته، وجع لك الوسيط بينه وبين أوليائه وأنصار دعوته، وولاة أعمال مملكته، وكتاب دواوينه وسائر عبيده ورعيته، شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً⁽¹⁾؛ وامض توقيع من تنصبه للتوقيع عن أمير المؤمنين في الإخراج والإنفاق، والإيجاب والإطلاق، وناط بك أزمة الحل والعقد، والإبرام (82) والنقض، والقبض والبسط، والإثبات والحط، والتصريف والصرف؛ تفويضاً إلى أمانتك التي لا يقدح فيها معاب، وسكونا إلى ثقتك التي لا يلم بها ارتياب؛ وعلماً بأنك تورّد وتصدر عن علم وحزم تفوق فيها كل مقاوم، ولا تأخذك في المناصحة لأمر المؤمنين والاحتياط له لومة لائم وجميع ما يوصى به غيرك ليكون له تذكرة وعليه حجة، فهو مستغنى عنه معك لأنك تغنى بفرط معرفتك عن التعريف، ولا تحتاج مع وقوفك على الصواب وعلمك به إلى توقيف.

غير أن أمير المؤمنين يؤكد عليك الأمر بحسن النظر لرجال دولته دانيهم وقاصيهم، بارك الله فيهم، وأن يتوفّر على ما يعود بصلاح أحوالهم، وانفساح آمالهم، وانشرّاح صدورهم، وانتظام أمورهم؛ إذ كانوا كتائب الإسلام، ومعامل الأنعام، وأنصار أمير المؤمنين المحفوفين بالإحسان والإنعام، حتى تحسن أحوالهم بجميل نظرك، ويزول سوء الأثر فيهم بحسن أثرك؛ وكذلك الرعايا بالحضرة وأعمال لدولة فأمرهم من المنية والمسئول عنه؛ وأمير المؤمنين يأمر بك بأن تسد تشف خيرة الولاية فيهم، فمن ألفيته من الرعية مظلوماً أو عزّت بنصفته؛ ومن صادفته من الولاة ظلوماً تقدمت بصرفه وحسم مضرتة ومعرته.

فأما الناظرون في الأموال، من ولاة الدواوين والأعمال، فقد أقام أمير المؤمنين عليهم منك المنقى الزكاء، طبّاً بالأدواء، لا يصانع، ولا تطيبه المطامع، ولا ينفق عليه المنافق، ولا يعتصم منه الخؤون السارق، كما أنه لا يخاف لدية الثقة الناصح، ولا يخشى عاديتة الأمين في خدمته المجتهد الكادح.

(1) الأصل: ((قرباً وبعداً)) ولا تستقيم بها السجعة.

والذي يدعو المتصرف إلى أن يحمل نفسه على الخطئة النكراء، في الاحتجار والارتشاء، أحد أمرين: إما حاجة تضطره إلى ذلك، (وإما) جهالة تورده المهالك؛ فإن كان محتاجاً، سدّ رزق الخدمة فاقتته، ورجا الراجون برّءه من مرض الإسفاف وإفاقتته؛ وإن كان جاهلاً، فالجاهل لا يبالي على ما أقدم عليه، ولا يفكر في عاقبة ما يصير أمره إليه؛ ومن جمع هذين القسمين كانت نفسه أبداً تسفّ ولا تعفّ، ويده تكفّ ولا تكفّ، ووطأته تثقل ولا تخفّ، فلا ترّب من تنزّه وعفّ، ولا أثرى من رضى لنفسه بدنئ المكسب وأسفّ.

وما يستزيدك أمير المؤمنين على ما عندك من حسن التّأني والاحتياط جتهاد في إصلاح الفاسد، واستصلاح المعاند، واستفاعة الشارد بالمعصية إلى طاعته، وإعطاء رجال الدولة ما توجب لها حقوق الخدمة من فضل نعمته.

وأمير المؤمنين يقول بعد ذلك قولاً يؤثر عنده في المشرق والمغرب، ويصل إلى الأبعد والأقرب، إن أكثر من وقع عليه اسم الوزارة قبله إنما تهياً له الحظ والاتفاق، ولم يوقع أسمها عليك ويعزف بك أمرها إلا باستجاب واستحقاق، لأنها احتاجت إليك حاجة الرمح على عامله، والعبء إلى حامله، والمكفول إلى كافله؛ وكم أفرجت عن الطريق إليها لسواك، وأجتهدت أن يعدوك مقامها إكباراً له فما عداك. والله يكبت⁽¹⁾ بجميل رأى أمير المؤمنين خسدتك وعداك، ويتولّاك بالمعونة على ما قلّدتك وولاك، ويمتعه ببقائك، كما أمتعه بكفايتك وغنائك، ويخير له في استيزارك، كما خار له من قبل في اصطناعك وإيثارك، بمنه وكرمه.

والسلام عليك ورحمة الله.

وكتب يوم الجمعة لأثنى عشرة خلت من ذي الحجة سنة 418هـ⁽²⁾.

3.3.3 الإقطاعات:

أما الإقطاعات فجمع إقطاع ومصدره أقطع، والقطيع الطائفة من أرض الخراج.

(1) الأصل: ((يكتب))، ولا يستقيم بها المعنى.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 80-83.

وأما أصلها في الشرع فما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده إلى ابن سيرين عن تميم الداري أنه قال : "استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضاً بالشام قلّه أن تفتح فأعطانيها ، ففتحها عمر بن الخطاب في زمانه فأتيته، فقلت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أعطاني أرضاً من كذا إلى كذا، فجعل عمر تلتها لابن السبيل، وتلتاً لعمارتها، وتلتاً لنا"(1).

وقد ذكر القلقشندي أنها كان يكتب في الإقطاعات عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية على نحو مما كان يكتب فيها عن خلفاء بني العباس(2). وكانت طريقة كتاب الخلفاء العباسيين في كتابة الإقطاعات أن يكتب فيها "هذا كتاب من فلان (يلقب الخليفة) إنك ذكرت من أمر ضيعتك الفلانية كذا وكذا، وسألت أمير المؤمنين في كذا وكذا، وقد أجابك أمير المؤمنين إلى سؤالك في ذلك ونحوه"(3).

وقد رسم علي بن خلف في مواد البيان رسم هذه الإقطاعات، وذكر: "أمير المؤمنين بما وهبه الله تعالى من شرف الأعراق، وكرم الأخلاق ومنحه من علو الشأن، وارتفاع السلطان الخ" فوجد المؤلف في بداية هذا الرسم يشيد بأخلاق ومكانة وعلو شأن الخليفة المعطي لهذا الإقطاع. ثم ينتقل المؤلف في تحديد مقدار ما قطعه حيث يقول : "رأى أمير المؤمنين مضاعفة أياديه لديه، ومواصلة إنعامه إليه وإجابة سؤاله، وإنالته أقاصي آماله..... خرج أمره بإنشاء هذا المنشور بأنه قد أقطعه الناحية الفلانية، لاستقبال سنة كذا بحقوقها وحدودها، وأرضها العامرة ووجوه جبايتها" وينص على كل حق من حقوقها وحد من حدودها، فإذا استوفى القول عليه، قال : إنعاماً عليه، وبسطاً لأمله، وإيانة

(1) ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (499هـ—571م)،

تاريخ مدينة دمشق، تحقيق حمدي الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروري، ط 1، دار الفكر العربي، بيروت، 1995، ج11، ص68،

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص139.

(3) المرجع السابق، ج13، ص130.

عن خطره، فليعلم ذلك كافة الولاة والنظار والمستخدمين من أمير المؤمنين ورسمة، ليعملوا عليه وبحسبه وليحذروا من تجاوزه وتعدّيه⁽¹⁾.

وهذه نسخة سجلّ بإقطاع عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين أيضا لبعض أمراء الدولة، من إنشاء القاضي الفاضل وهي:

"أمير المؤمنين وإن عمّ جوده كما عمّ فضل وجوده، وسار كثير إحسانه وبرّه في سهول المعمورة ونجوده، ورحم الله الـ خلق بما استأثره دون الخلائق من قربه في سجوده فإنه يخص بني القربى من جدّه، والضاربين معه في أنصباء مجده، من سلالة الزكيّة وطينته المسكيّة وأعراقه الشريفةالخ.

ولما عرضت بحضرته ورقة من ولده الأمير فلان الذي أقرّ الله به عين الإسلام، وأنجز به دين الأيّام، وأطلعه بدرا في سماء الحسب، وجلا بأنواره ظلام النوب، وامتاح⁽²⁾ من مذبح النبوة وارتوىالخ. خرج أمير المؤمنين إلى فتاه وناصره ووزيره ومُظَاهِرِه، السيد الأجل الذي انتصر الله به لأمر المؤمنين من أعدائه وحسم بحسامه ما أعضل من عارض الخطب ودائهالخ.

ونفذت أوامره بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل إلى الديوان الفلاني بإقطاعه الناحية وما معها منسوباً إليها وداخلا فيها لاستقبال سنة كذا، منحة سائغة، لا يعترضها التكدير، ونعمة سابغة لا ينقضها التغيير، وحباء موصول الأسباب، وعطاء بغير من ولا حساب، يتحكم فيه على قضايا الاختيار، وتنفذ فيه أوامره الميمونة الإيراد والإصدار⁽³⁾.

4.3.3 الهدن:

هَدَنَ يَهْدِنُ هَدُونًا : سَكَنَ. وَهَدَنَهُ أَي سَكَّنَهُ، وَهَادَنَهُ مَهَادَنَةً، صَالِحُهُ وَالْإِسْمُ مِنْهُمَا الْهَدَنَةُ، وَأَصْلُ الْهَدَنَةِ السُّكُونُ بَعْدَ الْهَيْجِ، وَيُقَالُ لِلصَّلَاحِ بَعْدَ الْقِتَالِ وَالْمَوَادَعَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ وَبَيْنَ كُلِّ مِتْحَارِبَيْنِ. وَتَأْتِي الْهَدَنَةُ بِمَعْنَى الدَّعَاةِ وَالسُّكُونِ⁽⁴⁾.

(1) علي بن خلف، مواد البيان، ص 631، 632.

(2) امتاح: استقى.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 13، ص 142، 143.

(4) لسان العرب، باب هَدَنَ، ص 434، 435.

ويقول علي بن خلف : "وهذا الفن من المكاتبات له من الدولة موضع خطير، ومن المملكة موقع أثير . ويتعين على الكاتب أن يُخلي له فكره، ويعمل فيه نظره، ويتوفر عليه توفراً يحكم مبادئه، ويهذب معانيه وأن يتحيط من سقط يدخل على الشريعة نقيصة⁽¹⁾ أو يجرّ إلى السلطان وهـ يصة⁽²⁾، وأن يأتي بما يدلّ على علو الكلمة، وعزّ الأمة وانبساط القدرة وحضور النصرة الخ، ليعود ذلك بالرفع من أهل الدين والوضع من المخالفين"⁽³⁾.

"وفي الشرع: الهدنة عبارة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة والأصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر أو بين نائبيهما، أو بين أحدهما ونائب الآخر . وعلى ذلك رتب الفقهاء رحمهم الله - باب الهدنة في كتبهم"⁽⁴⁾.

وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التوادع والتسالم، واعتقاد المودة والتصافي، والتوازر والتعاون، وال تعاضد، ويشترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده الخ والانقياد إلى أتباع والطاعة أو الإكرام، وامتنال الأوامر والنواهي؛ وغير هذا ما لا يحصى . والكاتب إذا استقرى المعاني التي يقع فيها الاصطلاح عليها، وكان ذا طبع قويم، وخاطر سليم، تهيأ له الاحتياط فيها بما يحتاط به في مثلها⁽⁵⁾.

وقد أوضح علي بن خلف في مواد البيان الرسم في الهُـ رَ وهي أن تُفتَح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أدلّ به كل دين وأعزّه، وال توغل في توحيد وتقديسه وتمجيدته والثناء على به بآلائه، والصلاة على خيرة أنبيائه، محمد صلى الله عليه وسلّم وعلى آله. ثم يذكر رغبة الخلفاء الراشدين عليهم السلام أجمعين في السلم الذي حضّ الله تعالى عليه، فقال جلّ قائلاً : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ

(1) نقيصة، العيب، لسان العرب، باب نَقَصَ، ص101.

(2) هيصة، ما يغمز منه ويحط من قدره، لسان العرب، مادة وَهَصَ، ص308.

(3) علي بن خلف، مواد البيان، ص529.

(4) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص5.

(5) علي بن خلف، مواد البيان، ص531.

لَهَا⁽¹⁾.... ثم يقدم مقدمة تكون بساطاً لذكر السبب الذي أوجب عقد الهدنة، وأوجب قبول المودعة ثم يشفع الشروط التي انعقدت عليها المسالمة، مستظهراً فيها للدين على المعاهدين، وليتحرّرين خلل يتطرق به إلى نقض شيء مما شرط، أو استعمال لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة توجد السبيل إلى التأول، وليأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة ولا تتطرق إليه مناقضة، ويؤكد الشرط في حفظ تجار المسلمين، ورعاية المسافرين، وصونهم برّاً وبحراً وسهلاً⁽²⁾. وقد رسم علي بن خلف رسماً يُحتذى الكاتب به متى احتاج إلى استعماله مثله؛ وهو يقول فلان بن فلان والله الطالب الغالب، المدرك المهلك، الضار النافع، المطلع على السرائر والخفايا، العالم بما تجنّه الضمائر والطوايا، الذي لا تخفى عليه خافية الأعين وما تخفي الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازي لها بما احتقبت، وحق محمد صلى الله عليه وسلم، وحق القرآن العظيم المنزل على قلبه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنه يفي بما تضمنه هذا العقد، ولا يخالف شيئاً من أحكامه وحدوده، ولا ينقض عهداً ولا عقداً ولا شرطاً من عهوده وشروطه وعقوده، ولا يعمل بما يخالفه وينافيه، ولا يتأول وجهاً من وجوه التأويل فيه وعليه، بذلك عهد الله وميثاقه وما أخذه على ملائكته ورسله وأنبيائه⁽³⁾. وللهدنة أو للكتاب الذي يكتب بشأنها (طُرّة) تبدأ بلفظ هذا عقد صلح"، أو هذا كتاب هدنة"، أو "هذه مودعة"، أو "هذه مواصفة" ثم تلي ذلك أوصاف لهذه الهدنة بأنها ناجحة ومؤدية إلى الخير العام ونحو ذلك. وأما متن الهدنة فيبدأ بلفظ "هذا ما هادن عليه" أو "هذه هدنة أو مودعة أو مواصفة أو صلح" وقد يفتح المتن بلفظ "أما بعد. فهذا كتاب مهادة" أو "مواصفة". وهذا كله بين الملك المسلم وأخيه الملك المسلم، فإذا كانت المكاتبة بين ملك مسلم وآخر غير مسلم، فإن المكاتبة تفتح بلفظ "هذه هدنة" أو بلفظ "استقرت الهدنة

(1) سورة الأنفال، الآية 61.

(2) علي بن خلف، مواد البيان، ص 529-531.

(3) المرجع السابق، ص 531، 532.

بين فلان وفلان " وقد تفتتح المهادنة بخطبه تبدأ بحمد الله على ما يكون في المكاتبات الخاصة بالولايات"⁽¹⁾.

وفي أوائل عهد المستنصر بالله عقد هذا الخليفة هدنة مع الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة (429هـ، 1037م) سمح له بإتمام إصلاح كنيسة القيامة على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، فأخلى الإمبراطور سبيل الأسرى ، وأرسل المعمارين إلى بيت المقدس، وأنفق كثيراً من الأموال على تجديد بناء هذه الكنيسة⁽²⁾.

5.3.3 الكتب عند حدوث الآيات السماوية:

جرت العادة أن يكتب السلطان إلى الرعايا عند حدوث الآيات الموهولات التي يريد الله تعالى بها إرشاد عباده إلى الإقلاع عن معصيته، والإقبال على طاعته، كالرياح والعواصف، والزلازل والصواعق، واحتباس القطر وخروجه في التسكاب عما جرت به العادة ، يكتبلمنها من الوعظ الشافي والرقيق ما يأخذ بمجامع القلوب ويشعرها التقوى والرغبة ويبعث على المراقبة⁽³⁾.

والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله على آلائه التي يفيضها ابتلاء واختباراً ، وآياته التي يرسلها تخويفاً وإنذاراً، وموهبته في التوقيف بسابغ نعمته على طاعته والتحذير بدافع نعمته من معصيته، والصلاة على رسوله الذي أنقذ بشفاءته، وعصم من نزول القوارع بنبوته . ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدم الإعذار أمام سخطه وعذابه، ويبدأ الإنذار قبل غضبه وعقابه، فمن استيقظ من سنته، ونظر لعاقبته، ونزع إلى طاعته، وأقلع عن معصيته، كشف ضرره، وضاعف أجره، ومن أضرب

(1) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص17، 18.

(2) أبو الفداء إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه (ت 732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص158.

(3) علي بن خلف، مواد البيان، ص519، 520.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص315.

عن موعظته، وتلمى عن تبييه وتذكرته أخذه على غرته، وسلبه سربال⁽¹⁾ نعمته⁽⁴⁾.

ثم يؤخذ⁽⁵⁾ في حث الأئمة على فزع إلى الصلوات، والمسارة إلى بيوت العبادات والإكثار من التضرع والخشوع، والاستكانة والخنوع، وإذراء الدموع، وإخلاص التوبة عن محتقب الآثام ومجترح الأوزار، والتوسل إلى الله في قبول الإنابة بقلوب نقية، وطويّات على الطهارة مطويّة، وسرائر صحيحة ونّيّات صريحة، يصدّقها الندم على الماضي، وعقد العزم على الإقلاع في الآتي، والرغبة إليه في رفع سخطه وإنزال رحمته، وما يجري هذا⁽⁶⁾.

وينبغي للكاتب أن يتلطف في الموعظة، ويبالغ في الذكرى التي تحصر الخواطر، وتقذح الأنفس، وتحرك العزائم نحو الإخلاص، فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صورة تشعر الخيفة من غضب الله تعالى وعقابه، وترغب في عفوه وثوابه، نفع الله من رغب عن الهوى، ورغب في التقوى بكتابه⁽²⁾.

6.3.3 الكتب في التوفقة بين السنين الهلالية والخراجية:

لا شك أن استحقاق وجباية الخراج منوطة بالزروع والثمار، من حيث أن الخراج يؤخذ منها . وأن هذه الزروع والثمار منوطة بالشهور والسنين الشمسية، من حيث أن كل نوع منها يظهر في وقت من أوقاتها ملازم له لا يتحول عنه، واستخراج الخراج في الدين الإسلامي مرتبط بتاريخ الهجرة النبوية شهوره وسنينه عربية، والشهور العربية تنتقل من وقت إلى وقت، فربما كان استحقاق الخراج في أول سنة من السنين العربية، ثم تراخى الحال فيه إلى أن صار استحقاقه في أواخرها، ثم تراخى حتى صار في السنة الثانية فيصير الخراج منسوباً للسنة السابقة

(1) سربال: القميص أو كل ما يلبس، المنجد في اللغة والأعلام، باب سرب، ص329.

(4) علي بن خلف، مواد البيان، ص520

(5) المصدر السابق، ص520، 521.

(6) المصدر السابق، ص521

واستحقاقه في السنة اللاحقة فيحتاج حينئذ إلى تحويل السنة الخراجية السابقة إلى التي بعدها⁽¹⁾.

ويرد علي بن خلف في مواد البيان أن السبب في انفراج ما بين السنين الشمسية والهجالية أن أيام السنة الشمسية هي المدة التي تقطع الشمس الفلك فيها دفعة واحدة وهي ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم بالتقريب حسب ما توجبه حركتها، وأيام السنة الهجالية هي المدة التي يقطع القمر الفلك فيها اثنتي عشرة دفعة، وهي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وسدس يوم، فيكون التقاوت بينهما أحد عشر يوما وسدس يوم، فتكون زيادة السنين الشمسية على السنين الهجالية في كل ثلاث سنين شهرا واحدا وثلاثة أيام ونصف يوم تقريبا وفي كل ثلاث وثلاثين سنة، سنة بالتقريب، فإذا تمادى الزمان تقاوت ما بين السنين تقاوتا قبيحا، فيرى السلطان عند ذلك أن تنقل السنة الشمسية إلى السنة الهجالية بالاسم دون الحقيقة توفيقا بينهما، ومتى أوعز بذلك لم يقف على الغرض فيه إلا الخاصة، دون العامة، وأسرع إلى ظن المعاملين وأرباب الخراج أن ذلك عائد عليهم بظلم وحيف، وإلى ظن الجند ومستحقي الإقطاع أنه منتقص لهم فرسم بلغاء الكتاب في هذا المعنى رسوما تعود بتفهيم العبيد وتبصير العمي وتوصل المعنى إلى المراد الكافة إيصالا يتساوون في تصديقه وتيقنه ولا يتوجه عليهم شبهة ولا شك فيه⁽²⁾.

وهو أن تفتتح الكتب بعد التصدير والتحميد بأن أمير المؤمنين بما وفقه الله تعالى من النظر في مصالح المسلمين والأخذ بعزائم الدنيا والدين، لا يجد ثغرة فيها خلل إلا سهوا، ولا مزلة يتوجه بها زلل إلا مهذها ووطدها..... وأمير المؤمنين يسأل الله تسديده في كل ما يحل ويعقد.

ثم يقال: وإن الله تعالى هداانا بتبصرته إلى الوقوف على عجائب صنعته، وأقدرنا بالتمييز الذي خصنا بفضيلته، على التطرق إلى علم الغائبات عن حواسنا من دقائق حكمته، وأوجدنا السبيل بما منحنا من التحصيل والإدراك، إلى الإحاطة بحركات النجوم والأفلاك العلم بما يحدث بينها من مازجة واتصال..... الخ فقال

(1) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص58، 59.

(2) انظر علي بن خلف، مواد البيان، ص58، 59، 60.

جل قائلًا ﴿الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (1).

وقال تعالى: ﴿الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (2)
ليدلَّ جلَّ اسمه على تفصيل حالاتها وتغاير الأزمنة باختلاف حركاتها، ويذكر الغاية في اختلاف السنين الشمسية والهلالية.

ثم يقال: وقد رأى أمير المؤمنين، والله يوفق آراءه نقل سنة كذا الخراجية إلى سنة كذا الهلالية، فاعمل بما تضمنته كتابه هذا؛ وتقدّم إلى من قبلك من العمال بإجراء الأمر عليه في جماعاتهم وأعمالهم وأن ينسبوا ما كان جارياً في السنة المنتقل عنها إلى السنة المنتقل إليها . وقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبلك من الأجناد والرعايا والمعاملين، ليعلموا أن هذا النقل لا ينتقص ذا عطاء من عطائه، ولا يتجيف معاملاً في معاملته، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى (3).

ومن الأمثلة على ذلك . الكتاب الذي أصدره الأفضل وزير الأمر سنة 501هـ/1107م وهو من إنشاء ابن الصيرفي:

"..... وقد رأى أمير المؤمنين، وبالله التوفيق، ما خرج به أمره إلى السيد الأجلّ الأفضل الذي نبّه على هذا الأمر وكشف غامضه، وأزال بحسن توصّله تنافيه وتناقضه، أن يوعز إلى ديوان الإنشاء هذا السجلّ مضمناً ما رآه ودبره، مودعاً إنفاذ ما أحكمه وقرّره، من نقل سنة 499 إلى سنة 501 لتكون موافقة لها، ويجري عليها حالها، ويكون ما يستأدونه من إقطاعاتهم ويستخرجونه من واجباتهم جارياً على نظام محروس ونطاق محيط غير منحوس... الخ.

فليعتمد ذلك في الدواوين بالحضرة وفي سائر أعمال الدولة وقاصيها ودانيها وفارسها وشاميها. ويتنبّه كافة الكتّاب والمستخدمين وجميع العمّال والمتصرفين إلى اقتفاء هذه السنن وإتباعه وليحذروا الخروج عن أحكامه المقرّرة وأوضاعه وليبادروا

(1) سورة يونس، الآية 5.

(2) سورة يس، الآيتان 39.

(3) انظر علي بن خلف، مواد البيان، ص 560، 561.

إلى امتثال المرسوم فيه، وليحذروا من تجاوزه وتعديّه ولينسخ في دواوين الأموال
والجيوش المنصورة، وليخلد بعد ذلك في بيوت المال المعمورة . وكتب في محرم
سنة 501هـ/1107م⁽¹⁾.

(1) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج2، ص31-34.

الفصل الرابع

الأساليب والخصائص الفنية للكتابة في ديوان الإنشاء الفاطمي

لقد امتازت المكاتبات التي صدرت عن ديوان الإنشاء الفاطمي بعدة خصائص فنية أهمها:

1.4 الاستشهاد من القرآن الكريم:

كان الكتاب أحياناً يقتبسون في رسائلهم وسجلاتهم وتوقيعاتهم بعض آيات من القرآن الكريم.

فهذا ابن الصيرفي في سجله الذي كتبه سنة (501هـ، 1107م) والذي أصدره الأفضل وزير الأمر يأمر بتصحيح الخراج:

"وَوَقَّه لما يعود على الكافة بشمول الانتفاع، حتى صار استبدال الحقوق بواجبات الشريعة الواضحة الأدلة، واستيفاءه بمقتضى المعد له فيما يجري على الخراج وأوضاع الأهلة، ويرغب إليه في الصلاة على محمد الذي ميّزه بالحكمة وفصل الخطاب، وبيّن ما استبهم من سبل الصواب، وأنزل عليه في محكم الكتاب: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لَعَلُّمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾⁽¹⁾ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب" (2) "ومن أين يستمر بينهما ائتلاف أو يعدم لهما اختلاف، أم كيف يعتقد ذلك من البشر، والله تعالى يقول: ﴿الشَّمْسُ تَبْغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾⁽³⁾ فقد وضح التباعد بما جاء منصوصاً في الكتاب، وظهر برهانه بما اقتضاه موجب الحساب، فيحتاج بحكم ذلك إلى نقل السنة الشمسية إلى التي تليها لتكون موافقة للهلالية وجارية معها"⁽⁴⁾.

(1) سورة يونس، الآية 5.

(2) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج2، ص31.

(3) سورة يس، الآية 40.

(4) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج2، ص33.

ومن هذا القبيل ما جاء في البيعة التي كتبها الوزير أبو الفتح يانس الحافظي عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة ابن عمه الأمر بأحكام الله "..... أما بعد، فالحمد لله اللطيف بعباده وبريته الرؤوف في أقداره وأفضيته، المهيم فلا يخرج شيء عن إرادته ومشيتته؛ ذي النعم الفائضة الغامرة، والمنن المتتابعة المتظاهرة والآلاء المتواليمة المتناصرة، القائل في محكم كتابه : ﴿يَبْتَغِي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾⁽¹⁾ مديراً أرضه بخلفائه، الذين هم زينة للعالم وبهجة، وهادي خلقه بأوليائه لئلا يكون للناس على الله حجة، فسبحان الذي هو للنعم مسبغ وبالكرم جدير، و﴿بَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽²⁾ يحمده أمير المؤمنين أن جعله خليفة دون أهل زمانه ".....⁽³⁾ وظهر من آياته ما كبر له المختون، واشتهر من معجزاته ما خصم به المتعنتون، وخاطب الله فيما أنزل عليه بقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾⁽⁴⁾ فحينئذ نقله الله إلى ما أعد له من جناته وخصه بشرف الشفاعة في يوم مجازاته، وصدقه وعده فيما بوأه من النعيم المقيم: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁽⁵⁾ وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أولى الناس بالنبى".

وهذا سجل كتبه أبو منصور بن سوريين صادر من الإمام الحاكم بأمر الله إلى من شهد الصلاة الجامعة في مساجد القاهرة المعزية ومصر والجزيرة وموضوعه تبرير قتل الخليفة الحاكم بأمر الله لوزيره برجوان: "أما بعد فالحمد لله الذي قال وقوله الحق المبين - : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾* لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ⁽⁶⁾ يحمده أمير المؤمنين على ما أعطاه من خلافته،

(1) سورة إبراهيم، الآية 27.

(2) سورة الملك، الآية 1.

(3) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص301.

(4) سورة الزمر، الآية 30.

(5) سورة الجمعة، الآية 4.

(6) سورة الأنبياء، الآيتان 22-23..

وجعل إليه -دون بريته- البسط والقبض، والإبرام والنقض . معاشر المسلمين:
 إن برجوان كان فيما مضى عبدا ناصحا أَرْضَى أمير المؤمنين حيناً فاستخدمه كما
 يشاء فيما شاء وفعل به ما شاء، كما سبق في العلوم وجاز عليه في المختوم. قال الله
 -عز وجل-: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ
 بَصِيرٌ﴾⁽¹⁾ ولقد كان أمير المؤمنين ملكه، فلما أساء ألبسه النقم، لقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا
 آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾⁽²⁾ وقوله -عز وجل-: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾⁽³⁾ محظرة (كذا) أمير
 المؤمنين عما صبا إليه، ونز (كذا) ما كان فيه؛ وتمت مشيئة الله -عز وجل- ونفذ
 قضاءه وتقديره فيه؛ وكان ذلك في الكتاب مسطوراً⁽⁴⁾.

وهذا توقيع كتبه القاضي الفاضل عن الخليفة العاضد بخط يده في طره عهد
 الوزارة إلى أسد الدين شيركوه، ومستشهدا به من القرآن الكريم:
 "هذا عهد لا عهد لوزير مثله، وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين
 أهلاً لحمله؛ والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله؛ فخذ كتاب أمير
 المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة؛ واتخذ أمير
 المؤمنين للفوز سبيلاً⁽⁵⁾ ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾⁽⁶⁾."
 وهذا توقيع بخط الخليفة العاضد وصادر عنه، بتعيين صلاح الدين بن يوسف
 بن أيوب قبل استقلاله بالسلطنة، وهو:

"هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك، فأوف بعهدك
 ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك؛ ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله

(1) سورة الشورى، الآية 27.

(2) سورة الزخرف، الآية 55.

(3) سورة العلق، الآية 6.

(4) المقرئ، اتعاط الحنفاء بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج 1، ص 298-301.

(5) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 9، ص 427.

(6) سورة النحل، الآية 91.

عليه وسلم - أحسن أسوة، ولمن بقي بقربنا سلوة⁽¹⁾ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوفًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽²⁾ .

وهذا تقليد تعيين وزير صادر عن أحد الخلفاء لم يذكر فيه الوزير المعين
وكاتبه علي بن خلف: وقد أورده القلقشندي في صبح الأعشى:
"وأولى الناس باتخاذ الوزراء واستخلاص الظهراء، من جعله الله إلى حقه
داعيا ولخلفه راعيا، ولدادار الإسلام حاميا، وعن حماه مراميا، واستخلفه على الدنيا
وكلفه سياسة المسلمين والمعاهدين ولذلك سأل موسى -عليه السلام- وهو القوي
الأمين في استخلاص أخيه هارون لوزارته وشدّ أزره بمؤازرته، فقال : ﴿وَجْعَلْ لِي
وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونُ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾⁽³⁾ واستوزر محمد صلى الله عليه وسلم -
وهو المؤيد المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ابن عمّه عليّاً سيد الأوصياء بدليل
قوائمت "مني كهارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"⁽⁴⁾ وإنما تستعين
الأئمة على ما كفلها الله بكفاءة الأعوان، وأهل النصرة في الأديان، وذوي الاستقلال
والتشمير"⁽⁵⁾ .

2.4 العقائد الفاطمية:

فهي منسوبة إلى فرقة شيعية إسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر
الصادق، وقد انقسمت الشيعة بعد وفاة جعفر الصادق إلى فرقتين:
فرقة نادت بإمامة موسى الكاظمي بن جعفر الصادق، وسلسلوا الإمامة في
الأكبر سناً من عقبة، ولذلك لقبوا بالإمامة الإثني عشرية.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص427.

(2) سورة القصص، الآية 83.

(3) سورة طه، الآيات 29-31.

(4) الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، بيروت، المكتب الإسلامي،
ط2، 1986، ج1، ص311. بدل كهارون، بمنزلة هارون، رقم الحديث، 1484.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص398، 399.

ب. الفرقة الثانية تفترعت عن الشيعة فهي فرقة الإسماعيلية، الذين قالوا
بإمامة إسماعيل بن جعفر، والذي تنسب إليه هذه الفرقة⁽¹⁾.

1. الألوهية:

تذهب الإسماعيلية عقائدها دائماً إلى النفي المطلق للصفات عن الله (الذي
يسمونه المبدع الأول) لأنه تعالى فوق متناول العقل والعقل عاجز عن إدراك
كنهه... والإسماعيلية بعد أن تجرد الله - عز وجل من جميع أسمائه وصفاته ،
تحولها إلى أول مبدع أبدعه وهو - كم يزعمون - العقل الأول ، فالواحد - كما
يزعمون - أبدع من نوره أول مبدع وهو (السابق) فهو إذن العقل الأول والحجاب
المفضل ثم ظهر عنه (التالي) من نوره، ثم ظهرت جميع الموجودات منهما وبهما
فالفيض الأول (أي العقل الأول أو السابق) هو أصل الإيجاد ، وهو المبدأ وإليه
المعاد⁽²⁾.

ونرى مما سبق أن الإسماعيلية تقول بتعدد الآلهة ، وترى أن أحدهما عليه لوجود
الثاني، لا بنفسه ... فليبق على التعدد من القرآن، كقوله تعالى : "إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا"⁽³⁾،
"نَحْنُ قَسَمْنَا"⁽⁴⁾، وزعموا أن هذا إشارة إلى جمع يصدر عن واحد⁽⁵⁾.

والإسماعيلية تقول: "إن العقل الأول أو المبدع هو الذي يرمز إليه تعالى بـ
(القلم) في الآية الكريمة "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"⁽⁶⁾، وعلى هذا فالقلم هو الخالق وهو الذي
أبدع النفس الكلية التي رمز إليها القرآن "باللوح المحفوظ"، ووصفت بجميع الصفات
التي للعقل الكلي، إلا أن العقل كان أسبق إلى توحيد الله وأفضل فسمي (السابق)

(1) الخطيب، محمد أحمد، عقيدة الدروز، عالم الكتب، الرياض، ط3، 1989م، ص14-15.

(2) طيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مكتبة الأقصى، عمان، ط1،

1984، ص85-87.

(3) سورة الحجر، الآية: 9.

(4) سورة الزخرف، الآية: 32.

(5) الغزالي، أبو حامد، فضائح الباطنية، ص38.

(6) سورة القلم، الآية: 1-2.

وسميت النفس (بالتالي)، وبواسطة العقل والنفس وجدت جميع المبدعات والمخلوقات من جماد وحيوان ونبات وإنسان وما في السموات من نجوم وكواكب⁽¹⁾.

فالخالق عند الإسماعيلية إذن هو العقل الكلي والنفس الكلية، وبمعنى آخر إن ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خلعه الإسماعيليون على العقل الكلي فهو الإله عند الإسماعيلية، وإذا ذكر الله عند الإسماعيلية فالمقصود هو العقل الكلي، وهذه الصفات التي أسبغوها على العقل الأول أو السابق وعلى التالي كذلك لم تعلنها الإسماعيلية عبثاً، بل جاءوا بها لإسباغ صفة خاصة على الإمام، ذلك أنهم ذهبوا إلى أن العقل الكلي في العالم العلوي يقابله في العالم الجسماني ومعنى هذا عندهم أن كل الأسماء والصفات التي خلعت على العقل الكلي هي أيضاً صفات وأسماء للإمام، لأن الإمام مثلاً للعقل الكلي، فأسماء الله الحسنى التي قالوا إنها أسماء للعقل الكلي هي أسماء للإمام، فالإمام إذن هو الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، والمنتقم، والجبار... إلخ من الأسماء، ولذلك قال ابن هاني الأندلسي الشاعر في مدح المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار⁽²⁾

2. النبوات:

الوحي عند الإسماعيلية قائم على اعتقادهم بأن العقل وليس الله هو مدبر هذا الكون، وهو مرسل للوحي إلى الأنبياء، وعلى هذا منهم يزعمون أن الوحي هو : ما قبلته نفس الرسول من العقل وقبله من أمر باريه⁽³⁾.

والنبي عندهم (الإسماعيلية) شخص فاضت عليه من السابق -بواسطة التالي- قوة قدسية صاخبة⁽⁴⁾.

وينبغي على النبي قبل أن يصل إلى مرتبة الذبوة أن يمر بمرتبة الولي أو (الولاية)؛ لأنه يجمع في نفسه الصفات الثلاث: الولاية والنبوة والرسالة⁽⁵⁾.

وقد سمى الإسماعيليون الأنبياء (بالنطقاء)؛ لأن النطق كما قالوا قسمان: الأول: ما يتميز به الإنسان عن البهائم وهو النطق عما في الدنيا.

(1) حسين، محمد كامل، طائفة الإسماعيلية، مكتبة النهضة المصرية، 1958م.

(2) المرجع السابق، ص 159-160.

(3) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية، ص 96.

(4) الغزالي، أبو حامد، فضائح الباطنية، ص 40.

(5) بدوي، عبدالرحمن، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م، ص 294.

والثاني: النطق عما في الدار الآخرة المتميز به أهل التأييد الذين يتكلمون عما وراء الحجاب⁽¹⁾.

3. اليوم الآخر:

الإسماعيلية تؤمن بتناسخ الأرواح وإنكار البعث والحساب والجنة والنار ، والمقصود بتناسخ الأرواح، أن الأرواح بعد موت جسدها تنتقل إلى جسد آخر، وهذا الجسد يكون حسبما كانت عليه في حياتها السابقة ، فلما أن تحل الروح في جسد إنساني، وإما في جسد حيواني، أو حتى في جماد أو نبات.

فأرواح المؤمنين - عندهم - عندما تموت وتخرج بالهيكل النوراني تعود بعدها إلى الأرض بأجسام أخرى وتتدخل الدعوة الإسماعيلية من جديد إلى أن تصل إلى مرتبتها قبل موتها.

أما أرواح المعاندين، فتدخل في أدوار متكررة من العذاب تتقصر في كل دور سبعين قميصاً⁽²⁾.

ونظرية الدور عندهم والتي تقوم على أن الوجود يقوم على العدد سبعة تدل على إيمان الإسماعيلية بالنتائج، فهذه النظرية جعلت الأنبياء شخصاً واحداً وكذلك الأئمة، يظهرون في كل دور بنفس ظهورهم في الدور الذي سبقه ، أي بمعنى آخر تقنى أجسامهم وتبقى أرواحهم تتعاقب على أجسام أخرى⁽³⁾.

لوقت الإسماعيلية القيامة وكل ما يقع فيها من أحداث وحقائق، بأنها قيام النفوس لجزئية المفارقة للمبدعات الحسية، الآلات الجسدانية ، وقيام الشرائع والأديان لظهور صاحب الزمان وجنة النعيم هي عالم العلم ، ودرجاتها هي مراتب العلوم⁽⁴⁾.

(1) المؤيد لدين الله، داعي الدعاة، ديوان المؤيد، تحقيق، محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، 1949م، ص135.

(2) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية، ص115.

(3) المرجع السابق، ص112.

(4) تامر، عارف، أربع رسائل إسماعيلية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1978م، ص69-70.

وعلى هذا فإن نعيم الجنة ولذاته عند الإسماعيلية، إنما هي لذات معنوية وليست حسية تبعاً لذلك فإنهم ينكرون الجنة والنار ولا يؤمنون بها (1) فالتخلص من النتائج بعدم عودة الروح الى الجسد ورجوعها الى الالتصاق بأصلها، وتخلصها من الحسن، والمادة هي الجنة بعينها عندهم؛ لأن نجاسة لا يمكن أن تكون لـ ذاتها حسية، لأن ما هو حسي متغير فاسد (2).

4. التقية:

بالفتح ثم بالكسر لغة: الخوف والحذر والكتمان وهي إحدى عقائد الشيعة الرئيسية على اختلاف طوائفها فالشيعة لا يستطيع أن يخفي مذهبه ويكتم عقيدته فحبلى يجب عليه أن يفعل ذلك وأن يبالي في الإخفاء والكتمان فأصبحت هذه العقيدة صفة مميزة وسمة مألوفة في سيرهم ، وقد آمنت الشيعة بهذه العقيدة حتى تستطيع أن تحرك قواها عبر الدعاية الخفية المستترة، فكثرت أسرارها العقائدية التي لا يجوز البوح بها للآخرين، فاستعان بها دعاة التشيع وجعلوها مبدءاً من مبادئهم الأساسية مستهدفين من وراء ذلك عدم إفشاء أسرارهم ليوهموا الناس أنها مقدسة (3). فإدعاء الإسماعيلية في مصر لم يستطيعوا أن يصرحوا بالصفات التي سبغوها على الأئمة، والتي جعلته ممثلاً للعقل الكلي، للعامة أو المبتدئين، بل لم يكن يعرفها إلا من استمع إلى داعي الدعاة نفسه في المجالس التي كان يعقدها للخاصة فقط ، أما جمهور الناس فلم يكن الدعاة بقادرين على الإبانة عن هذه العقائد أو الإشارة إليها .. ولذلك عمد دعاة الإسماعيلية في مصر إلى إخفاء أكثر عقائدهم السرية عن الناس ولم يظهروا منها إلا ما كان هيناً ورقيقاً بالشعب، وما كان لا يذ الف العقائد التي كانت سائدة في مصر (4).

وهذا يفسر لنا في مذاهبهم ، ولذلك نجدهم يحاولون جاهدين أن يظهروا لأئمتهم علماً باطنياً أو حاه جبريل للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأسره -عليه الصلاة

(1) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية، ص115.

(2) السجستاني، أبو يعقوب إسحق، الينايع، مصطفى، غالب، بيروت، 1965م، ص135.

(3) الخطيب، محمد أحمد، الحركات الباطنية، ص46.

(4) حسن، محمد كامل، طائفة الإسماعيلية، ص160.

والسلام- لى علي بن أبي طالب، وتناقلته الأئمة من بعده ..ويزعم دعاة التشيع والإسماعيلية أن جعفر الصادق هو أول من أ ظهر هذه العقيدة وأمر أتباعه بها ، لذلك فقد امتلأت كتبهم بالكثير من الروايات المزعومة عن جعفر في وجوب هذا المعتقد. لقد ركزت المكاتبات التي صدرت عن ديوان الإنشاء على العقائد الفاطمية وهذا يظهر في السجلات التي تصدر في الأعياد والمواسم أو في تولية إمام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاة، ففي مثل هذه السجلات كان الكتاب يلمون بالعقائد، ويقومون بتأويل بعض آيات القرآن الكريم تأويلا يتفق مع مذهبهم الفاطمي، ويعبرون في معظم كتاباتهم عن رأي الفاطميين في كل مناسبة وفي كل عيد، فمثلا السجلات التي صدرت في عيد الغدير كانت تنصب على ولاية علي بن أبي طالب والأئمة المنصوص عليهم من بعده، وسجل مأتم عاشوراء كان في الحسين بن علي وما لاقاه أهل البيت من أهوال، وسجل رؤية رمضان في ذكر عقيدة الفاطميين في هلال رمضان، وهكذا كانت هذه الـ سجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب.

وسجل البيعة الصادر عن الحافظ لدين الله إلى كافة أهل الدولة ولعل كاتبها ابن الصيرفي يقول فيه : "..... ولا خلاف بين كافة المسلمين في أن الله تعالى أمر جدنا محمدا صلى الله عليه وسلم - بعقد ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - صلى الله عليه - فعقدها له يوم غدير خم، وأمير المؤمنين علي ابن عمه وكان له حينئذ عم حاضر، وأمضى ما أمر به والإسلام يومئذ غض ناضر، وكذلك أمير المؤمنين، هو ابن عم الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين، وقد نص مع حضور عمومته عليه، وفعل ما فعل جدّه رسول الله إقتداء به وانتهاء إليه، وكان أبو علي المنصور الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه - جعل ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ولي عهد المسلمين ميّزه بذلك على كافة الناس أجمعين"⁽¹⁾. والسجل التالي من تقليد تعيين الصالح طلائع بن رزيك وزيرا للخليفة الفائز وهو صادر من الخليفة الفائز وكتابه ابن الخلال:

(1) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص309.

"..... يحمده أمير المؤمنين على ما نقله إليه من خصائص آبائه الأئمة الأطهار وأيده به في إيصار دعوته من العلو والاستظهار ونسأله أن يصلي على جدّه محمد نبيّه الأمين ورسوله المبعوث في الأميين، الذي جلا الله ظلمات الجهالة بمبعثه، وشرف الأئمة من ذريته بمقامه ومورثه، وجعله خير رسول على خير أمة أخرجت للناس وعلى أخيه وابن عمّه أئمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قسيمه في المناسب والفضائل وثالثه في تشفيع الذرائع والوسائل مفرج الكرب عنه بمؤازرته وصدق كفاحه وباب مدينة علمه الذي لا يوصل إليه إلا باستفتاحه وعلى الأئمة من ذريتهما الذين بلغ الله بهم الأرب والسؤل، وأغنى الأئمة بهداهم عن التقية بعده برسول والعتر المصطفين ⁽¹⁾، تلمح في هذا السجل العقائد د الفاطمية واضحة جلية من مكانة الإمام علي ووصفه بمفرج الكرب، ومكانة الأئمة منهم قد سدوا مكان الرسل حسب مفهوم الشيعة.

وقد اعتمد الفاطميون الباطنية وجعلوها وسيلة لنشر مبادئهم، ولجأوا إلى التأويل غير المشروع، أي الذي لا يوافق العقائد الإسلامية، فتراهم يفسد رون قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ ⁽²⁾ بأن السماء هي الإمام، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم؛ ومعنى "يمددكم بأموال وبنين" أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون، ومعنى "يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا" أن الجنات هي الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هي العلم الباطني، وكذلك فسروا قوله تعالى: في سورة الحشر ﴿كَمَثَ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ⁽³⁾ أن الشيطان عمر بن الخطاب والإنسان هو أبو بكر الصديق ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب، وتفسير قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ⁽⁴⁾ أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأن إبليس

(1) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص120.

(2) سورة نوح، الآيات 10-12.

(3) سورة الحشر، الآية 16.

(4) سورة الرحمن، الآية 5.

وآدم المشهوران في القرآن أبو بكر وعلي إذ أمر أبا بكر للسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر إلى غير ذلك من مستقبح أكاذيبهم وأباطيلهم⁽¹⁾.

3.4 المقدمات التي كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم:

لقد دفعتهم عقيدتهم الدينية وتمذهبهم بالمذهب الفاطمي إلى أن يبدأوا رسائلهم وسجلاتهم بالحمد لله ثم الصلاة على النبي محمد عليه الصلاة والسلام - ثم على الوصي والأئمة من أهل البيت، ومتعمدين دائما ذكر محمد بأنه جد الأئمة، محاولين بذلك إثبات نسبهم في كل سجل من سجلاتهم، وكل رسالة من رسائلهم، وكأنهم يريدون من ذلك رداً على سجلات العباسيين في دحض نسب الفاطميين، أو أنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه. ولعل هذه الخصلة تظهر في سجلات الفاطميين أوضح من رسائلهم، والسبب في ذلك أن السجلات الفاطمية كانت أقرب إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن ديوان الإنشاء.

وهذه مقدمة سجل الهداية الأمرية في إبطال الدعوة النزارية "وموضوعه تبرير أحقية المستعلي - والد الأموي الخلافة، وإثبات عدم أحقية أخيه نزار لها . صادرة عن الخليفة الأمر بأحكام الله إلى معشر المؤمنين في جميع أنحاء الدولة وممتلكاتها. من إنشاء ابن الصيرفي:

"الحمد لله الذي جعلنا للمتقين إماما، وأقامنا للهدى أعلاما، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون للمؤمنين وسيلة وذماما، ونصلي على جدنا سيدنا محمد رسوله الذي أسبل ببلأغه من سماء الحكمة غماما، ونسخ بأحكام دينه أنصابا وأزلاما، وعلى أئبينا وصيه ووارث مقامه وعلمه علي بن أبي طالب أعظم الخلق قربا وإماما، وأولهم إيماننا وإسلاما، وعلى الأئمة من ذريتهما الذين احتوا بهدايتهم من الحكمة زماما، وأزاحوا بأنوارهم من الضلالة ظلاما، صلى الله عليهم صلاة

(1) الغزالي، الإمام أبو حامد (505هـ/1111م) فضائح الباطنية أو المستظهري نشر جولد تسهير (لیدن 1616)، ص13.

دائمة ولقاهم تحية وسلاماً (1). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تَتْلُوا عَلَى كُفْرِكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (2).

وهذه مقدمة سجل تولية شاور الوزارة للمرة الثانية صادرة عن الخليفة العاضد إلى وزيره شاور، وكاتبها الموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء . "سلام عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جدّه محمد خاتم الأنبياء، وإمام المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وسلّم تسليمًا.

أما بعد، فالحمد لله مانح الرغائب، ومنيلها، وكاشف المصاعب، ومزيلها، ومذل كل عصبة كلفت بالغدر والشقاق ومذيلها، ناصر من بُغي عليه، وعاكس كيد الكائد إذا فوق سهمه إليه، وراد الحقوق على أربابها أو مرتجع المراتب على من هو أجدر برقيتها وأولى بها، ومستني الخير بتيسير أسبابه، ومسهّل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه، ومدني نائي الحظ بعد نفوره واغترابه، ومطلع الشمس بعد المغيب ومتدارك الخطب إذا أعضل بالفرج القريب، مبدع ما كان ويكون، ومسبب الحركة والسكون، محسن التدبير، ومسهّل التعسير (3): ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (4).

وهذه مقدمة رسالة صادرة عن الخليفة الأمر بأحكام الله (والوزير هو الأفضل شاهنشاه) وموضوعها إعلام ولاية الأقاليم بوفاة الخليفة المستعلي وولاية ابنه الأمر، وكاتبها ابن الصيرفي:

(1) الشَّيَال، جمال الدين، مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، ط1،

مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص212.

(2) سورة آل عمران، الآيتان 100-101.

(3) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص30.

(4) سورة آل عمران، الآية 26.

"قالحمد الله المتوحد بالبقاء القاضي على عباده بالفناء الذي تمجّد بالأزلية والقدم، وتفرد بالوجود وتنزهه عن العدم، وجعل الموت حتما مقضيا على جميع الأمم. يحمده أمير المؤمنين على ما خصّه به من الإمامة التي قمّصه سربالها وورثه فخرها وجمالها، حمد شاكر على جزيل العطية، صابر على جليل الرزية، مسلّم إليه في الحكم والقضية ويسأله أن يصلي على جدّه محمد الذي ثبتت حجتّه ووضحت محجّته، وعلت كلمته، وأنافت على درجة الأنبياء درجته، صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جعل الله الإمامة كلمة في عقبه باقية، وحبّه جنة⁽¹⁾ يوم الفرع الأكبر واقية وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين، صلاة دائمة إلى يوم الدين....." (2).

4.4 كثرة الجمل الدعائية والمعتضة:

يقصد بالجمل الدعائية : العبارات التي تتضمن الدعاء للمرسل إليه أو المخاطب أو الدعاء للسلطان أو الأمير أو الحاكم أو الدعاء على الأعداء ويكون موقعها إما في مقدمة الرسالة أو بعد عبارة التخلص أو في الخاتمة. ويقصد بالجمل الاعتراضية أو المعتضة : العبارات التي تعترض الكلام وتكون للدعاء أو لغيره.

ووجدت هذه الظاهرة في أسلوب عبد الحميد الكاتب، ووردت في مقدمة رسالته إلى الكتاب⁽³⁾ كما وردت بكثرة عند كتاب الأندلس في القرن الخامس الهجري⁽⁴⁾. وتعد هذه الظاهرة أصلا من أصول التعبير الأدبي، وتقوم عليه الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها⁽⁵⁾.

(1) جنة: بضم الجيم، السترة وكل ما وقى من سلاح. (لسان العرب، جَنَّ).

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص240، 241.

(3) المرجع السابق، ج10، ص118.

(4) القيسي، فايز عبد النبي فلاح، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، عمان، 1409هـ/1989م، ص320-322.

(5) المرجع السابق، ص320.

ومن الأمثلة على هذه الجمل : من خلال سجلّ إعلان وفاة الخليفة المستعلي ولاية الأمر مكانه وهو صادر عن الأمر بأحكام الله إلى كافة أولياء الدولة وكتبه ابن الصيرفي:

ففي المقدمة: "..... ويسأله أن يصلي على جدّه محمد خاتم النبيين -صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، الأئمة المهديين وسلم تسليمًا- أما بعد"، وفي وسط السجلّ "..... وإن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين -قدس الله روحه- كان ممّن أكرمه الله بالاصطفاء وخصّه بشر ف الاجتباء". "..... وقد كان الإمام المستعلي قدّس الله روحه - عند نقلته جعل لي عقد الخلافة من بعده، وأودعني ما حازه من أبيه عن جدّه ". إلى أن يقول : "..... فأوصاني أن أجعله لي كما كان لصغيًا وظهيرًا، وأن لا أستر عنه من الأمور صغيرًا ولا كبيرًا ". وفي ختام السجلّ "..... وأمير المؤمنين يسأل الله أن تكون خلافته كافلة بالإقبال، ضامنة ببلوغ الأماني والآمال، وأن يجعل ديمها دائمة الخيرات، وقسمتها نامية على الأوقات إن شاء الله تعالى"⁽¹⁾.

وهذا منشور صادر عن الخليفة الأمر بأحكام الله إلى كافة الأمراء وسائر الولاية وجميع النواب والمستخدمين وموضوعه إمضاء ما كان الوزير الأفضل شاهنشاه قد قرره وخرجت به توقيعاته -قبل قتله وعدم تغيير شيء منها . وكتبه أبو الحسن علي بن أبي أسامة.

"خرج أمير المؤمنين -صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين - بإنشاء هذا المنشور:

بأن يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدولة -قاصيها ودانيها، قريبتها ونائيها - إمضاء ما كان السيد الأجل (والدعاء) - قرره وخرجت به توقيعاته..... فليحذر كافة الأمراء وسائر الولاية نصرهم الله وأظفرهم - وجميع النواب والمستخدمين وسائر الكتاب والمتصر فين بجميع الأعمال من تأويل فيه، وتعقب تغيير شيء من أحكامها على ما قرره وأمر به"⁽²⁾.

(1) ابن الصيرفي، في الإشارة إلى من نال الوزارة، ص 13-15.

(2) جمال الشّيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص 294.

وهذا توقيع بخط الفائز وموضوعه توقيع بخط الخليفة الفائز على طره التقليد بتوليه الصالح طلائع بن رزيك الوزارة وكاتبه هو ابن الخلال كاتب الإنشاء.

لو زيرنا السيد الأجل الملك لصالح ناصر الأئمة، كاشف الغمة واستحقاق غايات المن الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا، ودعاه -دون الخلاق- إلى القيام بحق مشايعتنا، ما يبعثنا على التبرع له ببذل كل مصون فالذي تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه، ولذلك شرفناه بجميع التدبير والإتالة ورفعناه إلى أعلى رتب الأصفياء بما جعلناه له من الكفالة.

والله تعالى يعضد به دولتنا، ويحوط به حوزتنا، ويمده بمواد التوفيق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غاية الاستمرار إن شاء الله تعالى⁽¹⁾.

ومن بيعة إعلان خلافة الحافظ لدين الله بـ بعد وفاة ابن عمه الأمر بأحكام الله وطلب البيعة له وهي صادرة من الحافظ لدين الله إلى كافة أهل الدولة وكاتبها ابن الصيرفي. ومنها: "قيس الله سبحانه - ما كان مرتقبا من ظهوره، وأذن في إشراق الأرض بما انتشر في آفاقها من نوره وبعثه -جلّت قدرته- إلى الأمة بأسرها قاطبة.... وكان والده الأمير أبو القاسم قدّس الله روحه - بمنزلة الأشجار التي يتأني بها إلى أن يظهر زهرها ولا خلاف بين كافة المسلمين في أن الله تعالى أمر جدنا محمدا صلى الله عليه وسلم - بعقد ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلى الله عليه - فعقداه يوم غدیر وكان أبو علي المنصور الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين -صلوات الله عليه- جعل ابن عمه عبد الرحيم إلياس ولي عهد المسلمين وقد علم الإمام الحاكم -عليه السلام- أن المراد بذلك من يأتي بعده ممن أولده أو أنسله وافق جدّه -عليه السلام- وكان لقبه من لقبه مشتقا..... والرمز إنانة والنص على أمير المؤمنين أمانة، فاقتدى بجدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم - في استخلاف أمير المؤمنين مع حضور عمومته، وفعل في ذلك فعلته، وجرى على قضيته، وكشف عما أبهمه الإمام الحاكم بأمر الله -قدّس الله لطيفته فتساوى الخاص والعام في معرفته . وفي الختام وأمير المؤمنين يسأل

(1) المرجع السابق، ص312.

الله أن يعرفكم بركة إمامته ويؤمن خلافته وأن يجعلها ضامنة بلوغ المطالب، كافلة لكافتكم بسعادة المبادئ والعواقب⁽¹⁾.

ومن سجلّ عهد تعيين أسد الدين شيركوه وزيرا للخليفة العاضد صادرا عنه إلى وزيرأمد الدين شيركوه وكاتبه القاضي الفاضل . "..... وكنت أيها السيد الأجلّ إدام الله قدرتك وأعلى كلمتك - أعظم نعم الله تعالى أثرا، ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار - وتحقق أنك تتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار..... وولاه كما ولى جدّه صلى الله عليه وسلم - قبله يرضاها..... والله -سبحانه وتعالى- يحقق لأمر المؤمنين فيك أفضل المخايل⁽²⁾.

5.4 التناس وتوظيف الموروث:

يعد التناس أو تداخل النصوص من أحدث المناهج النقدية، ويجمع أغلب الباحثين في حقول النقد الأدبي على أن الكاتبة الفرنسية جوليا كرستيفا رائدة هذا المنهج وذلك من خلال بحوثها التي كتبتها ما بين عامي (1966-1967م)⁽³⁾. وتعرّف جوليا كرستيفا التناس بأنه "النقل لتعبيرات سابقة ومتزامنة، وهو اقتطاع أو تحويل"⁽⁴⁾ وتعرّيفها هذا التقت مع ما يراه رولان بارت حيث يرى : "أن كل نص هو نسيج من الاقتباسات ، والمرجعيات، والأصداء، وهذه لغات ثقافية قديمة، وكل نص(لذي هو تناس على نص آخر) ينتمي إلى التناس فالاقتباسات

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص301-307.

(2) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشره، جمال الدين الشيال، ج1، القاهرة، 1953، ج2، القاهرة، 1957، ج1، ص164.

(3) الزعبي، أحمد، التناس نظريا وتطبيقيا، إربد الكتاني، ط 1، 1995/1415، ص9؛ المدني، أحمد، في أصول الخطاب النقدي الجديد، دار الشؤون الثقافية، العراق، بغداد، ط1، 1989، ص102.

(4) الزعبي، أحمد، التناس نظريا وتطبيقيا، ص9.

التي يتكون منها مجهولة المصدر، ولكنها مقروءة فهي اقتباسات دون علامات تنصيص⁽¹⁾.

ويعرّف أحمد الزعبي التناص بقوله : "التناص في أبسط صورته يعني أن يتضمن نص أدبي ما نصوصاً، أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس، أو التضمن، أو التلميح أو الإشارة، أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه لتشكل نصاً جديداً واحداً متكاملًا"⁽²⁾.

ويوسع جعفر العلاق في تعريفه لمفهوم التناص حيث يقول : "أن التناص لا يقصر حركة النص على النصوص الأخرى فقط بل يتجاوزها إلى مظاهر غير نصية كثيرة، فقد يكون التناص إيماء مباشرة، أو غائمة إلى عمل كامل، أو مجتزأ، وقد يكون كذلك تلميحاً إلى شخصية، أو مكان، أو حادثة"⁽³⁾.

ويرى الزعبي أن التناص ليس جديداً وإنما هو موضوع له جذوره في الدراسات النقدية شرقاً وغرباً، ولكن تحت مسميات ومصطلحات أخرى عديدة، فالأقتباس والتضمن والاستشهاد، والقرينة والتشبيه والمجاز والمعنى وما شابه ذلك في النقد العربي القديم تدخل في مفهوم التناص بصورة حديثة"⁽⁴⁾.

ومما هو لافت للنظر أنه قد ظهرت ضروب مختلفة من التناص في كتابات ديوان الإنشاء الفاطمي، وقد تجلّى ذلك في:

أ. تناص آيات القرآن الكريم.

فالنص القرآني يمثل في أذهان الكتاب المثل الأعلى في صياغته، ومعناه، وفصاحته، وبلاغته، لذا نراه يكثرون من الأخذ منه وإدراجه في كلامهم، ليزيده حكمة وجمالاً. فقد أكثر كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي من التناص، ووظّفوه كثيراً من الآيات في مكاتبتهم الصادرة عن هذا الديوان.

(1) الزعبي، أحمد، التناص نظرياً وتطبيقاً، ص 10.

(2) المرجع نفسه، ص 9.

(3) العلاق، جعفر، الشعر والتلقي (دراسات نقدية)، دار الشروق ، ط 1، ص 1997، ص 132.

(4) الزعبي، أحمد، التناص نظرياً وتطبيقاً، ص 15.

فهذا السجل الذي كتبه ابن الصيرفي في إعلان وفاة الخليفة المستعلي وولاية الأمر مكانه أكثر فيه من التناسل لآيات القرآن الكريم. ومثال ذلك.

ولا يكون أمرهم عليهم غمة " وهذه الفقرة تناسل مع الآية الكريمة ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ﴾⁽¹⁾، "وذلك هدى الله" وفي هذه تناسل مع الآية الكريمة ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾⁽²⁾، "فإن الله وإننا إليه راجعون" وهذا تناسل مع الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁽³⁾.

وفي السجل الذي صدر عن الخليفة الأمر بأحكام الله إلى معشر المؤمنين وكاتبه أيضا ابن الصيرفي حيث يقول:

"وقد ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ولهذا باعوا بغضب من الله" وهذا تناسل مع الآية الكريمة ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾⁽⁴⁾، "فتبت أيديهم" وفي هذا تناسل مع الآية الكريمة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾⁽⁵⁾، الذي لا ينطق عن الهوى " وهذا تناسل مع الآية الكريمة ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾⁽⁶⁾، "ليشتروا به من حطام الدنيا ثمنا قليلا" وهذا تناسل مع الآية الكريمة ﴿يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾⁽⁷⁾، "وأخذوا أخذ القرى وهي ظالمة" وهذا تناسل مع الآية الكريمة ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾⁽⁸⁾، وبأي حديث بعده يؤمنون " وهذا تناسل مع الآية الكريمة ﴿فَبِأَيِّ

(1) سورة يونس، الآية 71. انظر السجل في الإشارة لمن نال الوزارة لابن الصيرفي، ص 13-15.

(2) سورة الزمر، الآية 23.

(3) سورة البقرة، الآية 156.

(4) سورة البقرة، الآية 61. انظر السجل في مجموعة الوثائق الفاطمية للشمال، ص 212-228.

(5) سورة المسد، الآية 1.

(6) سورة النجم، الآية 3.

(7) سورة البقرة، الآية 79.

(8) سورة هود، الآية 102.

حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾، لا يعلم تأويلها إلا الراسخون في العلم" وهذا تتاص مع الآية الكريمة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢).

وفي سجل بيعة للقاضي الفاضل أيضا أكثر فيه من التتاص حيث يقول:
 "جعلها كلمة باقية في عقبه" وهذا تتاص مع الآية الكريمة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣) "جعل نار الحوادث بردا وسلاما" وهذا تتاص مع الآية الكريمة ﴿لَنَّا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٤)، "وأقرض الله قرضا حسنا" وهذا تتاص مع الآية الكريمة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (٥)، "لأحييت بها العظام وهي رميم" وهذا تتاص مع الآية الكريمة ﴿ضَرَبْنَا مَثَلًا وَتَسِي خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٦)، "رأت كيف يفرق فيها كل أمر حكيم" وهذا تتاص مع الآية الكريمة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (٧) "والله لك نعم المولى ونعم النصير" وهذا تتاص مع الآية الكريمة ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٨)، "إنه هو السميع البصير" وهذا تتاص مع الآية الكريمة ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٩).

(١) سورة الأعراف، الآية 185.

(٢) سورة آل عمران، الآية 7.

(٣) سورة الزخرف، الآية 28. انظر السجل في صبح الأعشى للقلقشندي، ج9، ص399-405.

(٤) سورة الأنبياء، الآية 69.

(٥) سورة البقرة، الآية 245.

(٦) سورة يس، الآية 78.

(٧) سورة الدخان، الآية 4.

(٨) سورة الأنفال، الآية 40.

(٩) سورة الإسراء، الآية 1.

وفي تقليد كتبه ابن الخلال وهو صادر عن الخليفة الفائز وموضوعه تعيين الصالح طلائع بن رزيك وزيرا له فقد أكثر فيه من تناس الآيات الكريمة ومنها: ذلك "فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم" وهذا تناس مع الآية الكريمة ﴿كَانَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁽¹⁾، "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون" وهذا تناس مع الآية الكريمة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾⁽²⁾، "وجعله خير رسول على خير أمة أخرجت للناس" وهذا تناس مع الآية الكريمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾⁽³⁾.

ومن نص توقع على طرة السجل صادر عن الخليفة العاضد يقضي بتعيين صلاح الدين وزيرا له، وكاتب هذا التوقيع هو الخليفة العاضد نفسه حيث يقول: وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك " وهذا تناس مع الآية الكريمة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ﴾⁽⁴⁾، ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - أحسن أسوة " وهذا تناس مع الآية الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾⁽⁵⁾.

ب. تناس الحديث النبوي الشريف.

لا يختلف تناس الحديث عند كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي عن تناس آيات القرآن، إلا أن تناس الحديث لم يكن عندهم بالكثرة التي وجدت في الآيات، وكان تناسهم للأحاديث التي تتفق مع دعوتهم الفاطمية: ومنها نسخة تقليد في رسم ما يكتب للوزير عند تعيينه للكاتب علي بن خلف حيث يقول:

(1) سورة الجمعة، الآية 4. انظر السجل في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص 301-310.

(2) سورة الصف، الآية 8.

(3) سورة آل عمران، الآية 110.

(4) سورة الحاقة، الآية 19. انظر نص التوقيع في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص 355.

(5) سورة الأحزاب، الآية 21.

"ومن قول النبي عليه السلام لابن عمه علي أنت مني كهار ون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي " هذا تناسل من حديث رسول الله "أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي"(1).

وفي سجل إعلان وفاة الخليفة المستعلي وولاية الأمر مكانه صادر عن أمير المؤمنين أبي علي الأمر بأحكام الله إلى كافة أولياء الدولة وكاتب هذا السجل ابن الصيرفي حيث يقول فيه:

"من عبد الله ووليه أبي علي الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين إلى كافة أولياء الدولة..... أحمرهم وأسودهم" وهذا تناسل مع الحديث الشريف: "بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ"(2) أي العرب والعجم.

وفي سجل صادر عن الخليفة الأمر بأحكام الله وموضوعه تبرير أحقية المستعلي -والد الأمر- في الخلافة وإثبات عدم أحقية أخيه نزار لها:

"وذلك أن مولانا المستنصر بالله من دوره بمنزلة سليمان من دور بني إسرائيل" وهو المشار إليه بسليمان وقد قال النبي "كأن من أمتي ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة"(3).

وفي سجل بيعة إعلان خلافة الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الأمر بأحكام الله وطلب البيعة له وكاتبه ابن الصيرفي:

وجعله "خليفة على كافة الناس بعد وفاته؛ وتحمل بأمر الله فيما ولّاه وأولاه" وخطب الناس في حجة الوداع فقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه"(4).

(1) محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ط 2، 1406هـ، 1986 بيروت، ص 311، رقم 1484. انظر نسخة التقليد في صبح الاعشى للقلقشندي، ج10، ص397-402.

(2) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الفضائل، حديث رقم 5. انظر سجل الوفاة في الإشارة لمن نال الوزارة، لابن الصيرفي، ص13-15.

(3) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الفتن، حديث رقم 279. والقذة: ريش السهم؛ انظر السجل في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص212-229.

(4) ابن ماجه، باب فضل علي بن أبي طالب، حديث رقم 121؛ انظر سجل البيعة، مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص244-251.

ج. تناص الموروث الديني المذهبي:

ونراه ذلك بوضوح في السجل الذي كتبه على الأرجح ابن الصيرفي الموسوم باللهداية الأمرية في إبطال الدعوى النزارية ، وموضوعه تبرير أحقية المستعلي - والد الأمر - في الخلافة وإثبات عدم أحقية أخيه نزار لها. وصادرة عن الخليفة الأمر بأحكام الله.

وهذه أمور جليلة يلازم فيها إلا من يجحد العيان و يدفع البرهان، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : "واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين"(1).

"لذلك أن مولانا المستنصر بالله من دوره منزلة سليمان من دور بني إسرائيل هو المشار إليه بسليمان ، وقد قال النبي صلى الله عليه و سلم -: "كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة " فسليمان هذه الأمة هو مولانا المستنصر بالله لأنه واقع في الرتبة و العدد من أمة دوره موقع سليمان في الرتبة للعدد من أمة دوره ، وأيضاً فإنه أوتي ملكاً لم يؤت مثله أحد من آباءه طولا تمكيناً كما أوتي سليمان، وسخرت له الريح والشياطين كما سخرت لسليمان ، فتسخير الريح تأييده في كل مقام ، وتسخير الشياطين له انقياد المارقين له والمخالفين لأمره ونهيه، وقوله: "وما كفر سليمان أي ما كفر مولانا المستنصر بالله ولا جحد حقيقة علمه في معنى الإمام من بعدي ، بل عقد الإمامة لمولانا المستنصر بالله في يوم النكاح على رؤوس الأشهاد . وكفر بذلك من اتبع الهوى و آثر الدنيا، إذ كانت الخلافة والإمامة محل المنافسة وباءت الحسد و لهذا قال سبحانه: "ولكن الشياطين كفروا" أي هؤلاء الذين شطئوا عن الحق وبالغوا في الحيلة فضلوا وأضلوا.

ومضي كاتب السجل في المقارنة بين المستنصر و سليمان عليه السلام ، فيقارن بما حدث أيضاً بين ولدي المستنصر : المستعلي ونزار، وما حدث بين ولدي سليمان "رحبون" و"يربعون"(2) ومما يعضد هذا التأويل ما ورد في أسفار بني

(1) سورة البقرة، الآية: 102.

(2) رجبون هو "رجب عام" و"يربعون" وهما ابنا سليمان عليه السلام وقد خلف رجبون أباه على عرش إسرائيل حوالي 935 ق.م، وما أن تولى الحكم حتى ثارت أسباط بني إسرائيل عليه،

إسرائيل من أن سليمان نص بالإمامة على ولده رحبون ، كما نص مولانا المستنصر بالله على مولانا المستعلي بالله فحسده المسمى يربعون فخرج عليه واتبعه جماعة ممن أضلهم بمكره و استهواهم بسحره، وغيرلهم نصوص الدين ، وأزالهم عن الصراط الواضح المبين،فعل نزار في خروجه على مولانا المستعلي بالله ، وكانت الدائرة على يربعون و أصحابه، كما كانت الدائرة على نزار وأصحابه وكانت العاقبة لابن سليمان صاحب الحق كما كانت العاقبة لمولانا المستعلي بالله - أمير المؤمنين - فإن الله في طاعتها، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

6.4 المحسنات البلاغية والبيانية:

1.6.4 الجنس:

وهو من المحسنات البديعية وهو كلمتان اتفقتا لفظا واختلفتا معنى . وهو نوعان:

أ. تام: وهو ما اتفق فيه متمثلان عدد حروف، وترتيب حروف، ونوع حروف، وحركة حروف.

ب. ناقص: وهو ما اختلف فيه المتمثلان عدد حروف أو ترتيب حروف، أو نوع حروف، أو حركة حروف⁽¹⁾.

ويرى ابن الأثير أن الجنس سبعة أقسام، واحد فقط يدل على حقيقة التجنيس والباقي مشبهة، فالقسم الحقيقي ما تساوت حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها وحد التجنيس عنده اتفاق اللفظ واختلاف المعنى⁽²⁾.

نتيجة للضغط والضيق والإرهاق الذي عانته أيام سليمان؛ وقد بايعت الأسباط الثائرة يربعام و كان عائدا من مصر في هذا الوقت، ولم يبق على الولاء ليربعام إلا سبط يهوذا الذي يقطن في الجنوب، وهكذا حدث الانقسام في بني إسرائيل وظهرت مملكتان إسرائيل شمالاً ، ومملكة يهوذا جنوباً انظر الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية، ص66. نقلاً عن العهد القديم سفر الملوك الأول إصحاح 12، 13.

(1) محمد سعيد إسبر ورفيقه، معجم الشامل في اللهجة العربية ومصطلحاتها، ط 2، دار العودة، بيروت، 1985، ص409، 410.

(2) انظر ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص380، 385.

وقد برزت هذه السمة في أغلب المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي.

وفي سجلّ البيعة إعلان خلافة الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الأمر بأحكام الله وطلب البيعة له وهو صادر عن الخليفة الحافظ لدين الله إلى كافة أهل الدولة وكاتبه ابن الصيرفي:

"..... الذين حكموا فأقسطوا، وما قسطوا، ثم حلّه أمير المؤمنين محلّ نفسه في الجلوس على الأسمطة، ودلّت سيرته الفاضلة على أنه قد عمر ما بين الله وبينه، وبالكافة رؤوفا رفيقا، وعلى الرعايا عطوفا شفيقا إلى كافة أهل الدولة شريفهم ومشروفهم، وأميرهم ومأمورهم، وفي مصالح البرية ساعيا، وإلى سبل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة داعيا، إلى أن لمعت آيات الحق وسطعت، وانحسرت مادة الباطل وانقطعت، وكان له حينئذ عم حاضر، وأمضى ما أمر به والإسلام يومئذ غض وعوده ناضر، ونقش اسمه في السكة، وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكة، وإنما تحت ذلك معنى لطيف غامض، وسر عن جمهور الناس مستتر وبرقه لأولي البصائر وامض"⁽¹⁾.

وفي سجلّ بيعة إعلان البيعة لولي عهد بعد موت العاهد صادرة عن الظافر بأمر الله بن الحافظ لدين الله وكاتب هذا السجلّ أبو الحجاج يوسف بن محمد بن الخلال:

"..... الذي لا يغير ملكه مرور الغير، ولا يصرف سلطانه تصرف القدر وحكمة تامة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين بل أجل لكل منهم أجلا مكتوبا، أوضح بابائه الأئمة سبل الحقائق، فأصبحوا خلفاء الخالق وأئمة الخلاق الذي فضّ بجهاده جموع الإلحاد وحصد باجتهاده من مال عن الهدى وحاد، وصدع به ما أمر به حتى عمّ التوحيد ودانت لمعجزاته الأمم وقد دعاها وهو المفرد الوحيد وقدوة السعداء وسيد

(1) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص300-307.

الشهداء، وعاضد الدين بذى الفقار، ومن لم يزل الحق إلى ذبّه شديد الافتقار⁽¹⁾.

وفي تقليد تعيين وزير لعلّي بن خلف:

"المانّ على عباده بأن جعلهم بالتوازر إخوانا، وبالتظافر أعوانا، مفاتيح الحقائق ومصايح الخلاق، وأولى الناس باتخاذ الوزراء واستخلاص الظهراء، من جعله الله تعالى إلى حقّه داعيا ولخلقه راعيا، لنص ذلك بتطرق الخل ودخول الوهن والشلل، والخبرة بمجاري الأعمال، وأبواب الأموال، جامعا بين الأبوة والاختصاص والطاعة والإخلاص مؤنّنا للمظلوم الخائف، مخيفا للظالم الخائف، مذكّرا بإحسان المحسنين وأن تطالع أمير المؤمنين بذره وجلّه وعقد أمرك وجلّه⁽²⁾.

وهذا توقيع بخط الخليفة العاضد على طره الصادر بتعيين صلاح الدين وزيرا له، وكاتب التوقيع هو نفسه الخليفة العاضد:

"هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحبّته عند الله تعالى عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، ولمن مضى بجدّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - أحسن أسوة، ولمن بقي بقربنا سلوة⁽³⁾.

2.6.4 السجع:

وعرّف ابن الأثير السجع بأنه تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد وقد امتدحه وعاب من يذمّه، وعدّ ذلك عجزاً عن الإتيان به⁽⁴⁾. ويشترط ابن الأثير في السجع أن تكون ألفاظه حلوة حارّة طنانة رنانة، لا غائّة ولا باردة⁽⁵⁾ وقد اتفق القزويني مع ابن الأثير في تعريف السجع حيث قال : إن

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص 296-300.

(2) المصدر السابق، ج10، ص 397-402.

(3) المصدر السابق، ج9، ص 427-428.

(4) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص 308.

(5) المصدر السابق، ص 313.

السجع تواطؤ الفاصلتين في النثر على حرف واحد ⁽¹⁾، ويرى القلقشندي أن السجع مشتق من الساجع، وهو المستقيم لاستقامته في الكلام واستواء أوزانه، قيل من سجع الحمامة، وهو ترجيعها الصوت على حد واحد ⁽²⁾.

فلقد كان كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي يولعون باستخدام السجع، ونرى الكتاب جميعا التزموا السجع في كتاباتهم، حيث نجد هذه الخصلة منذ ابتداء الدولة الفاطمية إلى أن قوَّض صلاح الدين أركانها نراها في رسالة المعز لدين الله إلى القرمطي ⁽³⁾، وفي رسالة العزيز بالله إلى عاضد الدولة البويهية وهذه الرسالة كانت من إنشاء يعقوب بن كلس ⁽⁴⁾ وفي السجلات الكثيرة التي كُتبت في عهد الحاكم ⁽⁵⁾، وفي كتابات ابن خيران وابن الصيرفي وابن الشخباء ثم في رسائل القاضي الفاضل. وفي سجل العهد الذي كتبه القاضي الفاضل وهو صادر عن الخليفة العاضد إلى وزيره أسد الدين شيركوه، نرى السجع سمة بارزة في هذا السجل حيث يقول:

"إلى السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، ويسأله أن يصلي على سيدنا محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين وإذا عدّد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة، والمنح الكريمة، واللطائف العظيمة، والعوارف العميمة، والآيات المعلومّة، والكفايات المحتومة، والعادات المنظومة، وكنت أنت أيها السيد الأجل -أدام الله قدرتك، وأعلى كلمتك- أعظم نعم الله أثرا، وأعلاها خطرا، وأفضاها للأمة وطرا" ⁽⁶⁾.

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص325.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص302.

(3) المقرئزي، اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص251.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص124.

(5) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج3، ص33.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص80-92.

وهذا سجلّ تقليد تعيين أبي القاسم أحمد الجرجرائي وزيراً للخليفة الظاهر وكتابه ولي الدولة أبو علي بن خيران وقد أكثر فيه من استخدام السجع حيث يقول: "أما بعد، فالحمد لله مطلق الألسنة بذكره، ومجزل النعم بشكره، ومصرف الأمور على حكم إرادته وأمره، الذي استحمد بالطول والنعماء، وتمجد بالحكمة والسناء، وملك ملكوت الأرض والسماء، واستغنى عن الظهراء والوزراء، وأكرم عباده بأن جعل تذكرة لهم في صحف مكرّمة، مرفوعة مطهّرة، بأيدي سفرة كرام برره، فسبحان من نظر لخلقه فأحسن وأنعم، وعلم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم" (1).

وفي السجلّ الذي كتبه ابن الصيرفي وهو صادر عن الخليفة الأمر بأحكام الله إلى والٍ من ولاية الأقاليم في تجديد ولايته حيث يقول: "أما بعد، فالحمد لله مولى المنائح من نعمه، ومجزر العطايا من مواهبه وقسمه، ومعوّد الصنع الجميل من لطفه وكرمه، الذي له الحكم الظاهر عدله، ولديه الطول الفائض فضله، وعنده مفاتيح الغيب وإليه يرجع الأمر كله. يحمدّه أمير المؤمنين على ما أفرده من سنيّ المواهب، ونظمه له من عقود المناقب، ونقله غيله من تراث آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام الغياهب، وتزينت بهم الأرض تزين السماء الدنيا بزينة الكواكب، ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي نشر به الرحمة، وكشف الغمة، وأنقذ الأمة صلى الله عليه وعلى آله وأبن عمه علي بن أبي طالب، أمير المؤمنين المذكور في زُبر الأولين، وعلى الصفوة من ذريتهما الهداة الراشدين، صلاة باقية إلى يوم الدين" (2).

وهذه نسخة ولاية العهد أوردها علي بن خلف في مواد البيان: "الحمد لله معزّ دينه بخلفائه الراشدين ومرتبّ حقه بأوليائه الهادين، الذي اختار دين الإسلام لصفوته من بريته، وخص به من استخلصه من أهل طاعته، وجعله حبله المتين، ودينه الذي أظهره على كل دين، وسبيله الأفسح، وطريقه الأوضح، وابتعث به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم - فصدع بأمره، وأعلن بذكره،

(1) ابن الصيرفي : القانون في ديوان الرسائل والإشارة لمن نال الوزارة ، ص 13.

(2) الفلقشندي ، صبح الأعشى ، ج8 ص 242-243.

والناس في فترة الضلالة، وغمرة الجهالة، فلما أنجز في نصره حقه، وتأييده لسعداء خلقه، قبضه إليه محمود الأثر، طيب الخبر، وقام بخلافته من انتخبه من طهره عترته، وأودعهم حكمته، وكفلهم شريعته، فاقتفوا سبيله، وابتعوا دليله، كلما قبض منهم سلفاً إلى مقر مجده، اصطفى خلفاً للإمامة من بعده⁽¹⁾.

3.6.4 الطباق:

وهو الجمع بين ضدين مختلفين كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والسواد والبياض⁽²⁾. ويرى القزويني أن الطباق هو الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة، ويكون ذلك إما لفظين من نوع واحد :اسمين أو فعلين⁽³⁾. والطباق في الكلام يكسبه الوضوح خلال ذكر المعنى وضده⁽⁴⁾، وقلما نجد في المكاتبات التي صدرت عن ديوان الإنشاء الفاطمي رسالة أو سجلاً أو تقليداً..... الخ تخلو من أسلوب الطباق.

فالسجل الذي كتبه القاضي الفاضل الصادر عن الخليفة العاضد إلى وزيره أسد الدين شيركوه قد حوى كثيراً من الطباق.

"..... والإظهار الذي اشترك فيه جنود السماء والأرض، والإظفار الذي عقد الله منه عقداً لا تدخل إليه أحكام النقص، وكنت البعيد القريب، المحجوب النافذ بحجته المذعورة أعداء أمير المؤمنين، ومقدم في النية وإن كنت في الزمان المؤخر وأبناء جلال يشتررون الجنة بعزائم كالنار وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيها، وسائر أعمال الدول باديها وخافيها ؛

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص386-389 نقلاً عن علي بن خلف، مواد البيان.

(2) باب، محمود الحلبي، شاب الدين محمود، حسن التوصل إلى صناعة الترسل، تحقيق ق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، بغداد، 1980، ص199.

(3) القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (379هـ/1338م)، الإيضاح في علوم البلاغة، قدم له وبوبه وشرحه علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1991، ص287.

(4) الصفدي، خليل أبيك، أعيان العصر، ج329/4.

وناط بك العقد والحل، والولاية والعزل، والمنع والبذل، والرفع والخفض، والبسط والقبض، والإبرام والنقض، والتنبيه والغض، والإنعام والانتقام ، واعتمد أحمرهم وأسودهم، وأقربهم وأبعدهم، وفارسهم وراجلهم، ورامهم ونابلهم ، وبذلهم من بعد خوفهم أمناً وسطوة الله تعالى التي يمضيها في شرّ العباد على خير العباد، فاطلب أعداء الله برّاً وبحراً، واجلب عليهم سهلاً ووعراً⁽¹⁾.

وهذا منشور أصدره الآمر ويرجح جمال الدين الشيال أن الذي كتبه هو أبو الحسن علي بن أبي أسامة، وعلى الرغم من قصره لكنه حوى أسلوب الطباقي حيث يقول:

"يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدولة -قاصيها ودانيها، وقريبها ونائيها- بامضاء ما كان السيد الأجلّ الأفضّل قرّره وخرجت به توقيعاته الثابتة عليها علاماته في الأحكام والأموال"⁽²⁾.

وهذه بيعة صادرة عن الحافظ لدين الله إلى كافة أهل الدولة وكتبها ابن الصيرفي قد حوت كثيراً من الطباقي:

"من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون، الحافظ لدين الله أمير المؤمنين إلى كافة أهل الدولة شريفهم ومشروفهم، وأميرهم ومأمورهم، وكبيرهم وصغيرهم، وأحمرهم وأسودهم، إلى أن لمعت آيات الحق، وانحسرت مادة الباطل، الذين حكموا فأقسطوا وما قسطوا، واقتفوا آثارهم في السياسة فما قصّروا ولا فرطوا والأرض إذا أظلمت لفقد إمام أضاعت وأشرق لقيام إمام ولم يزل ناظراً في البعيد والقريب، وقد كان يذكر ما يعلمه من حق أمير المؤمنين تارة مجاهراً وتارة مخافتاً فتساوى الخاص والعام في معرفته، فأرعى على الأواخر والأوائل ويفتح لأمر المؤمنين مشارق الأرض مغاربها"⁽³⁾.

(1) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص80-90.

(2) جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص154.

(3) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص300-307.

وفي سجلّ تقليد وتعيين أبي القاسم على بن أحمد الجرجاني وهو صادر عن أبي الحسن علي الظاهر لإعزاز دين الله وكاتبه ولي الدولة أبو علي بن خيران: "..... وملك ملكوت الأرض والسماء ونفذ النهي والأمر الرجال كبيرها وصغيرها ويبقى رسمه على مر الليالي والنهار وسائر عبيده ورعيته شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً للتوقيع عن أمير المؤمنين في الإخراج والإنفاق، والإيجاب والإطلاق ، وأناط بك أزمة الحل والعقد والإبرام والنقض والقبض والبسط، والإثبات والحط، والتصريف والصرف لرجال دولته دانيهم وقاصيهم قولاً يؤثر عنده في المشرق والمغرب ويصل إلى الأبعد والأقرب"⁽¹⁾.

(1) جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص 287-292.

الفصل الخامس

مشاهير كتاب ديوان الإنشاء الفاطمي

1.5 ابن خيران (ت431هـ/1039)

أحمد بن علي ، أبو محمد ، ولي الدولة المصري المعروف بابن خيران الكاتب وله ديوان شعر ⁽¹⁾ وولي ديوان الإنشاء بعد أب يفي عهد الخليفة الظاهر ⁽²⁾ وذكر المقرئ ابن خيران كان والياً لديوان الإنشاء في سنة (1023/414)، وقد ظل ابن خيران طليقاً الديوان في أوائل عهد المستنصر، فقد أورد المقرئ توق يعباً للمستنصر كتب ابن خيران ⁽³⁾ وقد جاء في (ابن القلاني ذيل تاريخ دمشق، أن المستنصر بالله خلع على وزير أبي محمد اليازوري في الرابع من ذي القعدة سنة (1051/443هـ) خلع الوزارة "وكتب له سجل التقليد بإنشاء ولي الدولة أبي علي بن خيران" ⁽⁴⁾.

ولا نعرف شيئاً عن أبيه سوى ما يرويه ياقوت : "كان أبوه أيضاً فاضلاً، بليغاً أعظم قدراً من ابنه وأكثر علماً" ⁽⁵⁾ وكذلك لا نعرف متى ولي والده ديوان الإنشاء، ومتى ولي الابن بعده، ولكن المقرئ ذكر في الخطط أن أبا الحسن عمار بن محمد - وكان يلي ديوان الإنشاء واستوزره الحاكم، وهو الذي تولى البيعة للظاهر - قتل في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، فاستوزره بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين، وكان يتولى الشرطة، ثم ولي ديوان الإنشاء بعد ابن خيران ⁽⁶⁾ ونظن أن ابن خيران المذكور في نص المقرئ يختلف عن نص ياقوت،

(1) انظر، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثارهم المصنفين من كشف الظنون ج5، ص75.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص5.

(3) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص167.

(4) المصدر السابق، ص238.

(5) ياقوت معجم الأدباء، ج4، ص5.

(6) المقرئ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص167.

إذ يذهب ياقوت إلى أن الابن حلَّ محلَّ أبيه ه في ديوان الإنشاء، على حين يرى المقرئ أن أبا الفتوح م وسى بن الحسين هو الذي ولي الديوان بعد ابن خيران، ولقلة المصادر التي بين أيدينا لا نستطيع أن نرجح أيًّا من هذه الآراء.

ومهما يكن من شيء، فإن ولي الدولة ابن خيران تقلد ديوان الإنشاء، للظاهر ثم للمستنصر، وفي سنة (1023/414) قرر الشريف الكبير العجمي والشيخ نجيب الدولة، الجرجاني والشيخ العميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد ألا يدخل على الظاهر أحدًا غيرهم، وكانوا يدخلون كل يوم خلوة ويخرجون فيه تصرفون في سائر أمور الدولة، والظاهر مشغول ببلذاته، وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلة (1)، وابن خيران صاحب الإنشاء، وداعي الدعاء ونقيب نقباء الطالبين وقاضي القضاة، ربما دخلوا على الظاهر في كل عشرين يومًا ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر ألبته (2) ويتضح من ذلك أن ولي الدولة ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في سنة (1023/414هـ)؛ ويقول ابن خلكان عن الشاعر أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت أنه توفي بمصر في شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة، وكفله ولي الدولة أبو محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر، ونفهم من هذا النص أن ابن خيران كان في ديوان الإنشاء سنة (1025/416هـ) وقد وقع ابن خيران عن الخليفة المستنصر هذا التوقيع "الفقر مر المذاق، والحاجة تذل الأعناق، وحراسة النعم بإدراك الأرزاق، فليجروا رسومهم في الإطلاق، ما عندكم ينفد وما عند الله باق" (3) ومنه ندرك أن ابن خيران صاحب ديوان الرسائل في أواخر عهد الظاهر وفي عهد المستنصر أيضًا، وقد ذكر ياقوت أن رزقه كان في كل سنة ثلاثة آلاف دينار، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات، وكتب التقليدات رسوم يستوفيها من كل شيء بحسبه، وكان شابًا حسن الوجه، جميل المروءة، واسع النعمة، طويل اللسان، جيد العارضة، وسلم إلى منصور بن الشيرازي رسول أبي ي كاليجار إلى مصر

(1) صاحب المظلة : عبارة عن قبة على هيئة خيمة تعلو رأس عمود تحمل فوق رأس الخليفة عند ركوبه في الاحتفالات ولها مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، لذلك كان حاملها من أكابر الأمراء، "إبراهيم أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي"، ص 109.

(2) المقرئ؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخط والآثار، ج 2، ص 168.

(3) المصدر السابق، ص 238.

من بغداد مجلدين من شعره ورسائله، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبي القائم وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد، ويستشيريه في تخليدهما دار العلم لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منهما ارتضى واستجيد⁽¹⁾.

وعلى الرغم من فقدان شعره، فلم يبق منه إلا عدة مقطوعات قصيرة نستدل منها أن ابن خيران كان معجباً بنفسه، ويكثر الإشادة بشعره ونثره حيث يقول:.

ولقد سموت على الأنام بخاطر الله أجرى منه بحراً زاخراً

فإذا نظمت نظمت روضاً حاليماً وإذا نثرت نثرت دراً فاخراً⁽²⁾

ويقول:

خلقت يدي للمكرمات ومنطقي للمعجزات ومفرقي للتاج

وسموت للعلياء أطلب غاية يشقى بها الغاوي ويحظر الراجي⁽³⁾

ويقول أيضاً:

قد علم السيف وحد القنا أن لساني منهما أقطع

والقلم الأشرف لي شاهد بأنني فارسه المصقع⁽⁴⁾

ونستدل من هذه الأبيات أن ابن خيران قد فتن بشعره ونثره إلى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتي بالمعجزات، وإعجابه بنفسه لم يكن في الشعر أو في النثر، بل إن حياته كان يسيطر عليها هذا النتيه والإعجاب، حيث يورد ياقوت هذه القصة عنه : كان ابن خيران قد خرج إلى الجزيرة متنزهاً ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب والشعر والكتابة، وقد احتفوا به يميناً وشمالاً، فأدى بهم السير إلى مخاضة مخوفة، فلما رأى إجماع الجماعة من الفرسان عنها، وظهور جزعهم منها، قنع بغلبته، فولجها حتى قطعها، وانثنى قائلاً مرتجلاً:

ومخاضة يلقي الردى من خاضها كنت الغداة إلى العدا خاضها

وبذلت نفي في مهول خوضها حتى تنال من العدا أغراضها⁽⁵⁾

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص5.

(2) المصدر السابق، ج2، ص8.

(3) المصدر السابق، ج4، ص10.

(4) المصدر السابق، ج4، ص12.

(5) المصدر السابق، ج4، ص6.

2.5 ابن الشخباء العسقلاني (ت482هـ):

هو الشيخ المجيد أبو علي الحسين بن عبد الصمد بن أبي الشخباء العسقلاني صاحب الخطب المشهور، والرسائل المحببة، كان من فرسان النثر، وله فيه اليد الطولى، ويقال: إن القاضي الفاضل - رحمه الله - كان جلّ اعتماده على حفظ كلامه وأنه كان يستحضر أكثره (1). وكانت وفاته - رحمه الله - مقتولاً بخزانة البنود - وهي سجن بمصر - سنة ثلثين وثمانين وأربعمائة (2) وكان ابن الشخباء يلقب بالمجيد، ذي الفضيلتين (الشعر والنثر) أحد البلغاء الفصحاء، الشعراء، له رسائل مدونه مشهورة قيل أن القاضي الفاضل منها استمد وبها اعتد... كتب في ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر لأن في رسائله جوابات إلى الساسيري، إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء أمراء زمانه (3). وذكره العماد الأصبهاني في الخريدة فقال: "المجيد مجيد كنعته قادر على ابتداع الكلام ونحته له الخطب البديعة والملح الصنعة" (4).

ومن خلال كتابات ابن الشخباء السابقة، والنص التالي الذي بين أيدينا نلمح الخصائص الفنية التي امتاز بها ابن الشخباء:

يقول ابن الشخباء في رسالة يهنئ فيها بهزيمة أئسز بن أوق الغزّي الذي خرج في الشام وقد كتب بها سنه تسع وستين وأربعمائة (5):

"قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذخر للدولة الفاطمية - ثبت الله أركانها - من الحضرة العلية المنصورة الجيوشية - خلد الله سلطانها - من حمى سوادها ونصر أعلامها، وضمّ نشرها وحفظ سريرها ومنبرها، بعد أن كان الأعداء - الذين أدّ توضعوا درّ إنعامها وتوسّموا بشرف أيامها، فطردت يد الاصطناع إملاقهم وأثقلت قلائد الإحسان أعناقهم - رخفا ذمم الولاء وكفروا سوابغ الآلاء، ففاجأتهم الحوادث

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص133.

(2) ابن بسام، الذخيرة: القسم الرابع، مكتبة جامعة القاهرة، ورقه 183.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج9، ص152.

(4) العماد الأصبهاني: الخريدة: الجزء الخاص بشعراء مصر وفلسطين ورقة 14.

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج9، ص164.

من كل طريق، وذبّ بهم غراب الشتات والتفريق و استباحهم يد الشدائد، وأتى الله بنيانهم من القواعد، ولم تزل النفوس منذ طرق " أُنسز" اللعين هذه البلاد وأنجم فيها أنجم الفساد، وتعدّى حدود الله وكلماته، وتعرّض لمساخطته ونقماته، عالمة بأن إملاء الحضرة العلية مدّ الله ظلها على الكافة لم يكن عن استعمال رخصه في هذه الحال، ولا سكون إلى عوارض من الإغفال والإهمال، بل هو أمر ركب فيه متن التدبير، وجرت بمثله المقادير، وأتبع فيه قوله تعالى:..

﴿أَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾⁽¹⁾ في حين خدعته المطالع المردي، إلى الأعمال القاهرة، مؤملاً انفصام عروة الله المتينة، وأقول ما توقّد من شجرة مباركة زيتونه والله والمحمود على مامنح من هذه النعمة والمسؤول أن نشيد ببقاء الحضرة العلية قواعد الإسلام ويتسم بمحاورها إغفال الأيام، ويستخدم لها السيوف والأقلام، حتى لا يبقى على وجه الأرض مفحص قطاه إلا وقد دوّخها سنانك خيولها، ولا مسقط نواة إلا وقد ركزت فيه صدور رماحها و نصولها ، فقد دفعت خطباً جسياً واستلقت من السياسة أمراً عقيماً، وأعادت شمل الأمة ملوماً نظيماً ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".

ويتضح مما سبق من هذه الرسالة من فن ابن الشخباء في الكتابة أنه استخدم معظم الخصائص لفظية المصرية في الكتابة من السجع، واستخدام التشخيص والتصوير ومراعاة النظير، والاقتباس من القرآن الكريم ، وهذه عناصر أساسية في فن القاضي الفاضل .

وليس ذلك كل ما نجده عند ابن الشخباء من عناصر استمد منها القاضي الفاضل.

فهناك عناصر أخرى منها تصنعه لمصطلحات العلوم كقوله في مطلع رسالة بعض الوزراء وقد بلغه أن شخصاً هجاه عنده : "لو لم تقض الشريعة- أطال الله بقاء سيبنافض المقالة، عارية من البرهان والدلالة، لكان ذلك في الغر يزة راتباً

(1) سورة الحج آية رقم 44

وفي حكم العقول واجباً⁽¹⁾ فقد تصنع هنا لذكر المقالة والبرهان والواجب وحكم العقول والدلالة، وكل ذلك يسوقه في خفة تجعلنا لا نلحظه. ومن أمثله ذلك أيضاً:.

أنه استهل رسالة للأفضل بن بدر الجمالي بقوله: "خَلَّدَ اللهُ أيامَ الحضرة الأفضلية ما فضلت الأسماء حروفاً، وتقدمت واو العطف حروفاً، ولزمت الأفعال اشتقاقاً وتصريفاً"⁽²⁾.

ولكن ابن الشخباء لم يع مِم هذا في رسائله، بل هو يظهر فيها من حين إلى حين وهذه سنة الكتاب في الأقاليم المختلفة منهم لا يستمرون عند مذهب معين من مذاهب المشرق، بل هم دائماً يتقلبون بين المذاهب والأذواق المختلفة، فبينما ترى الكاتب يكتب رسالة من ذوق أصحاب التصنع، إذ هو يكتب أخرى من ذوق أصحاب التصنيع، أو من ذوق أصحاب الصنعة وهذا ما نذهب إليه من أن الأقاليم العربية لم تستحدث مذهباً جديداً في تاريخ الأدب العربي لا نثره ولا شعره، فقد وقفت عند صورة المذاهب الثلاثة من الصنعة والتصنع، والتصنيع، وكل ما أضافته إلى هذه المذاهب هو التنقل بينها في غير نظام، وهي الظاهرة كما تتصل بابن الشخباء تتصل بجميع كتاب العصر الفاطمي المتأخر، فليس بينهم من استطاع أن يبتكر مذهباً جديداً أو طريقة جديدة، وإنما الجمود عند المذاهب المسبوقة والطرق الموروثة"⁽³⁾.

3.5 ابن الصيرفي (463هـ/542هـ - 1071م/1147م):

هو للشيخ تاج الرياسة، أبو القاسم، علي بن منجب بن سليمان المعروف بابن الصيرفي الكاتب، ومولده في يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة (463هـ/1070) وكان أبوه صيرفياً وجده كاتباً، وأخذ صناعة الترسيل عن ثقة الملك، أبي العلاء، صاعد بن مفرج، وتنقل حتى صار صاحب ديوان الجيش، ثم

(1) ابن بسام: الذخيرة، القسم الرابع ورقة 183.

(2) المصدر السابق، ورقة 189.

(3) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، ص 363.

انتقل معه إلى ديوان الإنشاء، ومات الشريف سناء الملك ، أبو محمد الزيدي الحسيني تفود بالديوان فصار فيه بمفرد هـ، وله الإنشاء البديع والشعر الرائع والتصانيف المفيدة في التاريخ والأدب⁽¹⁾.

وقد أراد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (487-515) أن يجعل ابن الصيرفي في ديوان الإنشاء، محل الشيخ ابن أبي أسامة، ولكن خواصه منعه من ذلك⁽²⁾ وبعد وفاة ابن أبي أسامة في سنة (522/1128) آلت رئاسة الديوان إلى ابنه أبي المكارم هبة الله أن توفي في صدر خلافة الحافظ لدين الله⁽³⁾ فخلفه ابن الصيرفي في رئاسة الديوان إلى أن توفي سنة (542/1147).

وهكذا فقد أمضى ابن الصيرفي أكثر من خمسين عاماً متدرجاً في ديوان المكاتبات وديوان الإنشاء حتى تولى رئاسته في أيام الحافظ لدين الله، ومع ذلك فإن أغلب السجلات التي وصلت إلينا، من عهد الأمر بأحكام الله، أنشأها ابن الصيرفي وهو لم يزل كاتباً في الديوان، وهو الذي كتب سجل انتقال المستعلي وولاية الأمر سنة (495/1101)⁽⁴⁾.

وأنشأ السجل الخاص بنقل الشمسية إلى العربية سنة (501/1107) وأمره الوزير البطائحي، في سنة (518/1124) بكتابة السجل المعروف "بالهداية الأمرية في إبطال الدعوة النزارية" الذي أقرت فيه أخت نزار أن والدها المستنصر بالله

(1) المقرئزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، حوادث سنة (542هـ) ص141، وانظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 15، ص79-81 ابن سعد، الذجوم الزاهرة، 552-254 السيوطي، حسن المحاضرة، ج 2، ص233؛ جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، 50-51 محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص 342-348؛ إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثارهم المصنفين من كشف الظنون، دار الفكر، بيروت، 1990، ج5، ص198.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج5، ص79.

(3) لقلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص130، أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7، ص337.

(4) مقرئزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج3، ص31؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص604-607.

أوصى بالإمامة عند نقلته إلى ابن المستعلي دون نزار⁽¹⁾ وأغلب الكتب الصادرة بالبشارة بالسلامة مركوب الخليفة في الاحتفالات الموكبية، والتي تمت في أغلب الظن أيام الأمر بأحكام الله، والحافظ لدين الله أنشأها ابن الصيرفي وهو ما زال كاتباً في ديوان المكاتبات⁽²⁾.

وأول سجل أنشأه ابن الصيرفي يرجع إلى سنة (1101/495) وآخر سجل من إنشائه، وصل إلينا مؤرخ في سنة (1141/536) ومع ذلك فالأرجح أن ابن الصيرفي على رئاسة ديوان الإنشاء حتى وفاته يوم الأحد عشرين من صفر مؤرخاً سنة (1147/542) هو التاريخ الذي حدده ابن ميسر والمقريزي⁽³⁾، أما ياقوت الحموي والصفدي فقد جعلوا وفاته في أيام الصالح طلائع بن رزيك بعد سنة خمسين وخمسمائة⁽⁴⁾.

وقد عاش ابن الصيرفي حياته كلها في عصر الدولة الفاطمية، وأنشأ رسائل عن خلفاء مصر تزيد على أربع مجلدات، وبقي لنا منها قدر قليل منشور في خطط المقريزي، وصبح الأعشى، وحسن المحاضرة. ورغم هذه القلة فإننا يمكن أن نرى فيها خصائص النثر الفاطمي، وعقائد الدولة الفاطمية، وعادات خلفائها⁽⁵⁾.

ويُعَلَّنُ الصيرفي أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين، ويقول فيه ياقوت :
أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ومسلم ذلك له غير منازع ... وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر وتزيد على أربع مجلدات⁽⁶⁾.

(1) جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص 212-230.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 316-321، 324.

(3) المقريزي، الواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج 2، ص 289.

(4) ابن ميسر: أخبار مصر، ص 128 المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج 3، ص 185.

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج 15، ص 79؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 22، ص 228.

(6) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 15، ص 79.

ويشيد ابن سعيد في المغرب بلاغته قائلاً : "وقعت على ترسله في مجلدات عدة، فوجدت القاضي الفاضل البيساني على منواله وينزع منزعه"⁽¹⁾.
وتتضح مهارة ابن الصيرفي البيانية من خلال السجل الذي كتبه على لسان الأمر بوفاة الخليفة المستعلي وولايته بعده سنة 495هـ، وقد استهله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاه لهداية الناس، ويصلي على جدّه لأبيه علب بن أبي طالب ويقول : "إن الله أكرمه بالمنزلة العلية، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية، وخصّه بغوامض علم التنزيل، وجعل لهبرة التعظيم ومزية التفضيل"⁽²⁾. وكل ذلك ترداد لما كان يبدئ الفاطميون فيه من تفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وغيرهما من جلة الصحابة، وأن الله خصّه بعلم فوق العلم الديني المعروف للأمة، به يعرف المعنى الحقيقي للقرآن أو المعنى الخفي الذي يعلو على الفهم العادي ويشيد ابن الصيرفي على لسان الأمر بنشر أبيه المستعلي للعدل بين الرعية، ويصور فداحة الرزء به والفجيعة فيه ثم يقول: "وقد كان الإمام المستعلي بالله قدّس الله روحه - عند نقلته، جعل لي عقد الخلافة من بعده، وأودعني ما حازه من أبيه عن جدّه، وعهد إليّ أن أخلفه في العالم، وأجري الكافة في العدل والإحسان على منهجه المتعالم، وأطلعني من العلوم على السر المكنون، وأفضي إليّ من الحكمة بالغامض المصون، وأوصاني بالعطف على البرية، والعمل فيهم بسيرته المرضية؛ بما جبلني الله عليه من الفضل، وخصّني به من إثارة العدل، وإني نني فيما استرعيته - سالك منهاجه، عامل بموجب الشرف الذي عصب الله لي تاجه"⁽³⁾.

(1) ابن سعيد علي بن موسى المغربي "1285/673" كتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق "ليدن سنة 1898-1899"، القسم الأول من الجزء الخاص بمصر نشره زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيده إسماعيل كاشف، "القاهرة 1953"، دار الكتب المصرية، ص252.

(2) الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص199.

(3) المرجع السابق، ص200.

والسجل كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة وفيه يقرر ابن الصيرفي على لسان الأمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آباءه، وأن أباه عهد إليه بها، فهو يخلفه عن عهد أو وصية، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة إلى علي وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن، ويقول ابن الصيرفي على لسان الأمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين، في أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطني، يتوارثه إمام بعد إمام منتقلاً من جيل إلى جيل، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة، لا تحدّها حدود، طاعة بدون قيد أو شرط.

4.5 أبو الفتح بن قادوس (ت1158/553م):

أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن الحسن العمري المعروف بابن قادوس الدميّطي كاتب الإنشاء بمصر توفي سنة (553هـ/1158) وله ديوان شعر⁽¹⁾. يقول عنه العماد أشعاره محكمة النسيج، كالدر في الدرج⁽²⁾. ووصفه ابن ميسر بقوله: "كان من أمثال المصريين وكتابهم مقدماً عند ملوكهم"⁽³⁾. وهو شيخ القاضي الفاضل وكان يسميه ذا البلاغتين، وذكره العماد في الخريدة ومن شعره فيمن يكرر التكبير ويوسوس في نية الصلاة في أولها. وفاترُ النية عنيها مع كثرة الرعدة والهمزة يكبرُ التسعين في مرة كأنه يصلي على حمزة⁽⁴⁾.

(1) إسماعيل باشا، هدية العارفين لسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، ج 6،

(2) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، قسم شعراء مصر، تحقيق : أحمد أمين وزميله - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1952، الخريدة ورقة49.

(3) ابن ميسر، أخبار مصر، ص97.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص293.

ويقصد القاضي الفاضل بالبلاغتين بلاغة الشعر وبلاغة النثر.

وهناك قصة يرويها القدماء عنه وهي انتصاره للجليس بن الحباب، فقد كان ابن الصياد الشاعر مولعاً بهجاء الجليس، كثير الدعابة بأنفه، حتى قيل إن مقطعات ابن الصياد في ذلك بلغت ألف مقطوعة، فانبرى له ابن قادوس ينتصر للجليس قائلاً:
يا من يعيب أنوفنا الـ شـ — ثم التي ليست تعاب
الأنف خلقه ربنا — وقرونك الشم اكتساب (1)

ولقد انبرى ابن قادوس للدفاع عن الجليس من أجل تحقيق مآربه الشخصية، سواء في الديوان أو في غير الديوان من مناصب الدولة بحكم الصلة القوية التي كانت بين الجليس والخليفة الفاطمي من ناحية، وبين الجليس والملك الصالح طلائع بن رزيك من ناحية أخرى، ولولا أطماعه ما كان ينشد هذين البيتين.

وكان ابن قادوس يكره الادعاء والإعجاب، ويكره من يتصف بهما، ويدلنا على هذا الخلق فيه أنه اجتمع ليل عقد الصالح بن رزيك، هو وجماعة من جلسائه، فألقى عليهم الصالح مسألة في اللغة، فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد بن الزبير، فأعجب به فقال الرشيد: ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتني أتوقد فهماً.
فقال ابن قادوس: وكان حاضراً:

إن قلت: من نارٍ خلقتُ وفقتُ كل الناس فهما.

قلنا: صدقت، فما الذي أطفأك حتى صرت فحماً.

كما هجاه مرة أخرى بقوله:

يا شبه لقمان بلا حكمة وخاسراً في العلم لا راسخاً

سلخت أشعار الورى كلها فصرت تدعى: الأسود السالخا (2)

وكان الدافع له على هذا الهجاء هو ما لمسّه في ابن الزبير من ادعاء وإعجاب (3). وبرغم شهرة ابن قادوس في الكتابة لم يبق التاريخ إلا على القليل مما

(1) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، ورقة 68.

(2) السالخا: اسم للأسود من الحيات.

(3) أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص 347-348.

كتبه، وكان حفيظ الشعر أسعد منه في النثر، برغم قلّة ما بقي له من ذلك أيضاً، فليس لدينا من شعره إلا صفحات من ديوانه الذي قال عنه صاحب كشف الظنون أنه في مجلدين، وتجد هذا الشعر في الخريدة ووفيات الأعيان، والطالع السعيد، ومعجم الأدباء، وحسن المحاضرة، وخطط المقرئزي، وفوات الوافيات ومعاهد التنصيص، والرسالة المصرية⁽¹⁾.

ومن نثره ما كتبه بالبشارة بوفاء النيل:

"النعم وإن كانت شاملة للأمم، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم، فأولاهما بشكر تنشر في الآفاق أعلامه، واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه، نعمة يشترك في النفع بها العباد، وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد، وتلك النعمة النيل المصري الذي تبرز به الأرض الجرّز في أحسن الملابس، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس، وترى الكنوز ظاهرة للعيان، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان، فسببخا من جعله سبباً لإنشار الموات، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات ووفّر مواد الأرزاق والأقوات، وهذا الأمر صادر إلى الأمير، وقد منّ الله -جلّ وعلا- بوفاء النيل المبارك"⁽²⁾.

5.5 ابن الخلال (ت566هـ/1170م):

يوسف بن محمد بن الحسين الموفق، أبو الحجاج، المعروف بابن الخلال، صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد صاحب مصر⁽³⁾.

قال العماد في حقه، ناظر ديوان مصر وإنسان ناظرها، وجامع مفاخرها، وكان إليه الإنشاء، وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء⁽⁴⁾ كان صاحب ديوان

(1) أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص349.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج8، 332.

(3) الصفدي، صلاح الدين بن أبيك (696-764هـ) نكت الهميان في نكت العميان، تحقيق : طارق الطنطاوي، دار الطلائع، القاهرة، 1994، ص266.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص407.

الإنشاء بمصر في أيام الحافظ وأنه استمر في مرتبته إلى آخر عهد الدولة الفاطمية⁽¹⁾.

وكان الفاضل قد سيره أبوه، قاضي عسقلان إلى ابن الخلال ليتخرج به في فن الكتابة ويتدرب عليها فلما وصل إليه قال له: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقال ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة، فقال: في هذا بلاغ، ثم أمره بملازمته فلازمه وتدرب بين يديه، ثم أمره بعد ذلك أن يحل شعر الحماسة، فحلّه من أوله إلى آخره ثم أمره به فحلّه مرة ثانية⁽²⁾ ويقول ابن خلكان: " ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة لقطع في بيته، وكان القاضي الفاضل يرفع له حق الصحبة والتعليم، ويجري عليهما يحتاج إليه إلى أن مات - رحمه الله تعالى -⁽³⁾ وابن الخلال أحد الذين ذكرهم عمارة اليميني فقال: ووجدت بحضرته (أي بحضرة الصالح بن زريك من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الحباب والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية، والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب، ويرمي شاكلة الإشكال فيصيب⁽⁴⁾.

ويقال: أن الموفق بن الخلال كان يكتب إلى القاضي الفاضل وهو عاطل في بيته، خادمه يوسف، وكان الفاضل يقول: إلى متى يخبأ الألف واللام، يعني يقول

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص130.

(2) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص266.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص409، وانظر الصفدي نكت الهميان، ص266، ابن الأثير، نصر الله بن محمد الأثير (ت637هـ)، الوشى المرقوم في حل المنظوم مطبعة ثمرات الفنون، 1298هـ، ص9.

(4) عمارة اليميني النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية (طبع مدينة شالون 1897) ص34.

الخادم⁽¹⁾ تكاد تجمع المصادر التي بين أيدينا والتي حدثتنا عن الموفق ق بن الخلال أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل، وعلى براعته في فن الترسل⁽²⁾. وابن الخلال هو كاتب سجل ولاية شاور الوزارة لمرة ثانية؛ أي بعد انتصاره على ضرغام، جاء فيه.

"سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد الله إليك، الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جد محمد خاتم النبي وإمام المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وسلم تسليماً (أما بعد): فالحمد لله فاتح الرغائب ومنيلها وكاشف المصاعب ومزيلها ومذل كل عصابة كلفت بالغدر والشقاق ومزيلها، ناصر من بغى عليه، وعكس كيد الكائد إذا فوق سهمه إليه، وراد الحقوق على أربابها، ومرجع ظلمات على من هو أجدر برقيها وأولى بها، ومسني الخير بتيسير أسبابه، ومسهل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه، ومدني نائي الحظ بعد نفوره واغترابه، ومطلع الشمس بعد المغيب، ومدارك الخطب إذ أعزل بالفرج القريب، ومبدع ما كان ويكون، ومسبب الحركة والسكون محسن التدبير، ومسهل ومسهل التعسير⁽³⁾: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽⁴⁾.

فمن هذا السجل⁽⁵⁾ نرى كيف سار ابن الخلال على فهم من سبقوه من كتاب مصر الفاطمية، ثم تبين لنا كيف استطاع ابن الخلال أن يستغل مصطلحات بعض العلوم وينظمها في سلك كتابته ليضيف إليها قوة في الصناعة ولم يكن ابن الخلال كاتباً فحسب، بل كان شاعراً أيضاً، شأنه في ذلك شأن كثير من الكتاب الفاطميين،

(1) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص 266.

(2) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص 355.

(3) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 320-327.

(4) سورة آل عمران، آية 26.

(5) انظر السجل كاملاً في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص 223.

وتظهر الصنعة البديعية في شعره، كما ظهرت في نثره من قبل فهو يقول من قصيدة:

عَتَبْتُ لَيْالٍ بِالْعُذِّيبِ حَوَالٍ وَحَلَّتْ مَوَاقِفُ بِالْوَصَالِ حَوَالٍ
وَمَضَتْ لَذَائِدُ تَقْضَى ذِكْرَهَا تَصْبِي الْخَلَى وَتُسْتَهِيمُ السَّالَى
وَحَلَّتْ مُورِدَةُ الذُّودِ فَأَوْثَقْتُ فِي الصَّبْوَةِ الْخَالِي بِحَسَنِ الْخَالِ
قَالُوا سِرَاةُ بَنِي هَلَالٍ أَصْلَهَا صَدَقُوا كَذَلِكَ الْبَدْرِ فَرَّغُ هَلَالٍ⁽¹⁾
وَمِنْ شَعْرِهِ أَيْضًا:

وَصَعْدَةُ لَدْنَةٍ كَالْتَرْدِ تَقْتَقُ فِي جَنْحِ الظَّلَامِ إِذَا مَا أُبْرَزَتْ فَلَقَا
تَدْنُو فَيُخْرِقُ بُرْدَ اللَّيْلِ لَهْذَمُهَا وَإِنْ تَأْتِ رَتَقُ الْإِظْلَامِ مَا فَتَقَا
وَتُسْتَهْلُ بِمَاءٍ عِنْدَ وَقْدَتِهَا كَمَا تَأْلُقُ بَرْقُ الْغَيْثِ فَانْدَفَقَا
كَالصَّبِّ لُونًا وَدَمْعًا وَالتَّظَا وَضْنِيَّ وَطَاعَةً وَسَهَادًا دَائِمًا وَشَقَا
وَالْحُبِّ أُنْسًا وَلِينًا وَاسْتَوَى وَسَنَا وَبَهْجَةً وَطُرُوقًا وَاجْتِلَاً وَلَقَا⁽²⁾

كما روى أن بيتاً أنشده كان سبب قطع صلة شاعره من شعراء القصر، وذلك أن الشاعر أبا القاسم بن هانئ وكان من سلالة الشاعر ابن هانئ الأندلسي المعروف - كان يهجو ابن الخلال، فأضمر هذا له حقداً، فاتفق في بعض المواسم أن تقدم الشعراء للنشيد بين يدي الخليفة، وانتهت النوبة إلى ابن هانئ فأنشد وأجاد فسأل الخليفة ابن الخلال رأييه في قصيدة ابن هانئ، فلم يسعه إلا أن يثني عليه ويبالغ في وصفه، ثم قال: ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى ابن هانئ الأندلسي شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها، وناظم مآثرها، لولا بيت أظهر منه الضجر عند دخول جوهر هذه البلاد فقال له الخليفة: ما هو؟ فتخرج الموفق ابن الخلال إنشاده وأبى الخليفة إلا أن ينشده وفي أثناء ذلك صنع الموفق بن الخلال بيتاً

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص408.

(2) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص267.

هجا فيه الأئمة الفاطميين، فعظم ذلك على الخليفة، وقطع صلة الشاعر، وكاد يفرط في عقوبته⁽¹⁾.

وكان الموفق بن الخلال خال القاضي الجليس عبد العزيز بن الحسين بن الحباب فحصل لابن الخلال نكبة⁽²⁾، وحصل لابن الحباب بسبب خاله ابن الخلال صداع فكتب ابن الحباب إلى القاضي الرشيد بن الزبير.

تسمّع مقالي يا ابن الزبير فأنت خايقٌ بأن تسمّعه
بلىنا بني نسبٍ شابك قليل الجدّ في زمان الدّعه
إذا ناله الخير لم نرجّهُ وإن صفّعوه صفّعنا معه⁽²⁾
ولعلّ لمُخمل ما قاله عن تقلبات الأيام، وربما أن شاء بعد أن أدبرت عنه الدنيا، واضطر إلى البقاء ضريراً في منزله، فقال⁽³⁾:

شيم الأيام صدّ بعد ود والليالي عهدا أهون عهد
إن أعانت عدلت، أو خذلت سلبت، أو أدت راعت بفقد
أفّ للدنيا، فكم تخذعنا من حباها بمعادٍ مسترد
ما وفت أعوام قرب با لذي جنت اللوعة من ساعة بعد
يا أبا العزة، حسب الدهر من عظة المغرور ما أصبح يدي
تؤثر الدنيا فهل نلت بها لحظة تخلص من هم وكد
وهي قطعة نابضة بالحياة تصف ألمه في آخر أيامه.

(1) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ص 357-358.

(2) الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان، ص 267.

(3) أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر الشام، ص 355.

6.5 القاضي الفاضل:

وهو الفاضل، محي الدين ، أبو علي ، عبد الرحيم بن الشرف ، أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي الفرج اللخميّ العسقلاني ⁽¹⁾ المولد، عُرِفَ بالبيسانيّ ⁽²⁾ وولي أبوه القضاء والخطابة بعسقلان، واستخدم شاور ⁽³⁾ القاضي الفاضل في ديوان المكاتبات مع الموفق بن الخلال ⁽⁴⁾؛ ومولده يوم الاثنين خامس عشر من جمادى الآخرة، سنة تسع وعشرين وخمس مائة (526هـ / 1134) والأرجح أنه ولد سنة (526هـ / 1131م) يذكر في إحدى رسائله أنه تجاوز السبعين عاماً، قائلاً : فإن السبعين حُزّت عتبتها وقطعت عقبتها، وأسأل الله الخير في القُدوم عليه ، واللفظ عند الوقوف بين يدي هـ". ولعلّه كتب هذه الملاحظات في العام الأخير من حياته سنة (596هـ / 1099-1200) وهذا يرجح ولا دته سنة (526هـ / 1131) ⁽⁵⁾. ولقد عاش القاضي الفاضل نحو سبعة عشر عاماً من حياته في عسقلان في كنف والديه، فدرس القرآن الكريم والحديث وديوان الحماسة، وغيرها من العلوم، في

(1) العسقلاني: نسبة إلى عسقلان، وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، يقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لها دمشق (معجم البلدان: 127/4).

(2) البيساني: نسبة إلى مدينة بيسان وهي مدينة بالأردن بالغور الشامي وهي بين حوران وفلسطين، وتعدّ من أوائل المدن التي فتحها العرب، حيث ازدهرت أيام العرب، واشتهرت بنخيلها وخمورها التي كانت تصدر للحجاز (معجم البلدان: 625/1) والروض المعطار: 119 ودائرة المعارف الإسلامية: 409/4).

(3) شاور بن لجير بن نزار، أبو شجاع، وزير من الولاة فيه نجابه وفروسية ، لقب بأمر الجيوش انظر (مالك الأَبصار : 239/11، والروضتين 130/1، البداية والنهاية 278/12 تاريخ ابن خلدون: 77/4، ووفيات الأعيان 239/2 والأعلام، 154/3).

(4) هو أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الحلال، الملقب صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ العبيري وأحد كبار المترسلين (ت566هـ). انظر: وفيات الأعيان 219/7، شذرات الذهب 219/4 وتاريخ ابن الفرات : 133/1، وفية ابن الخلال، وثمرات الأوراق: 137، الأعلام: 247/8.

(5) الحنبلي: عبدالحى بن العماد الحنبلي شذرات الذهب في أخبار من ذهب "، القاهرة: دار الفكر، 1979، ج4، ص342.

جامع المدينة التي كانت موئلاً للفقهاء من فلسطين وغيرهم ممن أراد الجهاد والشهادة، وفي تلك الفترة الحرجة التي كانت خلالها معنويات أهالي عسقلان والمسلمين في الشام ومصر محبطة لتوالي الهزائم والإحباطات، وتركزت آمال الجميع على منقذ يأخذ بيدهم إلى طريق النصر، فظهر عماد الدين زنكي، ونادى للجهاد وكسر الفرنج في الرها وحررها سنة (539هـ/1144)، فأحيا الآمال بالنصر وأعاد للمسلمين شيئاً من الثقة بالنفس فالتقوا حوله وساندوه وأذاعوا أنباء نصره⁽¹⁾.

كانت نقطة التحول في مسيرة عبدالرحيم البيساني العسقلاني سنة (543هـ/1148) عندما قرر والده أن يرسله إلى القاهرة ليتدرب على الإدارة مثله، ويتعلم فن الكتابة والإنشاء، فقد جرت العادة بين أصحاب الدواوين في البلاد التابعة للخلافة الفاطمية أن يرسلوا أبناءهم إلى ديوان الإنشاء في القاهرة، لما له من سمعة حسنة، ولما للمتخرجين منه من مجالات للعمل في القاهرة أو في المقاطعات والثغور⁽²⁾.

وأدرك القاضي الأشرف أن ابنه يتمتع بموهبة أدبية، وقد عبّر عن ذلك بشعر نظمه في سن مبكرة من عمره أو في نثر متين لديوان الحماسة، وقد فهم وحفظ القرآن الكريم قبل أن يكمل السابعة عشرة من عمره، فرأى الكتابة الديوانية، ومن ثمّ الإدارة أفضل مجال لإبراز مواهب ابنه هذا الذي اختلف عن باقي أبنائه⁽³⁾.

أرسل القاضي الأشرف ابنه عبدالرحيم إلى الإسكندرية، وأوصاه بالذهاب إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات الذي كان يرأسه ابن الخلال، أحد كبار كتاب مصر وأدبائها، وقد كان القاضي الأشرف يعرف ابن الخلال بالسمع وعن طريق المراسلة؛ لأن ديوان ثغر عسقلان، كان من أهم الدواوين المصرية، ومرتبطة في جميع شؤونها بدواوين القاهرة مثل ديوان الإنشاء والمال والثغور، ولقد عُرف ابن

(1) شكيل، هادية دجاني، القاضي الفاضل عبدالرحمن البيساني العسقلاني، دورة التخطيط في دور صلاح الدين وفتوحاته، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1993، ط1، ص40.

(2) هادية دجاني، القاضي الفاضل، ص42.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، 219-220.

الخلال بدوره القاضي الأشر ف بالطريقة ذاتها وبالمرسلات الرسمية، وربما عن طريق المكاتبات الشخصية⁽¹⁾ وحالما استقر عبدالرحيم في مصر، قصد ديوان الإنشاء في القاهرة، حيث قابل الشيخ موفق الدين يوسف بن الخلال، كاتب الدست رئيس الديوان⁽²⁾ فاستقبله بكل لطف وحفاوة، ثم استفسر عن أهدافه، فرد عليه عبدالرحيم بأنه قصده للتدريب على الكتابة والإنشاء والإدارة، ولما سأل ابن الخلال عما أعدّه لفن الكتابة أجاب بأن م حصوله العلمي حفظ القرآن الكريم، وديوان الحماسة، فأجابه ابن الخلال قائلاً : في هذا بلاغ، ثم طلب منه أن يلزمه ففعل، ثم طالبه بعد ذلك بنثر ديوان الحماسة ففعل⁽³⁾.

لاحظ ابن الخلال نبوغ تلميذه الصغير فوجهه خير توجيه، وساعده في تنمية مواهبه، ولقد أثمرت رعاية ابن الخلال لتلميذه الصغير، فلقي منه الوفاء عندما كبر وفقد بصره وحركته (ت566هـ/1169-1170) ولم يبق له من يقوم به، فكان عبدالرحيم خير راع ومعين ومساعد مخلص، يواده ويزوره ويقدم له كل ما يحتاج إليه من لوازم الحياة⁽⁴⁾.

وقد درّب ابن الخلال عبدالرحيم على فنون النثر والكتابة الديوانية، كما وصله بعالم من كبار علماء البلاغة في عصره، وهو القاضي المفضل كافي الكفاة أبو الفتح أسعد الدميّطي المعروف بابن قادوس⁽⁵⁾ (ت553هـ/1158) فاحتضنه هذا الآخر، ودربّه في فن البلاغة، ولكنه نظراً لكثرة أشغاله في الدواوين لم يعطه وقتاً كافياً للمناقشة والبحث، فكان عبدالرحيم يرافقه في أثناء ركوبه من الديوان في القاهرة إلى مصر ويتباحث معه في شتى الأمور المتعلقة بفنون الكتابة والآداب، وهكذا تبوّع عبدالرحيم في أثناء دراسته على يد اثنين من كبار المتقّدين في مصر، إذ أصبح اسمه يقترن باسميهما في بداية أمره في الديوان.

(1) هادية دجاني، القاضي الفاضل، ص43.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص219-220.

(3) المصدر السابق، ج7، ص220.

(4) المصدر السابق، ج7، ص225.

(5) ابن ميسر، تاريخ مصر، ج2، ص97.

شاهد عبدالرحيم في كل من مصر والقاهرة حياة علمية دينية مزدهرة متناظرة على حد ما عن حياة عسقلان العلمية الدينية المحدودة والموجهة إلى الجهاد، فقد رأى في مصر كثيراً من الجوامع ، كجامع عمرو بن العاص المعروف بالجامع العتيق، وسط الفسطاط، وجامع ابن طولون (نم بناؤه سنة 266هـ/876م) خارج الفسطاط، في القطائع بالإضافة إلى عدد كبير من المساجد الصغرى عُرِفَت بمساجد الخمس، ويذكر في بناء هذه المساجد الصغرى أنه عندما دب الفناء بأهل مصر في عهد كافور، خفّت الزكاة كثيراً، فجمع ما أمكن جمعه ليسلم إلى كافور فرفضها قائلاً: "ابنوا بها المساجد واتخذوا لها الأوقاف، فكان سبب كثرتها"⁽¹⁾.

ومع كل ما رآه القاضي الفاضل في القاهرة من أشكال وألوان زاهية ظاهرياً، فإن الحياة فيها كانت رسمية جافة، تقتصر إلى الروح الشعبية التي تميزت بها مصر، فقد كانت الفئات المختلفة منعزلة عن بعضها بأحيائها، ولكنها تتصارع بشأن النفوذ بحيث تعكر صفو الحياة في القاهرة، ولكم وقعت خلافات مسلحة بين الفرق العسكرية المختلفة فيها، وهذا ما أضعف الخلافة الفاطمية وأدى في النهاية إلى سقوطها⁽²⁾، كانت القاهرة عاصمة الفاطميين الذين عزلوا فيها أنفسهم عن الشعب المصري، إذ أحاطوها بسور وحرّموها على العامة، بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يدخلها من دون إذن خاص، وإن دخلها الرسل والأمراء وذوو النفوذ، فإنهم يدخلونها بين صفوف من الحرس والخدم المسلّحين حتى يصلوا إلى مجلس الخليفة الذي كان يعيش بعيداً عن مرأى الشعب⁽³⁾.

دخل عبدالرحيم ديوان الإنشاء طالباً في السابعة عشرة من عمره، وظل يتدرج فيه وفي غيره من الدواوين إلى أن تولّى رئاسته بعد ثلاثة وعشرين عاماً من دخوله القاهرة، وتولاه بعد أستاذه الشيخ موفق الدين بن الخلال مباشرة.

ودرس عبدالرحيم في ديوان الإنشاء موضوعات أخرى، بالإضافة إلى البلاغة والنثر الفني، وأسس الكتابة الصحيحة التي تلقاها على يد ابن الخلال وابن

(1) هادية دجاني، القاضي الفاضل، ص46.

(2) المقرئزي، اتعاط الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج3، ص149.

(3) المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج1، ص361-362.

قادوس، وبينها قواعد اللغة العربية من نحو وصرف؛ لأن هذه العلوم "رأس مال الكاتب" وأُسْـكـلامه وكنز إنفاقة"، وغريب اللغة لانتشار الغريب من الألفاظ في القرآن والحديث والشعر، كما درس الأمثال والخطب، وهذه جميعها من مصادر الكاتب، ولا بد أن يكون قد درس موضوعات أخرى تتجلى في كتاباته وكان العلم بها مطلوباً من الكتاب، مثل التاريخ والعقيدة الإسماعيلية؛ لأنهم يستشهدون بال كثير من الشعارات الإسماعيلية في كتاباتهم، ولما كان ديوان الإنشاء يدرّب الطالب على فن الكتابة في الدواوين كافة، مثل ديوان الجيش وديوان المال، فلا بد من أن يتدرّب الطالب على الإدارة المالية بصورة خاصة وهي تتطلب المعرفة بجغرافية مصر ونوعية الأراضي وطرق الري والإقطاعات وغيرها⁽¹⁾. وكان عبدالرحيم بحكم تدريبه وعمله التدريبي في ديوان الإنشاء، يتصفح ما يقع بين يديه من الوثائق، وربما حفظه جيداً كنموذج للكتابة الحسنة، ومن الكتاب السابقين له الذين أعجب بأسلوبهم ابن أبي الشخباء العسقلاني⁽²⁾.

وكان ديوان الإنشاء بالإضافة إلى مسؤولياته المتفرعة، أحد معاهد العلم العديدة في القاهرة، ومهمته تدريب الطلبة على الكتابة والإدارة ثم دفعهم إلى العمل فيها في دواوين مصر المركزية أو الإقليمية العديدة، فهو م عهد تدريبي أكثر مما هو علمي، ولكن القاهرة كانت تزخر أيضاً بالمعاهد العلمية والحلقات الثقافية⁽³⁾.

وجد عبدالرحيم القاهرة مركزاً ثقافياً زاهراً، فاستفاد منه في تكوينه الثقافي العلمي، وأما حنكته السياسية التي تجلت بأوضح مظاهرها بعد نحو عشرين عاماً من دخوله القاهرة، فقد استمد أصولها من الأحداث السياسية التي شاهدها وعاشها، وكان من الأحداث الأولى التي شاهدها عبدالرحيم أول دخوله القاهرة، صراع دموي بين طائفتين عسكريتين هي الطائفة الجيوشية الأرمنية والطائفة الريحانية السودانية، وقد شلت خلالها الحركة داخل القاهرة، وانتهت بهزيمة الريحانية⁽⁴⁾.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص 204-206.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 89-90.

(3) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1963، ص 45-46.

(4) المقرئ، اتعاظ الحنفاء، أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج3، ص 189.

درس القاضي الفاضل وعمل في القاهرة خلال حكم الخليفة الظافر (544-549هـ/1149-1154) أي خلال فترة حالكة من تاريخ مصر، تميزت بأحداث عظام داخل مصر وخارجها أدت إلى سقوط عسقلان في يد الفرنج وانهيار الخلافة الفاطمية، وكان أول هذه الأحداث صراعاً دموياً بشأن الوزارة بين بعض أمراء الدولة، فقد اختار الخليفة الظافر بحسب وصية والده الخليفة الحافظ الأمير نجم الدين أبي الفتح سليم بن محمد بن مصال (ت544هـ/1149)، لكن سرعان ما ظهر لابن مصال منافس هو الأمير علي بن إسحاق بن السلار والي البحيرة والإسكندرية. الذي خطب الوزارة لنفسه وتوجه مع ركن الإسلام عباس بن تميم بن المنصور بن باديس والي الغربية إلى القاهرة، ودخلها بعد المفاوضات مع الخليفة الظاهر، وخلع عليه بالوزارة ولقب بالسيد الأجل أمير الجيوش⁽¹⁾. وقد رافق ابن السلار في ثورته هذه طلائع بن رزيك أحد الأمراء المقدمين الطامعين في الحكم، وقد كُتِبَ له أن يلي الوزارة بعد مقتل ابن السلار (ت549هـ/1154م) ورعاية عباس، وكتب لعبد الرحيم أن يبدأ مسيرته العلمية منذ قيام الوزارة⁽²⁾. لم تمضِ خمسة أعوام على وزارة ابن السلار حتى ثار عليه ربيبه (ابن زوجته) عباس، وتسبب بقتله على يد ابنه (ابن عباس بن نصر)، وكان نصر خليل الخليفة الظافر، وقد استغل بساطته واستفاد منه مالاً وجاهاً، ثم اغتاله، كما اغتال والده "عباس" بمساعدته بعض أفراد الأسرة الفاطمية، ويعين خليفة طفلاً عمره خمسة أعوام وعشرون يوماً سماه الفائز⁽³⁾ القصر الفاطمي سرعان ما جمع قواه بقياده نسا ئه (عمات الظافر) اللاتي اتصلن بطلائع بن رزيك والي الأشمونين يستتجنن به على عباس، دخل ابن رزيك القاهرة يوم الأربعاء التاسع عشر من ربيع الأول من سنة (549هـ/1154) ليلقى بدوره مصرعه بعد وزارته بستة أعوام، وكان بين الشعراء الذين قصدوه للتهنئة عبد الرحيم البيساني (القاضي الفاضل)⁽⁴⁾.

(1) المقرئزي: اتعاظ الحنفائي، أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج3، ص196-198.

(2) المصدر السابق، ج3، ص197.

(3) المصدر السابق، ج3، ص197.

(4) المصدر السابق، ج3، ص214.

علّمت الأحداث الجارية ضمن القصر الفاطمي، وداخل القاهرة عبدالرحيم دروساً في السياسة، طبق بعضها في حياته، وإذا كانت هذه الأحداث التي شاهدها قد زادت علماً وخبرة، فإن أحداثاً أخرى ناجمة عنها أصابته في الصميم وولّدت في نفسه شيئاً من المرارة ظهرت عاقبتها بعد أن أصبح ذا نفوذ في الدولة الفاطمية، فأول ما أصاب قلبه من سهام، في بداية خلافة الظافر، وفاة والده القاضي الأشرف مهاناً حزيناً مجرداً من كل ما جناه في حياته⁽¹⁾.

بعومقتل ابن رزيك على يد شاور، اتصل به القاضي الفاضل، وتوثقت الصلة بينه وبين شجاع بن شاور، حتى صار أكبر من اتصل به القاضي الفاضل في عصر الدولة الفاطمية، ويحتفظ ديوانه بكثير من القصائد التي مدحه بها، وقد هيات له هذه الصلة أن يتصل بالعاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وفي ديوانه مفتتح قصيدة مدح بها خليفة فاطمياً، يقول فيها متخلصاً من الغزل إلى المديح:

فإن فؤادي بعدكم قد فطمته عن الشعر إلا مدحه لابن فاطم

وعن العاضد صدرت سجلات ومكاتبات تعلم القاضي الفاضل، منها تلك الرسالة التي أرسلها العاضد إلى نور الدين محمود يطلب أن يقيم عنده أسد الدين شيركوه، كما كتب سجل تنصيب أسد الدين وزيراً، فلما مات كتب سجل تنصيب صلاح الدين وزيراً من بعده⁽²⁾. فلما ولي صلاح الدين أمر مصر استخلصه لنفسه.

فتح القاضي الفاضل أشرف صفحات حياته يوم اتصل بصلاح الدين، ففوض إليه الوزارة وديوان الإنشاء، واتخذ ساعده الأيمن فيما أراده من إصلاحات مالية وحرى القاضى الفاضل لسان صلاح الدين إلى الخلفاء والملوك والأمرام والمسجل لحوادث الدولة وأحداث هذه الحقبة من الزمن، وتمكن من السلطان غاية التمكن حتى لم يعد في الدولة إنسان يعطوه في مكانته ومنزلته، وقد صحب القاضي الفاضل السلطان صلاح الدين في غزواته ببلاد الشام بين سنتي 585 و586هـ، ثم أقام بمصر ليشرّف على الإدارة المالية ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول، و

(1) المقرئزي: اتعاظ الحنفائي، أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج3، ص219-220.

(2) بدوي: أحمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط2، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص357.

بعدئذ عاد إلى سوريا بجوار صلاح الدين وظل بالقرب منه حتى مرضه الأخير وشاهد وفاته في 27 صفر 589هـ، وبعد ذلك اعتزل القاضي الفاضل الحياة السياسية بعد أن رأى اختلال الأدب والافتراق الكلمة، بعيداً عن خضم الحياة العامة، وفي ليلة اليوم الذي دخل فيه العدل القاهرة، توفي الفاضل يوم الثلاثاء أو الأربعاء 6 أو 7 ربيع الآخر سنة 596هـ (26 أو 27 يناير سنة 1200م) ودخل الملك الأفضل فصلى عليه، وكان له يوم مشهود⁽¹⁾.

ولم يكن القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء في عهد صلاح الدين فحسب، بل كان الوزير الذي لا يبرم صلاح الدين أمراً من غير مشورته، بل كان ينوب عنه في مصر، عند انشغاله بشؤون الشام وجهاد الصليبيين فيها⁽²⁾.

وقد اجتمع في القاضي الفاضل من الصفات ما حبه إلى صلاح الدين فقد كان نزيهاً نظيفاً قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، ملازماً للقرآن، والاشتغال بعلوم الأدب⁽³⁾.

ومن مظاهر الخير لدى القاضي الفاضل أنه أقام مدرسة في القاهرة، ووقف الأوقاف لطلبة العلم⁽⁴⁾.

وقد كان القاضي الفاضل شاعراً إلى جانب كونه ناثراً، وقد طبع له ديوان شعر ولا بد من الإشارة إلى أن تراث القاضي الفاضل النثري، ذو قيمة تاريخية وثائقية، أكثر من قيمته الأدبية، لأن ذلك التراث رسائل مرتبطة بأحداث تاريخية وبخاصة أحداث الحروب الصليبية، وهي تكشف صورة الواقع السياسي في ذلك العصر الذي كتبت فيه، وما يزال كثير من هذه الرسائل موجوداً تحت أسماء متعددة في عالم المخطوطات، منها ترسل القاضي الفاضل، ورسائل القاضي الفاضل،

(1) بدوي محمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط 2، ص 358-359.

(2) ضيف، عصر الدول، 412.

(3) ابن العماد والحنبلي، ج 4، 325.

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، 241.

والبدر النظيم في ترسل عبد الرحيم، وابن سناء الملك كتاب "نصوص الفصول وعقود العقول".

القاضي الفاضل وطريقته في الكتابة

طريقته في الكتابة :. لقد نشأ القاضي الفاضل في عصر بلغ فيه التألق البياني في الشعر والنثر مبلغاً عظيماً، حتى أصبح التتميق غاية الكاتب يصرف كل همه إلى إلباس الكلام الزخارف البديعية واللفظية، وقد كانت للقاضي الفاضل يد طويلة، في هذه الحركة حتى عُدَّ شيخ الصناعة الكتابية وكانت له طريقة خاصة وترجع عناصرها إلى:.

1. التصوير التشخيصي يقوم ذلك بالتوفر على الاستعارات، وطرق المجاز

المختلفة، ثم بالتشخيص الكثير مما هو من مميزات الشعر.

2. الإيغال في الجنس والطباق والتورية : لقد أولع القاضي الفاضل بها،

وأكثر من استعمالها في رسائله، وأطال جملة، وباعد بين فواصلها

المسجّعة تتم له القرائن والمرشحات لبيان التورية والجناس ؛ فند

من ذلك كل غموض وتعقد.

3. الإكثار من حل المنظوم والتضمين.

4. الإطناب : وكثر في هذه الطريقة الإسهاب فمال القاضي الفاضل ولاسيما

من تبعه من الكتاب إلى العطف والترادف وغير ذلك من أساليب

التطويل⁽¹⁾ وقد ذكر ابن خلكان " أن القاضي الفاضل كان جُلَّ اعتماده

على حفظ كلامه، وأنه كان يستحضر أكثره⁽²⁾ ويعني بذلك ابن الشخباء،

وربما كان هو السبب الذي من أجله قال بعض الذين كتبوا عن القاضي

الفاضل: تلميذ ابن الشخباء، لأنه كان يحذو حذوه في الصياغة،⁽³⁾ ولم

يكن ابن الشخباء مصرياً بل كان من عسقلان وهي مكان نشأة القاضي

الفاضل ومما سبق أن فن القاضي الفاضل لا يعدو وفي عناصره الأساسية

(1) حنا فاخوري: تاريخ الأدب العربي، ص 720 - 721.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 133.

(3) محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية، ص 337.

إلا ما سبق عند ابن الشخباء، وهذا ما يجعلنا نؤمن بأن القاضي الفاضل لم يأت بطريقة جديدة تخالف الطرق الموروثة، بل لقد كان يعيش - كغيره من أدباء عصره - في الإطار الفني العام لمذاهب المشرق، وكان يعجب بمذهب التصنع وما وصل إليه ابن الشخباء مواطنه في استخدامه (1).

ونبوغ القاضي الفاضل في استعمال التورية، كان سبباً في أعجاب أدباء عصر المماليك به وفي مشيهم تحت رايته. وذلك لأن التورية - في الحق - عنصر أصيل من عناصر التعبير المصري، وقد كان لافتتانههم بأدبه أثر في إقبالهم على معارضته في بعض ما كتب، والمعارضة الأدبية في الشعر أو النثر دليل ضمنى على الإعجاب والتقدير وعلى الاقتداء (2).

وغلب منهج القاضي الفاضل كذلك على أذواق النقاد يهتدون بهديه ويترسمون خطاه، في أكثر ما تناولوه من مسائل النقد والحق أنه قد شارك الفاضل في صنع أذواق النقاد، أدباء غيره عاشوا قبله، وبعده (3).

ومن خلال رسالة القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية إلى الناصر لدين الله الخليفة يومئذ ببغداد وافتتح القدس (4).

نجد القاضي الفاضل يفتتح رسالته القدسية بالبسملة وبالثناء للخليفة العباسي الناصر لدين الله، فيصو له بالبقاء يقول: أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري" وفي هذا الافتتاح الفاضلي القدسي براعة استهلال وفيه تعظيم للمكتوب إليه.

(1) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، دار المعارف - مصر، 1965، ص 375.

(2) سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، 1965/1385، ط1، ج7، ص 283.

(3) نظر تذكرة الصفدي، ج 13 ورسالة للقاضي الفاضل، وبها معارضه ابن عبد الظاهر لها، وفي خزانة الأدب ص 431، وكذلك في ثمرات الأوراق، رسالة للقاضي الفاضل وأخرى لابن حجة يعارضه فيها.

(4) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص 284.

(5) انظر الرسالة كاملة القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص 496-504.

ويستمر القاضي الفاضل في الدعاء للخليفة ويطيل فيه ويقرن الدعاء بمدح الخليفة والإشادة به، يقول: "أدام الله...، ولازال مظفر الجدّ بكل جاحد، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد...، ومازالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرباع، وأنواراً إلى المساجد".

وتتحدث الرسالة القدسية عن موضوع واحد، فتصور الفتح وآثاره والفتح والعدو المحتل، والمعركة وهي العناصر المشتركة التي تقوم عليها الرسالة القدسية. إن هذه الوحدة في الرسائل القدسيات تتمثل في وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها، وما يتصل بذلك من ترتيب الأفكار والصور ترتيباً ينتهي بالخاتمة المناسبة.

ويختتم القاضي الفاضل رسالته القدسية اختتاماً متناسباً مع هدف الرسالة المباشرة الفتح العظيم، مبيناً أن السلطان صلاح الدين قاداً في فتح سائر الثغور، يقول: "وهذه البشائر لها تفاصيل الإنكار من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص، فلذلك أنقذنا لساناً شارحاً من طليعته إلى ساقته".

أما من ناحية الألفاظ فنجد القاضي الفاضل في رسالته القدسية يختار الألفاظ المناسبة للتعبير عن المعاني التي يتحدث عنها كما يبدو في قوله: ".... وأجلت المعركة عنصرعى من الخيل والسلاح والكفار....، فإنه قتلهم بالسيوف، الأفلاق، والرماح، الأكسوفيلوا بثأر من السلام، ونالوه أيضاً بثأر فكم أهلّة سيوف تقارض الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم رماح تبا دلت الطعان حتى صارت كالمطاعين".

واستخدم القاضي الفاضل الغريب في العديد من المواضع في رسالته القدسية، ولعل الذي دفع إلى ذلك تمثيل في الوصول إلى السجع، أو الجناس، أو غير من الفنون البديعية ومن ذلك قوله منصوراً العدو المحتل: "لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في فناء الأفنية لهم نصرة، وقوله: "لا جرم أنهم يتهافتون على ناره فراشهم مجتمع في ظل ظلامه خشاشهم، لقد استخدم الكاتب لفظة "عصرة" بمعنى منجاة، للوصول إلى السجع بين عصرة ونصرة.

واستخدم لفظة "خشاشهم" بمعنى حشرات الأرض يصور بها عامتهم للوصول
الذي يلزم به في رسالته.

واستخدم القاضي الفاضل بعض المصطلحات اللغوية كاستخدامه الجار
والمجرور ومتعلقهما في حديثه عن الفاتح وتعلق النصر به وبالجيش الإسلامية ،
فكما أن الجار والمجرور لا بد لهما من متعلق، فإن النصر لإله من مثل ذلك ،
يقول: "ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار
ومجرور".

واستخدم القاضي الفاضل ألفاظاً وتعبيرات في رسالته القدسية يشيع استخدامها
في النصرانية مثل الصليب، والتثليث والقومص ، والكنائس، والد يوية والاسبارتية..،
وهذا أمر طبعي فالصراع كان قائماً بين المسلمين وأعدائهم وهو صراع عسكري،
وصراع في العقيدة.

ويتسم أسلوب الرسالة القدسية بالإطناب والتفضيل والاستسقاء وهذا يتناسب مع
طبيعة تلك الرسائل الخاصة ...

ويبدو التأثير بالقرآن الكريم جلياً في الرسالة القدسية، التي أنشأها القاضي الفاضل
حيث يقول فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل "وهو ينظر إلى قوله تعالى : "إِنَّ لَكَ فِي
النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا"(1).

وفي خفي عن العدو الصليبي المحتل يقول : "وقد ضربت عليه الذلة والمسكنة
وبدل الله مكان السيئة الحسنة، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً وهو ينظر
إلى قوله تعالى : "وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ"(2)، وقوله تعالى : "ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ
الْحَسَنَةَ"(3)، وقوله : "وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ"(4).

(1) سورة المزمل، الآية: 7.

(2) سورة البقرة، الآية: 61.

(3) سورة الأعراف، الآية: 95.

(4) سورة آل عمران، الآية: 10.

7.5 الخاتمة:

لقد اتضح لنا من خلال الفصول السابقة أنه قد برز منذ بداية العصر الفاطمي، ازدياد نفوذ ديوان الإنشاء تدريجياً ، فبعد إن كان المعز يقوم بالتوقيع على الكتب نفسه، نجد العزيز أسند هذه المهمة إلى وزيره يعقوب بن كلس إضافة إلى سلطة الإشراف على المكاتبات، ويبقى الإشراف على المكاتبات من حق الوزير حتى عصر الخليفة المنتصر حين قام بعزل أبي جعفر محمد بن جعفر المغربي عن الوزارة، وأفرد له ديوان الإنشاء فمنذ ذلك الوقت أصبح ديوان الإنشاء له إدارة مميزة ذات رئيس مباشر يتبع تبعية عامة للوزير، وما برح ديوان الإنشاء قائماً حتى عصر المماليك، وقد عرف هذا الديوان بأسماء مختلفة في عصر الفاطميين ، وأطلق عليه في أول الأمر اسم ديوان الرسائل، وكان يطلق عليه أحياناً ديوان المكاتبات. وكانت من مهمة هذه الديوان إنشاء المكاتبات الصادرة باسم رئيس الدولة ، وتصديرها، وتسليم ما يرسل من شكاوي وكتب وعرضها عليه ، وتوجيه تعليقاته عليها إلى الجهات المختصة، والعمل على تنظيم ذلك كله.

ولأهمية موظفي الديوان وصفهم ابن الصديقي بأنهم رؤساء الدولة ، وكثيراً ما وجدنا وظيفة الكتابة تؤهلهم للوزارة، ومما يدل على أهمية ديوان الإنشاء من خلال أن بعض الوزراء تولى ديوان الإنشاء بعد صرفه من الوزارة إذ لم يكن من المعتاد استخدام الوزراء بعد عزلهم.

وظلت تقاليد ديوان الإنشاء الفاطمي أصلاً لما جد في العصر الأيوبي وعصر المماليك وربما يرجع الفضل في ذلك إلى القاضي الفاضل الذي خدم في ديوان الإنشاء الفاطمي وتمرس بأنظمته أن يستولي صلاح الدين على مقاليد الحكم ، ويسند إليه رئاسة ديوان الإنشاء.

ولقد ظلت نظم ديوان الإنشاء الفاطمي وتقاليدته معمولاً بها في عصر الأيوبيين فقد كان من سياسة صلاح الدين عدم المساس بنظم الفاطميين الإدارية ، فأبقى على ديوان الإنشاء بتقاليدته وأنظمته والذي ساعد على استمرار تقاليد الإنشاء الفاطمي وعلو شأن هذا الديوان أنه تولى رئاسته -قبيل القضاء على الدولة الفاطمية- أديب فذ لعب أهم الأدوار في تاريخ الحركة الإدارية والأدبية في ذلك

العصر لاً وهو القاضي الفاضل . وقد بلغ من شدة إعجاب صلاح الدين الأيوبي بمكاتبات القاضي الفاضل أن كان يقول : (فتحت البلاد بكتابات القاضي الفاضل لا بالعساكر)، ولقد ذاع صيت رسائل القاضي الفاضل حتى أقبل الأدباء على اقتنائها وجمعها في مجلدات واتخاذها مثلاً يحتذونه ويستشهدون به . ولم يقف لجهود القاضي الفاضل عند حد الإبقاء على تقاليد ديوان الإنشاء الفاطمي بل عمل على الاستفادة من الأنظمة العباسية التي دخلت مصر بحكم الظروف الجديدة ، وربما رغب في العمل على التوفيق بين تقاليد الديوانين ، فقوى أو أضر الصداقة بينه وبين العماد الكاتب الذي خدم الدولة العباسية وسعى في التوسط له لدى صلاح الدين الأيوبي حتى عينه في الإشراف على ديوان الإنشاء بالشام.

المراجع

- ابن الأثير، الجزري (637م / 1239): 1996، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر تقديم رحي الفيصل : منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق.
- ابن الأثير، الجزري (637م / 1239): 1298هـ. الوشي المرقوم في حل المنظوم، مطبعة ثمرات الأوراق.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمود الشيباني (ت630 / 1232): 1963/1387. الكامل في التاريخ ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، الأبار، أبو عبد الله محمد (1260/1199): (د.ت). الحلة السيرة تحقيق: حسين مؤنس الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.
- إسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثارهم المصنفين من كشف الظنون: 1990م. دار الفكر، بيروت.
- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين (ت 667هـ/1270م): 299 كتاب عيون الأتباء في أخبار الأطباء جزءان ، القاهرة،
- الألباني، محمد ناصر الدين : 1986م صحيح الجامع الصغير وزيادته ، المكتب الإسلامي، بيروت.
- أمين، أحمد: ظهر الإسلام. 1945. دار الكتاب العربي، بيروت، ط3.
- أيوب، إبراهيم: 1997م. التاريخ الفاطمي الاجتماعي. ط1، الشركة العالمية للكتاب، لبنان.
- أيوب إبراهيم، 1997. التاريخ الفاطمي السياسي ، ط1، الشركة العالمية للكتاب، لبنان.
- بدوي، أحمد أحمد : 1952. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. مطبعة نهضة مصر، القاهرة.
- بدوي، عبد الرحمن، 1977. مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن بسام، **الذخيرة**، (د.ت). القسم الرابع، مكتبة جامعة القاهرة، ورقة، 183.
بكار، الزبير، 1381 **جمهرة نسب قریش وأخبارها**، تحقيق: محمود شاكر،
القاهرة.

البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت892): (د.ت). **فتوح البلدان**.
تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين،
بيروت.

تامر، عارف، 1978. **أربع رسائل إسماعيلية**، منشورات دار مكتبة الحياة،
بيروت.

ابن تغري بردي، جمال الدين بن يوسف (ت1469/874): **النجوم الزاهرة في
ملوك مصر والقاهرة**، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب، القاهرة،
1929، 16 جزءا.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر : **البيان والتبيين**، تحقيق: درويش حويدي،
المكتبة العصرية، صيدا.

الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس : 1401هـ/1980. **كتاب الوزراء
والكتاب**، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، ط2.

الجويني، مصطفى الصاوي : 1390/1970. **ملاحح الشخصية المصرية في
الدراسات البيانية في القرن السابع الهجري**، الهيئة العامة للتأليف والنشر،
القاهرة .

ابن حجر، العسقلاني، أحمد بن علي، (ت852هـ/1448): 1966م. **الدرر الكامنة
في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ط 2، دار الكتب
الحديثة، القاهرة.

حسن إبراهيم حسن، 1964. **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية
وبلاد العرب**. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

حسن إبراهيم وطه شرف، 1948م. **المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية
ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر**. القاهرة.

حسن باشا، 1978 الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار . ط1، دار النهضة العربية، مصر.

حسين، محمد كامل، 1958. طائفة الإسماعيلية، مكتبة النهضة المصرية.

حسين، محمد كامل: 1963. في أدب مصر الفاطمية. القاهرة، دار الفكر العربي.

حمادة، محمد ماهر : 1980/1400 الوثائق السياسية والإدارية للعهد الفاطمي والأتابكية والأيوبيه دراسة ونصوص. ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الحنبلي، عبد الحي بن العماد : 979 تذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الفكر، القاهرة.

الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله : (د.ت). المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء، مخطوط رقم 1027، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

خضر، أحمد عطا الله : 1989 الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي . دار الفكر العربي، القاهرة.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي : 1420هـ/1999م. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.

الخطيب، محمد أحمد، 1989. عقيدة الدروز، عالم الكتب، الرياض، ط3.

الخطيب، محمد أحمد، 1984 الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، مكتبة الأقصى، عمان.

الخميني، آية الله، 1988. الحكومة الإسلامية تقديم وتعليق : د. عمر الخطيب، دار عمار، عمان.

المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن خلف، علي : 1982. مواد البيان. تحقيق: حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفتح، طرابلس.

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي (ت1282/681): (د.ت) وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق: حسان

عباس، 7 أجزاء.

- الدروبي، محمد محمود، 1990. الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الفكر، عمان.
- الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر (ت666هـ/1267). (د.ت). مختار الصحاح: مكتبة النوري، دمشق باب قلد.
- الزركلي، خير الدين: (د.ت). الأعلام، (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت.
- الزعبي، أحمد: 1995/1415. التناسل نظريا وتطبيقيا، الكتابي، إربد.
- السجستاني، أبو يعقوب إسحق، 1965. الينابيع، تحقيق: مصطفى غالب، بيروت.
- سرور، محمد جمال الدين: 1965. تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق. القاهرة.
- سليم، محمود رزق : 1965/1385م. عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي. مكتبة الآداب.
- السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م): 1387هـ/1967. حسن المحاضر قفي تاريخ مصر والقاهرة . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.
- الشافعي، محمد بن إدريس (150هـ - 204هـ): (د.ت). الأم. دار المعرفة، بيروت.
- ابن شاکر الکتیبي، محمد بن شاکر بن أحمد الحلبي (1362/764): 1951. فوات الوفيات جزءان، بولاق سنة 1299هـ، القاهرة.
- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665هـ/1266): 1287هـ/1870. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. القاهرة،
- شكيل، هادية دجاني : 1993. القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، ودور التخطيط في دولة صلاح الدين وفتوحاته، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.
- الشيال، جمال الدين : 1422هـ/2002. مجموعة الوثائق الفاطمية وثنائى الخلافة وولاية العهد والوزارة. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- ابن أبي شيبه، الإمام الحافظ أبي بكر عبدالله بن محمد بن إبراهيم (159هـ/235هـ): (د.ت). مصنف ابن أبي شيبه، تقديم: سعد عبدالله آل

- حميد، تحقيق: حمد بن عبدالله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشيد، الرياض.
- ابن شيث، عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي (ت 1062/652): 1988م. كتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- صبحي، أحمد محمود، 1969 نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية ، دار المعارف، القاهرة.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ/1362): 1931. الوافي بالوفيات، الاستانة.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت764هـ/1362): 1994. نكت الهميان في نكت العميان. دار الطلائع، القاهرة.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله (ت335هـ/946م): 1415هـ/1994. أدب الكتاب شرح وتعليق : أحمد حسن لبج، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن الصيرفي، علي أبو القاسم (ت542هـ/1147): 1924م. الإشارة لمن نال الوزارة، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة.
- قانون ديوان الرسائل،الإشارة لمن نال الوزارة . تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، 1990/1410، المقدمة.
- ضيف، شوقي: 1965. الفن ومذاهبه، دار المعارف، مصر.
- الظاهري، خليل بن شاهين (لاتا): 1894. زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه: بولس راويس، طبعة باريس.
- عباس، إحسان: 1988. عبد الحميد بن يحيى الكاتب. دار الشروق.
- عبد الباقي، محمد فؤاد : 1406هـ/1986المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . دار الحديث، القاهرة.
- عبد الحميد حسن، (د.ت). صفحات من الأدب المصري من العصر الفاطمي إلى النهضة الحديثة.

عريب، سعد: (د.ت). صلة تاريخ الطبري . منشورات مكتبة الخياط، بيروت، (لا، تا).

ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي (499هـ - 571): 1995. تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت.

العقاد، محمود، (د.ت). فاطمة الزهراء والفاطميون، نهضة مصر، (د.ت).
العلاق، جعفر: 1997م الشعر والتلقي (دراسات نقدية). دار الشروق،
العماد الأصبهاني، 1952م قسم شعراء مصر . تحقيق: أحمد أمين وزميله، مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر خريدة القصر وجريدة العصر، الخريدة
ورقة 49.

عمارہ اليمني، 1897م المنكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية . طبع مدينة
شالون.

العمري ابن فضل الله، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت749هـ / 1348م):
1408هـ / 1988. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. مكتبة السليمانية،
استانبول.

العمري ابن فضل الله، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت749هـ / 1348م):
1413هـ - 1992م. التعريف بالمصطلح الشريف . تحقيق: د. سمير
الدروبي، منشورات جامعة مؤتة.

غربال، محمد شفيق : (د.ت). الموسوعة العربية الميسرة دار الشعب ومؤسسة
فرنكلين، القاهرة.

الغزالي، أبو حامد (505هـ / 1111): (د.ت) فضائح الباطنية أو المستظهري .
نشر جولد تسهير، (لیدن 1616).

أبو الفداء، إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه (ت732هـ / 1331):
(د.ت). المختصر في أخبار النشر. المطبعة الحسينية، القاهرة.

قبيط، غامستون: 1968. القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة: مصطفى العبادي
نشر بالاتفاق مع المؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، مكتبة لبنان، بيروت،
نيويورك.

ابن قتيبية، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبية الكوفي (ت889/276م): 1963.
أدب الكاتب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، المكتبة التجارية،
مصر.

القرشي، إدريس عماد الدين (ت872هـ/1467م): (د.ت). عيون الأخبار وفنون
الآثار، تحقيق: مصطفى غالب، ط2، دار الأندلس، بيروت.
القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت1338/739): 1991.
الإيضاح في علوم البلاغة . قدم له وبوبه وشرحه: علي بو ملح، ط2، دار
ومكتبة الهلال، بيروت.

القزويني، محمد، الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد (ت207-275هـ): 1987. سنن
ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية.
ابن القضاة، محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي (ت1062/454): 1995. عيون
المعارف وفنون أخبار الخلائق. تحقيق: جميل عبد الله محمد المصري.
ابن القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب
(ت646هـ/1348): 1326م. إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت1160/555): 1908. تاريخ ابن القلانسي المسمى
ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: أمسد وز (مطبعة الآباء اليسوعيين)، بيروت.
القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ/1418): 1407 - 1987م. صبح الأعشى في
صناعة الإنشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، ودار الكتب
العلمية.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت774هـ/1372):
1408هـ/1988. البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث
العربي.

الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحق، 1401هـ.الأصول من الكافي ، دار صعب، بيروت، ط4.

ابن المأمون، الأمير جمال الدين أبو علي موس بن المأمون البطائحي (ت 588هـ/1192): 1983م. أخبار مصرنصوص من، ت تحقيق: أيمن فؤاد

سيد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

المؤيد لدين الله، داعي الدعاة، 1949. ديوان المؤيد، تحقيق: محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري.

ماجد، عبد المنعم: (د.ت). السجلات المستنصرية، دار الفكر العربي، القاهرة. الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد حبيب (ت 450هـ/1058): 1909. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة.

متر آدم، (1940-1941). الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة: محمد عبد الهادي ريده، جزءان - القاهرة.

محمود الحلبي، شهاب الدين محمود الحلبي (725هـ/1324): 1987، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، سلسلة كتب التراث (86)، العراق، وزارة الثقافة والإعلام.

المديني، أحمد: 1989م في أصول الخطاب النقدي الجديد ، دار الشؤون الثقافية، ط2، بغداد.

مصطفى إبراهيم وآخرون، (د.ت). المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة. المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت843هـ/1439): (د.ت). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي.

المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت843هـ/1439): 1971، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: الجزء الأول الشبال، القاهرة، 1967، والجزء الثاني، محمد حلمي محمد، القاهرة.

المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت843هـ/1439): 1957م. إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر: زيادة والشبال، ط2، القاهرة.

- ابن مماتي، شرف الدين أبي المكارم (ت606هـ/1209): 1943م **قوانين الدواوين**، جمع وتحقيق: عزيز سوريا عطية، مطبعة مصر.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ/1311): 1994. **لسان العرب**، ط3، دار صادر، بيروت.
- ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن حلب راغب (ت677هـ/1278): **المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت843هـ/1439): المنتقى من أخبار مصر**. تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي بمصر، القاهرة.
- النعمان بن محمد، 1987. **المجالس والمسائرات**، تحقيق: الحبيب الفقي، تونس، الجامعة التونسية.
- النووي، محي الدين بن شرف : (د.ت) **تهذيب الأسماء والصفات**، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن هانيء الأندلسي، 1326هـ. **ديوان ابن هانيء**، بيروت.
- أبو الهلال العسكري، (د.ت). **كتاب الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، 1953، 1957. **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**. نشرة، جمال الدين الشيال، ج1، القاهرة، ، ج2، القاهرة.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين: 1936-1938. **معجم الأديباء**، القاهرة، الحلبي.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين : 1936-1938. (د.ت). **معجم البلدان**، تحقيق: فريد عبد العزيز الحبزي، دار الكتب العلمية، بيروت.